كيلي بارنهيل

الفتاة التي شربت من ضوء القمر

ترجمة نهى صلاح

الفتاة التي شربت من ضوء القمر

تأليف
كيلي بارنهيل

ترجمة
نهى صلاح

مراجعة
محمد حامد درويش

هنـــداوي

الفتاة التي شربت من ضوء القمر

The Girl Who Drank the Moon

كيلي بارنهيل

Kelly Barnhill

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٣٠٩١ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لسيمبلي إنورمس دراجون إل إل سي، عناية رايترز هاوس إل إل سي.

Copyright © 2016 by Kelly Barnhill. This book is translated and printed in collaboration with the Arabic Book Program of the American Embassy in Cairo.

المحتويات

شكر وتقدير	٩
١- حكاية تُروى	١١
٢- امرأة تعِسة الحظ تفقد عقلها	١٣
٣- الساحرة تسحر الطفلة من غير قصد	٢١
٤- كان مجرد حلمٍ	٣١
٥- وحش المستنقع يقع في الحب مصادفةً	٣٣
٦- أنتين يُوَرِّط نفسه في المتاعب	٤١
٧- الطفلة المسحورة تُسبِّب مزيدًا من المتاعب	٤٩
٨- حكاية تحتوي على لمحةٍ من الحقيقة	٥٥
٩- أمور عديدة تسوء	٥٧
١٠- الساحرة تعثر على بابٍ، وأيضًا، ذكرى	٦٥
١١- الساحرة تتوصل إلى قرار	٦٩
١٢- الطفلة يُحكى لها عن «المستنقع»	٧٥
١٣- أنتين يذهب في زيارة	٧٧
١٤- ثمة تَبِعات	٨٧
١٥- أنتين يكذب	٩٥
١٦- عالم من الورق	١٠٥
١٧- شرخ في حبة الجوز	١٠٩
١٨- الساحرةُ تُكتَشَف	١١٥
١٩- رحلة إلى «مدينة العذاب»	١٢٣

٢٠- لونا تروي قصة ١٣١
٢١- فيريان يتوصل إلى اكتشاف ١٣٣
٢٢- حكاية أخرى ١٤٣
٢٣- لونا ترسم خريطة ١٤٥
٢٤- أنتين يقدِّم حلًّا ١٥٥
٢٥- لونا تَتَعَلَّمُ كلمةً جديدة ١٦١
٢٦- المرأة المجنونة تتعلم مهارةً وتستخدمها ١٦٥
٢٧- لونا تعرف أكثر مما تمنَّت ١٧١
٢٨- أشخاص عديدون يذهبون إلى الغابة ١٧٥
٢٩- حكايةٌ فيها بركان ١٨٥
٣٠- الأمور أصعب مما كان مخططًا له ١٨٧
٣١- المرأة المجنونة تعثر على بيت الشجرة ١٩١
٣٢- لونا تعثر على طائر ورقي ١٩٥
٣٣- الساحرة تلتقي بأحد المعارف القدامى ٢٠٣
٣٤- لونا تلتقي بامرأة في الغابة ٢٠٩
٣٥- جليرك يشم رائحة مكروه ٢١٩
٣٦- لا جدوى من الخريطة ٢٢٥
٣٧- الساحرة تعرف شيئًا صادمًا ٢٣١
٣٨- الضباب يبدأ في الانقشاع ٢٣٥
٣٩- جليرك يُخبر فيريان بالحقيقة ٢٤٣
٤٠- خلاف حول الحذاء الطويل الرقبة ٢٤٩
٤١- مسارات عديدة تتلاقى ٢٥٣
٤٢- العالم يُصبح أزرق وفضيًّا، وفضيًّا وأزرق ٢٥٩
٤٣- الساحرة تُلقي بتعويذتها الأولى، عن عمدٍ هذه المرة ٢٦١
٤٤- تبدُّل في المشاعر ٢٦٥
٤٥- التنين الهائل يتخذ قرارًا هائلًا ٢٧١
٤٦- التئام شمل العديد من العائلات ٢٨١
٤٧- جليرك يذهب في رحلةٍ ويترك وراءه قصيدة ٢٨٩
٤٨- الحكاية الأخيرة تُروى ٢٩٣

إلى تيد،
مع حبي.

شكر وتقدير

تأليف كتابٍ، نشاطٌ يقوم به المرء منفردًا. لا أحد يؤلِّف كتابًا بمُفرده. هذان الأمران متناقضان، لكن كلاهما صحيح. كل يوم أجلس على مكتبي بمفردي، وأدخل في صراع مع سحَرَةٍ مَيِّتين وآكلات حُزن وقلاع مُدمرة وأطفال مُتمردين في الحادية عشرة من عمرهم ووحوش مُستنقع أكثَرُ حِكْمَةً وتَعقُّلًا. في بعض الأيام كانت هذه المهمة سهلة. لكنها كانت صعبة في معظم الأيام. كنت أخوض هذه الصراعات بمفردي؛ لكنني تلقيتُ مساعدةً. فيما يلي من ساندوني:

- آن أورسو: جالبة الأفكار، والمُهدئة، وباعثة السكينة في روحي.
- المتمردون على القطيع: براين بليس، وستيف بريزينوف، وجودي كرومي، وكارلين كولمان، وكريستوفر لينكولِن، وكورتيس سكالينا. أنتم تعرفون السبب.
- مؤسسة ماكنايت، لتيسير الأمور لبعض الوقت.
- مجتمع أدب الأطفال في مينيسوتا. أقولها بجدية. عددُنا يكفي لأن نملأ عدة بلدات صغيرة.
- إليز هوارد، المُحرِّرة العبقرية الرائعة التي كانت أفضل مما أستحق؛ التي أصرَّت على أنْ أُؤلِّف هذا الكتاب عاجلًا وليس آجلًا؛ والتي هي على حقٍّ في كل شيء.
- ستيف مالْك، الرجل الغامض. أحد الأشخاص المُفضَّلين لديَّ. وكلاء الأعمال الأدبية أشخاص يملكون قوًى خارقة؛ أنا مُقتنعةٌ تمامًا بهذا. وأنا محظوظةٌ جدًّا بأن تكون عيناه وأذناه وعقله وحماسه الذي لا ينقطع دافعًا على الدوام لكتاباتي.

الفصل الأول

حكاية تُروى

«نعم.

توجد ساحرة في الغابة. دائمًا ما كانت توجَد ساحرة.

هلا كففتِ عن التململُ قليلًا؟ يا إلهي! لم أرَ طفلةً تتململ بهذا القدر.

لا يا قُرَّة عيني، لم أرَها من قبل. ولم يسبق لأحدٍ أن رآها. لم يحدث ذلك منذ سنواتٍ طويلة. لقد اتخذنا خطواتٍ كي لا نراها أبدًا.

خطوات فظيعة.

لا تجعليني أُخبركِ بها. أنتِ تعلمين بالفعل، على أي حال.

أوه، لا أعلم يا عزيزتي. ولا أحد يعلم لماذا تريدُ الأطفال. نحن لا نعلم لِمَ تُصر على اختيار الأصغر بيننا. لا يبدو أن بوسعِنا أن نسألها. فلم يسبق لأحدٍ أن رآها. ونحن نبذل قصارى جهدنا كي لا نراها.

بالتأكيد هي موجودة، يا له من سؤال! انظري إلى الغابة! خطيرة جدًّا! الدخان السام والحُفر والينابيع الحارة والمخاطر المروِّعة في كل مكان. هل تعتقدين أن كل هذا محض مصادفة؟ هذا هراء! لقد كان السبب هو الساحرة بالتأكيد، وإن لم نمتثل لما تقول فماذا سيحدث لنا؟

بالتأكيد أنتِ تريدين مني أن أشرح لكِ ما حدث، أليس كذلك؟

أُفضِّل ألا أفعل ذلك.

يا إلهي! اهدئي لا تبكي. تبكين وكأن مجلس الحكماء جاء لأخذكِ أنت، الأمر ليس كذلك. لقد أصبحتِ أكبر بكثيرٍ من أن يقع عليكِ الاختيار.

هل أخذوا من عائلتنا؟

نعم يا عزيزتي. منذ زمنٍ بعيد. قبل أن تُولَدي. كان طفلًا جميلًا.

الآن، أَنهي عشاءك واعتني بمهامِّكِ المنزلية. فجميعُنا سنستيقظ مبكرًا غدًا. «يوم التضحية» لا ينتظر أحدًا. وعلينا أن نحضر جميعًا كي نشكر الطفلَ الذي أنقذ حياتنا لسنةٍ أخرى.

أخاكِ؟ كيف كان لي أن أقاتل من أجله؟ لو كنت فعلت ذلك، لكانت الساحرة قتلتنا جميعًا، وإلامَ كان سيئول مصيرنا؟ إما أن نُضحِّي بواحدٍ أو نُضحِّي بالجميع. هكذا هو حال العالم. لا يمكننا تغيير هذا حتى إن حاولنا.

كفى أسئلة، اذهَبِي عني. يا لكِ من طفلةٍ حمقاء.»

الفصل الثاني

امرأة تعِسة الحظ تفقد عقلها

حرص جيرلاند، كبير الحكماء، على التأني ذلك الصباح. «يوم التضحية» لا يأتي سوى مرةٍ واحدة في العام على أي حال، ولا بد أن يبدوَ في أفضل مظهر له أثناء الموكب المهيب المتجه إلى البيت المشئوم وأثناء التقهقر الكئيب للموكب. وقد نصح الحكماءَ الآخرين بأن يحذوا حذوَه. كان من المهم الاستعراض أمام عامة الناس.

وضع القليل من الحُمرة على خدَّيه المترهِّلَين وحدَّد عينَيه بخطوط سميكة من الكحل. فحص أسنانه في المرآة كي يتأكد من عدم وجود أي فُتاتٍ أو بقايا طعام عالقة. أَحَبَّ هذه المرآة. فقد كانت الوحيدة في «المحمية». ولا شيء يُسعد جيرلاند أكثر من اقتناء شيء فريد من نوعه لا يملكه أحدٌ سواه. فهو يحب أن يكون «مميزًا».

امتلك كبير الحكماء العديد من الممتلكات النادرة في «المحمية». كانت هذه إحدى منافع منصبه.

كانت «المحمية»، التي يُطلِق عليها بعضهم «مملكة عشب البوط»، ويطلِق عليها البعض الآخر «مدينة الأحزان»، محصورةً بين الغابة المحفوفة بالمخاطر من جهة ومُستنقعٍ هائل من جهة أخرى. كان معظم سكان «المحمية» يكسبون رزقهم من «المستنقع». أخبرت الأمهات أطفالهن بأن السير في المستنقع سيكون له مستقبل. لن يكون مستقبلًا مبهرًا لكنه سيكون أفضلَ من لا شيء. يزخر «المستنقع» ببتلات نبات الزيرين في الربيع وأزهار الزيرين في الصيف وثمار الزيرين في الخريف، بالإضافة إلى مجموعةٍ واسعة من النباتات السحرية الطبية والنباتات غير المعروفة التي تُحصَد وتُحضَّر وتُعالَج ثم تُباع للتجار على الجانب الآخر من الغابة، وينقل التجار بدَورِهم ثمار «المستنقع» إلى «المدن المستقلة»، بعيدًا. الغابة نفسها كانت مكانًا مروعًا جدًّا ولا يمكن التنقُّل فيها إلا من خلال «الطريق». كان مجلس الحكماء يملك هذا «الطريق».

بعبارة أخرى، كان جيرلاند كبير الحكماء يملك الطريق، وللحكماء الآخرين حِصة. كان الحكماء يملكون «المستنقع» أيضًا. والبساتين. والمنازل. والأسواق. وحتى الحدائق المنزلية.

لهذا السبب كانت العائلات في «المحمية» تصنع أحذيتَها من البوص. ولهذا السبب، في أوقات الشدة، كانوا يُطعمون أطفالهم حساء «المستنقع» الكثيف، على أمل أن يمنحَهم «المستنقع» القوة.

ولهذا تربى الحكماء وعائلاتهم على اللحم والزبد والجعة، فصاروا ضخامًا أقوياء البنية بخدودٍ وردية.

سُمِعَ طرقٌ على الباب.

غمغم جيرلاند: «ادخل»، بينما كان يُعدِّل ثنية ردائه.

كان الطارق أنتين ابن أخته. كان «حكيمًا تحت التدريب»، لا لشيءٍ سوى أن جيرلاند، في لحظة ضعف، وعَدَ الأم الأكثر حمقًا من الفتى نفسه بهذا. ولكن ليس من اللُّطف قول هذا. فقد كان أنتين فتًى مهذبًا جدًّا، في الثالثة عشرة من عمره تقريبًا. كان مُجدًّا في عمله وسريع التعلُّم. كما كان يجيد حساب الأرقام واتسم بالمهارة اليدوية؛ إذ كان بإمكانه صناعة مقعدٍ خشبي مريح لكبير الحكماء المتعَب بسرعة تعادل سرعة تنفسُّه. وعلى غير رغبةٍ من جيرلاند، راوَدَه شعور مُتزايد وغير مُبرَّر بحب الفتى.

ولكن ذلك لم يكن كل شيء.

كان لدى أنتين أفكار عظيمة، وملاحظات كبرى. وكان لديه «أسئلة». عقد جيرلاند حاجبَيه. لقد كان أنتين — كيف يمكنه وصفه؟ — «شديد التطلع والحماس». وإذا استمر في هذا، فسيتعين التعامُل معه، سواءً كان بينهما صلة دمٍ أم لا. مجرد التفكير في هذا كان يَثقُل على قلب جيرلاند كجلمود صخر.

«خالي جيرلاند!» باغت أنتين خاله وكاد يُسقطه أرضًا بسبب حماسته التي لا تُحتمَل.

أجاب كبير الحكماء بعنف: «على رسلك يا فتى! هذه مناسبة مهيبة!»

سكن جموح الفتى بوضوح، وأطرق بوجهه اللاهث كوجه الكلب نحو الأرض. قاوم جيرلاند الرغبة في أن يُربِّت بيده على رأس الفتى برفق. تابع الفتى بصوت ناعم: «لقد أُرسِلْتُ إليك كي أخبرك أن بقية الحكماء جاهزون. وجميع العامة ينتظرون على طول الطريق. وكلٌّ في مكانه.»

«كل واحد؟ ألا يُوجَد متهربون؟»

قال أنتين بصوتٍ مرتعش: «بعد العام الماضي، أشكُّ في أن يُوجَد من جديد أيُّ مُتهربين».

«يا للأسف!» تفحَّص جيرلاند مرآته مرة أخرى، وهو يلمس الحمرة على خدَّيه. كان يستمتع جدًّا بتعليم الدرس الخاص بهذه المناسبة لمواطني «المحمية». فهذا يوضح الأمور. ربَّت بأصابعه على التجاعيد والطيَّات المترهلة أسفل ذقنه وعقد حاجبيه. وقال، وهو يُحدث حفيفًا أنيقًا بردائه الذي استغرق منه أكثر من عقد حتى يُصبح متقنًا: «حسنًا يا ابن الأخت، لنذهب. فهذا الرضيع لن يُضحِّي بنفسه». وخرج إلى الشارع بصُحبة أنتين الذي كان يتعثر في عقبه.

عادةً، يأتي «يوم التضحية» وينقضي بكل مظاهر الأبَّهة والخيلاء التي ينبغي أن يكون عليها. يُسَلَّم الأطفال دونما أي احتجاج. تنتحِب الأُسر عديمة الحيلة في صمت، وتتراكم أواني الحساء والأطعمة في مطابخهم، وتلتفُّ حولهم أذرُع الجيران المواسِية علَّها تُخفف عنهم آلام الفقدان.

عادةً، لا يكسِرُ أحدٌ القواعد.

لكن هذا لم يحدث هذه المرة.

زمَّ جيرلاند شفتَيه في عبوس. كان بوسعه أن يسمع نواح الأم قبل أن ينعطف الموكب في الشارع الأخير. بدأ المواطنون يتحركون في أماكنهم في عدم ارتياح.

عندما وصلوا لمنزل الأسرة، رأى مجلس الحكماء مشهدًا مذهلًا. التقى بهم عند الباب رجل بوجهٍ مخدوش وشفةٍ سُفلى متورِّمة وبُقَع دموية في فروة الرأس الصلعاء التي تساقطت منها خصلات الشعر. حاول أن يبتسِم لكن لسانه انتقل تلقائيًّا إلى الفراغ الذي خلَّفته إحدى الأسنان مؤخرًا. بدلًا من ذلك لعق شفَتَيه وحاول أن يَنحني احترامًا.

قال الرجل — الأب على الأرجح: «أعتذِرُ يا سادة. لا أعلم ماذا حدث لها. يبدو أنها أصيبت بالجنون.»

صرخت امرأة من العوارض الخشبية فوقَهم وانتحبت بمجرد دخول الحكماء إلى المنزل. كان شعرُها الأسود اللامع يتطاير حول رأسها كعشٍّ من الأفاعي الطويلة المُتلوِّية. أصدرت المرأة فحيحًا وتَفَلَتْ كحيوانٍ محاصَر في زاوية. تشبثت بدعامات السقف بإحدى ذراعيها وساقيها، بينما ضمَّت ابنتها إلى صدرها بقوة بالذراع الأخرى.

صرخت المرأة: «اخرجوا من هنا! لا يمكنكم أخذها. أبصُق على وجوهكم وألعن أسماءكم. غادروا بيتي في الحال، وإلا اقتلعتُ أعينكم وألقيتُ بها للغربان!»

حدَّق فيها الحكماء فاغرين أفواههم. لم يستطيعوا تصديق ما يسمعون. كيف يُقاتِل أحدٌ من أجل طفل محكوم عليه بالهلاك. ببساطة هذا لم يحدث من قبل.

(بدأ أنتين وحدَه يبكي. وبذل كل ما بوسعِه لكيلا يراه أحدٌ من الكبار الموجودين في الغرفة.)

ثَبَّتَ جيرلاند، الذي أخذ يفكر بسرعة في الأمر، تعبيرًا ينمُّ عن اللُّطف على وجهه المتجعد. مدَّ راحتَيه ناحية الأم كي يُبين لها أنه لا ينوي أي أذًى. أخذ يصِرُّ على أسنانه من خلف الابتسامة. فكل مظاهر الطيبة هذه كانت تكاد تقضي عليه من الداخل.

قال جيرلاند بأقصى نبرةٍ صبورة لدَيه: «نحن لن نأخذها على الإطلاق أيتها الفتاة المسكينة المضللة. الساحرة هي التي ستأخذها. إننا نفعل ما أُمِرنا به فحسب.»

أصدرت المرأة غمغمةً خرجت من أعماق صدرِها كدُبٍّ غاضب.

ربَّت جيرلاند بيدِه على كتف الزوج المذهول وضغط عليه برفق. وقال: «يبدو أنك على حقٍّ أيها الرجل الطيب؛ لقد أصيبت زوجتك بالجنون.» وبذل قصارى جهده كي يُدثِّر غضبه بغطاءٍ من الجزع. «حالة نادرة بالتأكيد، لكن هذا ليس بالأمر الجديد. لا بد أن نستجيب لذلك بالعطف، فهي تحتاج إلى الرعاية لا اللوم.»

بصقت المرأة، وقالت: «كذاب». بدأت الطفلة تبكي وتسلَّقت المرأة لأعلى أكثر، واضعةً كل قدمٍ على إحدى العواض المتوازية ومُستندةً بظهرها على السطح المائل، محاولةً أن تتموضع بطريقةٍ تجعل من الصعب الوصول إليها بينما كانت تُرضِع طفلتها. هدأت الطفلة في الحال.

قالت مُزمجرةً: «إذا أخذتموها، فسأجِدُها. سأجدُها وسأستعيدُها. سترى أنني سأفعل ذلك.»

ضحك جيرلاند، وقال: «وتواجهين الساحرة؟ ستفعلين كل هذا بمفردكِ؟ يا إلهي! أنتِ مُثيرة للشفقة، أيتها المرأة الضالة.» كان صوتُهُ عذبًا، لكن وجهَهُ كان جمرةً مُتقدة. «لقد أفقدكِ الأسى صوابكِ. لقد دمَّرَت الصدمةُ عقلكِ. لا عليكِ، سنداويكِ بأفضل ما في وسعنا. يا حُراس!»

طقطق بإصبعَيه مُستدعيًا الحراس، فاندفعت حارسات مُسلحات إلى الحجرة. هؤلاء الحارسات هن وحدة خاصة تُرسلها قوات «أخوات النجمة» دائمًا. كُنَّ يحملنَ أقواسًا وسهامًا تتدلى من ظهورهنَّ وسيوفًا قصيرة حادة داخل أغمادها. وشعورهن الطويلة المضفَّرة تلتفُّ حول خصورهن، حيث تُربط بإحكام، شاهدةً على سنواتٍ من التأمُّل

والتدريبات القتالية أعلى «البرج». كانت وجوههن جامدة كأنما قُدَّت من صخر، وحتى الحكماء، على الرغم مما كانوا يتمتعون به من قوة ونفوذ، تحركوا بعيدًا عنهن. كانت قوات «أخوات النجمة» قوة مخيفة. لا يمكن لأحدٍ العبث معها.

قال جيرلاند آمرًا: «خُذْنَ الطفلة من قبضة المخبولة، واقتدْنَ هذه المسكينة إلى «البرج».» حملق في المرأة الموجودة عند العوارض الخشبية، التي شحب وجهها فجأة بشدة. «قوات «أخوات النجمة» تعرف جيدًا ما يتعين فعلُه مع العقول المحطَّمة يا عزيزتي. أنا متأكد من أنهنَّ لا يُسبِّبنَ الأذى على الإطلاق.»

اتسمت الحارسة بالبراعة والهدوء وانعدام الشفقة. ولم تكن أمام الأم أي فرصة للنجاة. فخلال لحظات، قُيِّدَت وحُملت واقتيدت. تردَّد صدى عويلها في جنبات البلدة الصامتة، وانتهى فجأة عندما أُغلِقت أبواب «البرج» الخشبية الضخمة بإحكامٍ تاركةً إيَّاها حبيسةً بالداخل.

من ناحية أخرى، بمجرد أن انتقلت الرضيعة لذراع كبير الحكماء انتحبت قليلًا ثم ركزت انتباهها على الوجه المترهِّل أمامها، وكل التجاعيد والخطوط والطيَّات. كانت تتمتَّع بمظهر مهيب مقارنةً بكونها طفلة؛ إذ بدت هادئةً وساخرة وحادة الانفعالات، وهو ما جعل من الصعب على جيرلاند أن يشيح بناظرَيه عنها. للفتاة شعر أسود مجعَّد وعينان سوداوان. وبشرتها وضَّاءة مثل الكهرمان المصقول. وفي منتصف جبهتها، لديها شامة على شكل هلال. لدى الأم الشامة نفسها. كانت التقاليد الشائعة تؤكد أن مثل هؤلاء الأشخاص مميزون. يمقت جيرلاند اعتبار التقاليد قواعدَ عامة، ويكرهها بالتأكيد عندما يستخدمها العامة في «المحمية» كي يتصوروا أنهم أفضل مما هم عليه بالفعل. ازداد عبوسُه ومال على الرضيعة، عاقدًا حاجبَيه. فأخرجت الرضيعة لسانها.

قال جيرلاند في نفسه: «يا لها من طفلة مريعة.»

قال جيرلاند محاولًا التظاهر بالرسمية بقدْر ما استطاع: «أيها السادة، حان الوقت الآن.» وعندئذٍ اختارت الرضيعة هذه اللحظة تحديدًا كي تُبلِّل رداءه من الأمام ببقعةٍ دافئة وكبيرة. تظاهر جيرلاند بأنه لم يلحظ ذلك، لكنه كان يغلي من الداخل.

لقد تَعَمَّدَتْ فعل ذلك. كان متأكدًا من ذلك. يا لها من رضيعة ذات روح ثورية.

كان الموكب مهيبًا وبطيئًا وثقيلًا بطريقة لا تُحتمل. شعر جيرلاند بأنه قد يُجَن من نفاد الصبر. ولكن، ما إن أُغلِقت أبواب «المحمية» خلفهم وعاد المواطنون إلى منازلهم الرتيبة برفقة صغارهم الذين تسيطر عليهم الكآبة، حتى أخذ الحكماء يحثون الخُطى.

سأل أنتين: «لكن لماذا نركض يا خالي؟»

أسكته جيرلاند: «اصمت يا فتى! وواصل السير!»

لا أحد يحب أن يبقى في الغابة، بعيدًا عن «الطريق». ولا حتى الحكماء أنفسهم. ولا حتى جيرلاند. كانت المنطقة خارج جدران «المحمية» آمنة بما يكفي. هذا من الناحية النظرية. لكن الجميع كانوا يعرفون شخصًا ما تجول بعيدًا بالصدفة. وسقط في أحد الأغوار. أو خطا بقدمه داخل أحد الأحواض الطينية الحارة فاحترق معظم جلده. أو تجول في إحدى القنوات المنخفضة حيث كان الهواء خانقًا فلم يعُد قط. كانت الغابة خطيرة.

تبع الحكماء اتجاه حركة الرياح إلى أن وصلوا إلى غورٍ مُحاط بخمس أشجار عتيقة، تُعرف باسم «خادمات الساحرة». أو كانت تُوجد ست أشجار. «ألم يكن يوجَد خمس؟» حدق جيرلاند في الأشجار، وعَدَّها مرةً أخرى وهز رأسه. توجد ست أشجار. لا يهم. يبدو أن الغابة كانت تؤثر على حواسِّه لا أكثر. فتلك الأشجار، في نهاية المطاف، قديمة قِدم العالم نفسه.

كانت المساحة الموجودة داخل حلقة الأشجار ناعمة ومغطاة بالطحالب، ووضع الحكماء الطفلة فيها، وحرصوا على ألا ينظروا إليها. وكانوا قد أداروا ظهورهم للطفلة وهموا في الرحيل بسرعة عندما تنحنح أصغر عضو بينهم.

تساءل أنتين: «هكذا الأمر إذن. كل ما علينا هو ترك الطفلة هُنا؟ أهكذا تجري الأمور؟»

قال جيرلاند: «نعم يا ابن الأخت. هكذا تجري الأمور». شعر جيرلاند بموجة من التعب تثقل كاهله كنير الثور. وشعر بأن عموده الفقري بدأ ينحني.

قرَص أنتين رقبته، وهي عادةٌ عصبية لا يمكنه الإقلاع عنها. «ألا يجب علينا الانتظار حتى تصل الساحرة؟»

خيم صمت غير مريح على الحكماء الآخرين.

سأله الحكيم راسبين وهو أكثر الحكماء ضعفًا وهرمًا: «ماذا قلت؟»

لانَ صوت أنتين، وهو يقول: «حسنًا، بالتأكيد ...» وقال بهدوء: «بالتأكيد لا بد أن ننتظر الساحرة.» «ماذا سيكون مصيرنا إذا جاءت الحيوانات المفترسة أولًا وحملت الطفلة وذهبت بها؟»

زمَّ الحكماء شفاههم وحدقوا في كبير الحكماء.

قال جيرلاند بسرعة وهو يدفع الفتى للأمام: «لحُسن الحظ يا ابن أختي، هذا لم يمثل مشكلةً قط.»

قال أنتين وهو يقرص رقبته بقوة لدرجة أنها تركت علامة هذه المرة: «ولكن ...».

قال جيرلاند وهو يضع قبضته القوية على ظَهر الفتى ويدفعه وهو يحث خُطاه في المسار المطروق: «لا يُوجَد ولكن».

انطلق الحكماء، واحدًا تلو الآخر، تاركين الطفلة خلفهم.

رحلوا وهم يعلمون جميعًا — باستثناء أنتين — أن احتمال أن تفترس الحيوانات الطفلة ليس مشكلةً على الإطلاق؛ بل إن من المؤكد أن الحيوانات ستفترسها.

تركوا الطفلة وهم يعلمون جيدًا أنه بالتأكيد «لا توجَد» ساحرة، ولم تكن هناك ساحرة قط. لا يُوجَد سوى غابة خطرة وطريق واحد وسلطان على حياة الأشخاص يتمتع به الحكماء لأجيال متعاقبة. وجود الساحرة — أو بعبارة أخرى، الإيمان بوجود الساحرة — نتج عنه أشخاص خائفون وخاضعون ومُمتثلون للقواعد، يعيشون حياة ضبابية حزينة، فغيوم الأسى هذه من شأنها أن تُغشِّي أبصارهم وتكبح تفكيرهم. كان هذا ملائمًا تمامًا لحكم الحكماء غير المثقل بأي التزامات. كان كريهًا أيضًا، لكن ما باليد حيلة.

سمعوا صوت نحيب الطفلة بينما كانوا يسيرون مُتثاقلين بين الأشجار، لكن سرعان ما حلَّ محل النحيب تأوُّهات تصدح من مستنقع الغابة وتغريد طائر وصرير أخشاب الأشجار في أنحاء الغابة. وكان الحكماء جميعهم على يقين من أن الطفلة لن تعيش حتى الصباح، وأنهم لن يسمعوا صوتها ولن يرَوها، ولن يتكبَّدوا عناء التفكير فيها مجددًا.

ظنوا أنها رحلت للأبد.

لكنهم بالطبع كانوا مخطئين.

الفصل الثالث

الساحرة تسحر الطفلة من غير قصد

في منتصف الغابة، يُوجَد مستنقع صغير مليء بالفقاعات الهوائية والكبريت، وهو سام، يعمل على تغذيته وتسخينه بركان تحت الأرض خامد طوال الوقت ومُغطًى بالوحل اللزج الذي يتراوح لونه من الأخضر بلون السم إلى الأزرق بلون البرق إلى الأحمر بلون الدم، حسب الوقت من السنة. في هذا اليوم — القريب جدًّا من «يوم التضحية» في «المحمية» أو «يوم أطفال النجوم» في أي مكان آخر — بدأ لون المستنقع يميل من اللون الأخضر إلى الأزرق.

على حافة المستنقع، تقف على طرف البوص المزهر المترعرع في الوحل امرأةٌ عجوزٌ جدًّا تتكئ على عصا كثيرة العُقَد. كانت قصيرة وبدينة ومنتفخة قليلًا عند بطنها. شعرها الرمادي المجعد مسحوب للخلف في صورة عقدة كثيفة مضفَّرة، وفي الفواصل الرقيقة بين الضفائر الملتوية تبرز أوراق شجر وأزهار وكأنها تنمو من رأسها. وعلى الرغم من سحابة الانزعاج البادية على وجهها، فإنه لا يزال يحتفظ ببريق في عينيها اللتين بدا عليهما أثر الكِبر وابتسامة خفيفة على فمها الواسع الطلق المحيَّا. حتى إنها تبدو من بعض الزوايا المحددة كعلجوم ضخم لطيف.

اسمها زان. وهي ساحرة.

زمجرت عند المستنقع: «هل تظنُّ أنه يمكنك الاختباء مني أيها الوحش السخيف؟ أتحسب أنني لا أعرف أين أنت. اخرج إلى السطح «في الحال» واعتذر.» جمدت ملامحها فيما يُشبه التجهُّم. «وإلا فسأجبرك على أن تخرج.» على الرغم من أنها لم يكن لها أي سلطان فعلي على الوحش نفسه — كان مسنًّا للغاية — فإنها تتمتع بالقدرة على جعل المستنقع يلفظه لأعلى وكأنه مجرد كرة من البلغم في مؤخرة الحلق. يمكنها أن تفعل هذا بمجرد نقرة بإصبعَي يدِها اليسرى واهتزازة من ركبتها اليمنى.

حاولت التجهُّم مرة أخرى.

وصاحت: «أنا جادة فيما أقول».

أصدر الماء الكثيف فقاعات هوائية ودار في دوامة وصدر صوت مسموع لبروز رأس وحش المستنقع الضخمة من الماء الأخضر المزرق. رمش بإحدى عينيه الواسعتَين، ثم رمش بالأخرى، قبل أن يرفع عينَيه نحو السماء.

هدرت الساحرة في غضب: «لا تتصنع الانزعاج أيها السيد الصغير.»

غمغم الوحش بينما لا يزال نصفُ فمه مغمورًا بماء المستنقع الكثيف: «أيتها الساحرة. أنا أكبركِ بقرون.» كانت شفتاه لا تزالان أسفل فقاعة في بقعة من الطحالب. فكَّر قائلًا في نفسه: «آلاف السنوات حقًّا، لكن من الذي يهتم بأن يحسب ذلك؟»

«لا أظن أن نبرتكَ تُعجبني.» زمَّت زان شفتَيها المتجعِّدتين فصارتا كوردةٍ صغيرة في وجهها.

تنحنح الوحش. «حسب القول الشهير للشاعر، يا سيدتي العزيزة: «لا أكترث ...»»

صرخت الساحرة بنبرة مرعبة: «جليرك! انتبه لطريقة كلامك!»

قال جليرك بلطف: «أقدم اعتذاراتي»، على الرغم من أنه لم يكن يقصد الاعتذار حقًّا. أرخى جليرك أذرعه الأربع فوق الوحل الموجود على الشاطئ وضغط على الطين اللامع بكل يدٍ من أياديه المكونة من سبعة أصابع. انطرح على العشب مصدرًا صوت نخير. قال في نفسه: «عادة ما كنت أفعل هذا بسهولة أكبر.» على الرغم من أنه طوال حياته لم يستطع أن يتذكر متى.

قالت زان بغضب: «فيريان موجود هناك عند الفوهة ومنهمر في البكاء، يا له من مسكين!» تنهد جليرك بقوة. ألقت زان عصاها على الأرض، فأصدرت العصا رذاذًا من الشرر من طرفها العلوي، الأمر الذي أدهش كليهما. حدقت في وحش المستنقع. «وما تقوله ينطوي على فظاظة». هزت رأسها. «فهو في النهاية ليس إلا طفل.»

قالها جليرك، وهو يشعر بصوت يدوِّي عميقًا في صدره، تمنَّى أن يبدو هذا الدوي لأمرٍ جللٍ أو درامي أكثر من كونه دلالةً على الإصابة بالزكام: «عزيزتي زان. هو أيضًا أكبر منكِ. وقد آن الأوان كي ...»

«حسنًا، أنت تعلم ماذا أعني. وعلى أي حال لقد وعدت أمه.»

«لمدة خمسمائة عام، قد تزيد أو تنقص عن ذلك بعقد أو اثنين، استمر هذا التنين الصغير في هذه الأوهام؛ تطعمينه وتحافظين عليه دائمًا يا عزيزتي. كيف سيساعده ذلك؟

كل ما في الأمر أنه ليس «التنينة الهائلة». وحتى هذه اللحظة، لا تُوجَد أي أمارة على أنه سيكون كذلك. ليس عيبًا أن يكون «تنينًا صغيرًا». الحجم ليس كل شيء، كما تعرفين. أنتِ تعرفين أنه من نوع قديم ومُبجل، وهو يتَّسِم بصفات فريدة من نوعها. لديه الكثير مما يمكنه أن يفخر به.»

بدأت زان تقول: «لقد كانت أمُّه شديدة الوضوح ...» لكن الوحش قاطعَها.

«على أي حال، لقد فات أوان أن يعرف إرثه ومكانته في العالم. لقد سايرتُكِ في هذه المسرحية أطول مما ينبغي. لكن الآن ...» ضغط جليرك بأذرعه الأربع على الأرض وأرخى نصفه السفلي الضخم الموجود أسفل انثناء عمودِه الفقري، جاعلًا ذيلَه الثقيل يلتفُّ حول جسده بالكامل مثل صدَفة حلزون ضخمة متلألئة. وترك كرشه يتدلى فوق أقدامه المثنية. «لا أعرف يا عزيزتي. شيء ما تغيَّر.» مرت سحابة كآبة فوق وجهه الرطب، لكن زان هزت رأسها.

قالت باستهزاء: «ها هو الزمان يعيد نفسه مرة أخرى.»

«كما يقول الشاعر: «أيتها الأرض دائمة التغير ...»»

«تبًّا للشاعر. هيا اعتذر. افعل ذلك في الحال. فهو يوقرك» نظرت زان إلى السماء. «لا بد أن أنصرف الآن يا عزيزي، أنا متأخرة بالفعل. أرجوك. أنا أعتمد عليك.»

مال برأسه تجاه الساحرة التي وضعت يدها على خده الكبير. على الرغم من أنه يستطيع السير منتصب القامة، فإنه يفضل أن يسير على ستة أطراف، أو على أطرافه السبعة كلها، وذلك عندما يستخدم ذيله باعتباره أحد الأطراف، أو على أطرافه الخمسة كلها، عندما يستخدم إحدى أياديه لقطف زهرة عطرة وتقريبها من أنفه، أو لجمع الصخور أو ليعزف لحنًا مؤثرًا على ناي منحوت باليد. ضغط برأسه الضخم على جبهة زان الدقيقة.

قال بصوت غليظ: «أرجوكِ انتبهي لنفسكِ. مؤخرًا هاجمَتني أحلام مزعجة. أنا أقلق عليكِ عندما تذهبين.» رفعت زان حاجبيها، وانحنى جليرك بوجهه بعيدًا وهو يُغمغم بصوت منخفض. «حسنًا، سأستمر في هذه المسرحية من أجل صديقنا فيريان. يقول الشاعر: «الطريق إلى الحقيقة لا وجود له إلا في قلب حالم».»

قالت زان: «هذه هي الروح المطلوبة». طقطقت بلسانها وأرسلت للوحش قبلة. وثبت لأعلى وتقدمت إلى نقطة ارتكاز العصا وانطلقت بعيدًا بين النباتات الخضراء.

على الرغم من اعتقادات سكان «المحمية» بأن الغابة ملعونة، فإنها ليست كذلك على الإطلاق، كما أنها غير مسحورة بأي شكل من الأشكال. لكنها فقط خطرة. البركان

الموجود في أعماق الغابة، كونه منخفض الانحدار وعريضًا للغاية، شيء مُربك. فهو يُصدر صوت قرقرة عندما يكون خامدًا بينما يعمل على تسخين الينابيع الحارة إلى أن تنفجر وتعمل على تآكل الشقوق دون هوادة حتى تصبح عميقة لدرجة أن لا أحد يستطيع أن يصل للقاع. وهو يجعل الينابيع تغلي ويُسخِّن الطين ويجعل شلالات الماء التي تختفي في الحُفر العميقة تظهر من جديد على بُعد أميال. ثمة فوهات تلفظ روائح كريهة، وفوهات تلفظ الرماد وفوهات أخرى لا تُطلق شيئًا على الإطلاق، حتى إن شفة المرء وأظافره تستحيلان للون الأزرق من جراء الهواء الملوث، ويشعر بأن كل ما حوله يدور.

ومن ثَم، فإن الممر الآمن الوحيد لعبور الشخص العادي للغابة هو «الطريق»، وهو يقع على طبقة من الصخور التي أصبحت ممهدةً وملساء مع مرور الزمن. لم يتغير الطريق قط ولم يصدُر عنه أي دوي. لسوء الحظ، كانت عصابة من المجرمين والمتنمِّرين من «المحمية» تدير هذا الطريق وتتحكم فيه. لم تسلك زان «الطريق» قط. لا يمكنها التساهل مع المجرمين. ولا يمكنها التساهل مع المتنمِّرين. وعلى أي حال، يأخذون إتاوات باهظة. أو هذا ما فعلوه، آخر مرة تحقَّقَت من الأمر. كانت قد مرت سنوات على آخر مرة اقتربَتْ فيها منه؛ ربما منذ قرون. لكنَّها سلكت طريقَها الخاص بها بدلًا من ذلك، مُستخدمة مزيجًا من السحر والبراعة وحُسن التمييز.

لم تكن رحلاتها عبر الغابة سهلةً على الإطلاق. لكن كانت ضرورية. كان طفل ينتظرها. خارج حدود «المحمية» مباشرةً. طفل حياته مُتوقِّفة على وصولها، ولا بد أن تصل هناك في الوقت المناسب.

بقدر ما تتذكر زان، في مثل هذا الوقت تقريبًا كل عام، تترك أمٌّ من «المحمية» طفلَها في الغابة، على الأرجح كي يموت. لم تكن زان تعرف سببًا لذلك. ولا يمكنها أن تحكم على ذلك الفعل. لكنها لم تكن لتترُك الأطفال المساكين يهلكون. لذا، فإنها كلَّ عامٍ تسافر إلى تلك الدائرة من أشجار الجميز وتأخذ الطفل المنبوذ بين ذراعَيها وتحمِلُه إلى الجهة الأخرى من الغابة، إلى إحدى «المدن المستقلة» الكائنة على الجانب الآخر من «الطريق». هذه المدن أماكن سعيدة. وأهلها يُحبون الأطفال.

عند مُنعطف الطريق، كانت أسوار «المحمية» على مرمى البصر. أبطأت زان من خطواتها فأصبحت أكثر تثاقلًا. «المحمية» نفسها عبارة عن مكانٍ كريه؛ فالهواء رديء والماء رديء والحزن يُخيم على أسطح المنازل كغيمة. شعرت بنِيرٍ من الحزن يجثُم فوق عظامها.

ذَكَّرَت نفسها كما تفعل كل عام: «خُذي الرضيع واذهبي في الحال.»

بمرور الزمن، كانت زان قد بدأت تتَّخِذ تحضيرات مُعينة؛ تتضمن هذه التحضيرات بطانية منسوجة من أنعم صوف شاه كي تلفَّ بها الطفل وتُبقيه دافئًا، ومجموعة من الأقمشة لتنظيف مؤخرة الطفل المبللة، وزجاجة أو زجاجتين من حليب الماعز لإشباع بطنه الفارغ. وعندما ينفد حليب الماعز (كما يحدث دائمًا، فالرحلة طويلة والحليب ثقيل في حمله)، كانت زان تفعل ما كانت أي ساحرة عاقلة ستفعله؛ ما إن يسود الظلام بما يكفي لرؤية النجوم، ترفع يدَها إلى النجوم وتجمع ضوء النجوم في أصابعها، مثل خيوط شبكة عنكبوت حريرية الملمس، وتطعمها للطفل. فجميع الساحرات يعرفن أن ضوء النجوم طعام مدهش للصغار في طور النمو. يتطلَّب جمع ضوء النجوم موهبةً ومهارةً مُعينتَين (بدايةً، السحر)، لكن الأطفال يأكلونه باستمتاع. ويسمنون ويشبعون و«يتألقون».

لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى اتخذت المدن المستقلة يوم وصول الساحرة كل عام عطلةً رسمية. كان الأطفال الذين تجلبهم، وتتلألأ بشرتهم بضوء النجوم، يُعتبرون نعمة مباركة. كانت زان تتأنى في اختيار الأسرة المناسبة لكل طفل، كي تتأكد من أن سمات الأسرة وميولها وحسَّ الدعابة لديها يتناسَب مع الروح الصغيرة التي اعتنت بها على مدى رحلة طويلة. وهكذا، يتطور «أطفال النجوم»، كما يُطلق عليهم، من أطفال سعداء إلى مراهقين طيبين ثم بالغين كرماء الخُلق. كانوا مُتفوقين وسُمَحَاء وناجحين. وبعدما يتقدم بهم العمر ويموتون من الشيخوخة، يموتون أثرياء.

عندما وَصَلَتْ إلى بستان الأشجار، لم يكن يُوجَد رضيع بعد، لكن الوقت كان لا يزال مبكرًا. وكانت مرهقة. فمضت إلى إحدى الأشجار المتغضنة وجلست وأسندت ظهرها إليها، واستنشقت الرائحة الطينية للحائها عبر طرف أنفها.

قالت جهرًا: «القليل من النوم سيجعلُني أفضل حالًا.» وقد كان ذلك صحيحًا، أيضًا. فقد قطعت رحلة طويلة ومرهِقة، وستقطع بعدها رحلة أطول. وستكون أكثر إرهاقًا. الأفضل أن تصنع حفرة وترتاح قليلًا. وهكذا، كما كانت تفعل عادةً عندما كانت ترغب في الحصول على قسط من الهدوء والراحة بعيدًا عن البيت، حولت الساحرة زان نفسها إلى شجرة، شجرة متغضنة ذات أوراق وأشنات وجذع يحتوي على تجاعيد وأخاديد عميقة، تشبه في شكلها وملمسها أشجار الجميز العتيقة الأخرى التي تحيط بالأخدود الصغير. ونامت في هيئة شجرة.

لم تسمع الموكب.

ولم تنتبِه لاحتجاجات أنتين أو صمت المجلس النابع من الإحراج أو المواعظ التي ألقاها جيرلاند كبير الحكماء.

لم تسمع حتى هديل الطفلة. أو نشيجها. أو بكائها.

لكن عندما فتحت الطفلة حلقها وبدأت في عويل تام، أفاقت زان مذعورة.

«بحق النجوم الغالية!» بدا وكأن لحاءها وأغصانها وأوراقها هي التي تتحدث، إذا لم تكن قد أبطلت تحولها بعد. «لم أراكِ توضعين هنا!»

بدا أن الطفلة لم تتأثر بالصوت. فظلت تركل بقدمَيها ويدَيها وتعوي وتنتحب. كان وجهها محتقنًا وقد ضمت أصابع يديها الصغيرتَين وكوَّرت قبضتَيها الصغيرتَين. وصارت الشامة في جبهتها داكنة بشكلٍ خطير.

«فقط أمهليني ثانية يا حبيبتي. عمتكِ زان ستأتي بأقصى سرعة ممكنة.»

وقد فعلت. كان التحوُّل أمرًا صعبًا حتى على شخص في مهارة زان. بدأت الأغصان تلتف وتتجمع الواحد تلو الآخر متشكلة في هيئة عمودها الفقري. وبدأت تجاعيد الجذع تختفي الواحدة تلو الأخرى لتحل محلها تجاعيد وجهها.

اتكأت زان على عصاها وأرجعت كتفَيها وذراعَيها للخلف بضع مرات لتخفيف التشنجات في رقبتها؛ في أحد الجانبين يليه الجانب الآخر. نظرت لأسفل إلى الطفلة، التي كانت قد هدأت بعض الشيء، وكانت في هذه اللحظة ترمق الساحرة بنفس الطريقة التي نظرت بها لكبير الحكماء؛ بنظرة هادئة مُتحققة مشوشة. هذا النوع من النظرات ينفذ إلى أوتار الروح وينقر عليها كما ينقر العازف على أوتار قيثارته. كادت تلك النظرات أن تخطف أنفاس الساحرة.

قالت زان وهي تحاول تجاهل أصوات طقطقة عظامها المتناغمة: «زجاجة. أنتِ بحاجة إلى زجاجة.» فتشت جيوبها الكثيرة بحثًا عن زجاجة من لبن الماعز، جاهزة في انتظار البطن الجائع.

بنقرة من كاحلها، جعلت زان فطر عيش الغراب يتضخم بما يكفي كي تجعل منه مقعدًا تجلس عليه. جعلت الساحرة جسد الطفلة الدافئ يستقر فوق الانتفاخ الموجود في منتصف جسمها وانتظرت. خفت لون الهلال على جبهة الطفلة واستحال إلى درجةٍ مُحببة من اللون الوردي، وأبرزت خصلات شعرها المجعدة الداكنة عينَيها الداكنتَين. كان وجهها يتلألأ كالجوهرة. بدت هادئة وسعيدة بالحليب، لكن نظرتها كانت لا تزال مصوَّبةً نحو زان ومُثبتة عليها كما تُثبت جذور الشجرة في التربة. همهمت زان.

قالت زان: «حسنًا. لا فائدة من النظر إليَّ بهذه الطريقة. لا يمكنني إعادتكِ إلى حيثما كنتِ. لقد انقضى هذا كله في الوقت الحالي، لذا من الأفضل أن تنسَيه أنتِ أيضًا، حسنًا اهدئي الآن»، إذ بدأت الطفلة تنتحب. «لا تبكي، ستُحبين المكان الذي سنذهب إليه. وذلك بعدما أقرر أي مدينة سآخُذكِ إليها. جميع المدن رائعة للغاية. ستُحبين عائلتكِ الجديدة أيضًا. سأتكفل بهذا».

لكن مجرد قول هذا آلمَ قلبَ زان العجوز. وفي الحال أصابها حزن غير مُبرر. تركت الطفلة الزجاجة ونظرت إلى زان نظرة تنمُّ عن الفضول. هزت زان كتفيها.

قالت: «حسنًا، لا تسأليني. لا أعرف لماذا تركوكِ وحدكِ وسط الغابة. لا أعرف سببًا لنصف تصرفات الناس، وأستهجن وأستغرب النصف الآخر. لكن المؤكد أنني لن أتركِكِ هنا على الأرض لتكوني طعامًا لأحد حيوانات ابن عرس القصير الذيل. ينتظركِ الكثير من الأشياء الجيدة، أيتها الطفلة الغالية».

علقت كلمة «غالية» فجأة في حلق زان بغرابة. لم تتمكن من فَهم السبب. حاولت طرد جسيمات الأتربة من رئتيها المسنَّتَين وابتسمت للطفلة. مالت على وجه الطفلة وطبعت قبلة بشفتيها على جبهتها. كانت تقبِّل الأطفال دائمًا. على الأقل كانت متأكدة جدًّا من أنها كانت تفعل. بدت رائحة رأس الطفلة كعجينة الخبز واللبن المخفوق. أغمضت زان عينيها للحظة فقط، وهزت رأسها. وقالت بصوت أجش: «تعالي الآن، نذهب لرؤية العالم، ما رأيكِ؟»

وبعد أن لفَّتها بالوشاح بعناية وربطتها جيدًا، انطلقت زان في الغابة، وهي تصفر أثناء سيرها.

كانت ستذهب مباشرة إلى «المدن المستقلة». كانت بالفعل تنوي ذلك.

لكن كان يُوجَد شلال ستُحبه الطفلة. كما كان يُوجَد بروز صخري له مظهر جميل للغاية. ولاحظت أنها ترغب في أن تروي للطفلة حكايات. وأن تُغني لها أغنيات. وبينما كانت تحكي وتغني، كانت زان تبطئ أكثر فأكثر في سيرها. وكانت تعزو ذلك إلى الشيخوخة والتشنُّجات التي تُعاني منها في ظهرها وغضب الطفلة وتهيُّجها، لكن كل هذا لم يكن صحيحًا.

وجدت زان نفسها تتوقف كثيرًا لتحظى بفرصةٍ أخرى لفك الطفلة من وشاحها والنظر إلى عينَيها السوداوين العميقتَين.

كل يوم، كانت زان تهيم إلى أماكن أبعد. وتسير في حلقاتٍ وتعود أدراجها مرة أخرى، وتنتقل جيئةً وذهابًا. كان الطريق الذي سلكته عبر الغابة ملتويًا ومتعرجًا، على الرغم

من أنه كان من الطبيعي أن يكون مستقيمًا كالطريق الذي تسيطر عليه «المحمية» ذاته. في الليل، ما إن نفد حليب الماعز، حتى جمعت زان خيوطًا رقيقة من ضوء النجوم على أصابعها، فأكلت الصغيرة بامتنان. ومع كل لقمة من ضوء النجوم، كان سواد حدقتَي الطفلة يزداد. كان العالم بأكمله يضطرم في هاتَين العينين، مجرات فوق مجرات.

بعد مرور الليلة العاشرة، كانت زان قد قطعت أقل من ربع الرحلة التي كانت عادةً لا تستغرق سوى ثلاثة أيام ونصف. بدأ القمر الآخِذ في الاكتمال يبزُغ أبكر كل ليلة، لكن زان لم تُعره كثيرَ انتباه. مدت يدها وجمعت ضوء النجوم ولم تلتفت للقمر.

ثمة قوة سحرية في ضوء النجوم بالتأكيد. هذا أمر معروف. لكن نظرًا لأن الضوء يقطع مسافة طويلة إلى أن يصل، فإن السحر يكون ضعيفًا ومتفرقًا ويمتد على طول الخيوط الرقيقة للغاية. القوة السحرية في ضوء النجوم تكفي لإسعاد الطفل وملء بطنه، وعندما يحصل الطفل على كمياتٍ كبيرة بما يكفي من ضوء النجوم، يمكن لضوء النجوم أن يوقظ أفضل ما في قلب الطفل وروحه وعقله. إنه كافٍ ليُبارك الطفل لا أن يمنحه قدرات سحرية.

أما ضوء القمر، فهو مختلف. إنه قصة أخرى.

ضوء القمر به قوًى سحرية. سَل من تشاء عن ذلك.

لم تستطع زان أن ترفع عينَيها عن عينَي الطفلة. فيها شموس ونجوم ونيازك. وغبار السُّدم. انفجارات عظيمة وثقوب سوداء وفضاء يمتد إلى ما لا نهاية. بزغ القمر، كبيرًا ومكتملًا ولامعًا.

مدت زان يدَها للحصول على ضوء النجوم. لكنها لم تنظر إلى السماء. ولم تلحظ القمر.

(هل لاحَظَتْ ثقل الضوء الذي سقط على أصابعها؟ هل لاحظت كم هو لزج؟ كم هو حلو؟)

لوَّحت بأصابعها فوق رأسها ثم سحبت يدَيها لأسفل عندما لم تتمكن من إبقائهما مرفوعتين أكثر من ذلك.

(هل لاحَظَتْ مدى قوة السحر الذي ينزلق من رسغِها. قالت لنفسها إنها لم تلاحظ. كررت هذا مرارًا وتكرارًا إلى أن صدقت أن هذا صحيح.)

وأكلت الطفلةُ. وأكلت المزيد. والمزيد. وفجأة انتفضت وتلوَّت في ذراعَي زان. وصرخت فجأة. صرخت بأعلى صوتها. ثم أطلقت تنهيدة رضا. وغلبها النعاس في الحال، ملتصقةً ببطن الساحرة المترهِّل الطري.

رفعت زان ناظرَيها إلى السماء، فشعرت بضوء القمر ينساب على وجهها. همست: «ويحي.» صار القمر بدرًا دون أن تلحظ ذلك. وبه قوًى سحرية شديدة. رشفة واحدة سيكون لها مفعول السحر، والطفلة كانت قد رشفت ... حسنًا. أكثر من رشفة واحدة.

يا للطفلة الصغيرة الطماعة.

على أي حال، كانت الحقيقة واضحة كهذا القمر الساطع المتربع فوق الأشجار. لقد أصبحت الطفلة «مسحورة». لا شك في ذلك. وأصبحت الأمور أكثر تعقيدًا من ذي قبل.

جلست زان متربعةً على الأرض ووضعت الطفلة النائمة على ركبتها المثنية. لن يوقظها شيء. ليس قبل ساعات. مرَّرت زان أصابعها بين خصلات شعرها المتموِّجة السوداء. حتى في اللحظة الحالية، يمكنها أن تشعر بالقوة السحرية تنبض تحت جلدها، كل خيط يندسُّ بين الخلايا عبر الأنسجة، فيملأ عظامها. في الوقت المناسب، ستُصبح غير مستقرة، ليس للأبد بالطبع. لكن زان تتذكَّر جيدًا مِن السَّحرة الذين تعهَّدوها بالتنشئة منذ زمنٍ بعيد أن تربية طفلٍ يتمتع بقوًى سحرية ليست بالأمر الهيِّن. سارع مُعلموها بقول هذا مرارًا وتكرارًا. كما أن مربيها زوسيموس لم يَكفَّ عن ذكر هذا. قال لها مرارًا وتكرارًا: «إدخال قوة سحرية إلى جسد الطفل أشبه بوضع سيفٍ في يد طفلٍ صغير يتعلَّم المشي؛ كثير من القوة والقليل من التفكير والتدبُّر. ألا ترَين أنكِ جعلتِني أتقدم في العُمر يا فتاة؟»

وكان قوله صادقًا. فالأطفال الذين يملكون قدراتٍ سحريةً خطرون. لذا بالتأكيد لا يمكنها ترك الطفلة مع أي شخص.

قالت زان: «حسنًا يا حبيبتي. ألستِ مثيرةً للمتاعب بدرجةٍ مزعجة؟»

تنفَّست الطفلة بعُمق من أنفها وارتسمت ابتسامة مرتعشة على ثغرها الذي يُشبه بُرعم الوردة. شعرت زان بقلبها يثِب بين أضلُعها واحتضنت الطفلة بشدة.

قالت: «لونا، سيكون اسمكِ لونا. سأكون جدتكِ. وسنكون عائلة.»

وبمجرد قولها هذا، شعرت زان أن هذا الكلام حقيقي. تردَّد صدى الكلمات، أقوى من أي سحر.

وقفت زان، ووضعت الطفلة في الحمَّالة وبدأت رحلتها الطويلة إلى البيت، وهي تتساءل كيف يمكنها أن تشرح الأمر لجليرك.

الفصل الرابع

كان مجرد حلمٍ

«أنتِ تطرحين الكثير من الأسئلة.

لا أحد يعلم ماذا تفعل الساحرة بالأطفال الذين تأخذهم. لا أحد يسأل عن هذا. لا يمكننا أن نسأل، ألا تدركين ذلك؟ الأمر مؤلم جدًّا.

حسنًا، هي تأكلهم، هل أنت سعيدة الآن؟

لا. لا أظن ذلك.

أخبرتني أمي أنها تلتهِم أرواحهم، وأن أجسادهم منزوعة الأرواح تهيم في الأرض منذ ذلك الوقت. عاجزون عن الحياة. عاجزون عن الموت. أعينهم خالية من النظرات ووجوههم خالية من التعبيرات ويسيرون على غير هدًى. لا أظن أن هذا صحيح. إن كان الأمر كذلك، كنا سنراهم، أليس كذلك؟ كنا على الأقل سنرى أحدهم يهيم على وجهه. بعد كل هذه السنوات.

أخبرتني جدتي أنها تُبقي عليهم عبيدًا. وأنهم يعيشون في سراديب أسفل قلعتها العظيمة في الغابة ويُشَغِّلون آلات القطع الخاصة بها ويقلبون مراجلها وينفذون تعليماتها من الصباح حتى المساء. لكن لا أظن أن هذا صحيح أيضًا. فلو كان صحيحًا، لاستطاع أحدهم على الأقل أن يهرب. بعد كل هذه السنوات، من المؤكد أن أحدهم سيجد مهربًا ويعود إلى بيته. لذا، لا أظن أنهم استُعبدوا.

حقًّا ليست لديَّ أي فكرة. لا يُوجَد ما أفكر فيه بشأن الأمر.

أحيانًا يُراودني حلم. بشأن أخيكِ. لا بد أنه أكمل عامه الثامن عشر الآن. لا. التاسع عشر. أحلم بأن لديه شعرًا أسود وبشرة مُضيئة ونجومًا في عينيه. أحلم بأنه عندما يبتسم

تَتَلألأ ابتسامته لأميال من حوله. ليلة أمس حلمتُ أنه يقف بجوار شجرة وينتظر فتاة كي يسير برفقتها. ونطق اسمها، وأمسك بيدِها وخفق قلبه بشدة حين قبَّلها.

ماذا؟ لا، أنا لا أبكي. لِمَ أبكى؟ يا لكِ من سخيفة!

على أي حال. لقد كان مجرد حلم.»

الفصل الخامس

وحش المستنقع يقع في الحب مصادفةً

لم يوافق جليرك على بقاء الطفلة وقال ذلك منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه.

وقاله مجددًا في اليوم التالي.

واليوم الذي يليه.

والذي يليه.

رفضت زان أن تسمع.

أخذ فيريان يُغني: «أطفال، أطفال، أطفال.» كان سعيدًا للغاية. جلس التنين الصغير على فرعٍ يمتدُّ من فوق باب بيت الشجرة الخاص بزان، باسطًا جناحَيه مُتعدِّدَي الألوان بقدر استطاعته، ومُقَوِّسًا رقبته الطويلة نحو السماء. كان صوته مرتفعًا ومُغردًا لكنه غير مُتناغِم بشكلٍ فظيع. غطَّى جليرك أُذنَيه. تابع فيريان: «أطفال، أطفال، أطفال، أطفال! كم أُحب الأطفال!» لم يكن قد التقى بطفلٍ من قبل، على الأقل على ما يذْكُر، لكن هذا لم يجعل التنِّين يتوقَّف عن التعبير عن حُبِّه لهم كثيرًا.

من الصباح للمساء، استغرق فيريان في الغناء واستغرقت زان في تدليل الطفلة، وشعر جليرك أن لا أحد سيستمع لصوت العقل. بنهاية الأسبوع الثاني، كان قد تغيَّرَ شكلُ مسكنهم بالكامل: عُلقت حفَّاظات الطفلة وملابسها وأغطيتها كي تجفَّ على حبال غسيل ثُبتت حديثًا، وزجاجات زجاجية مُشَكَّلة حديثًا تُجفَّف فوق أرففٍ صُنعت مؤخرًا بجوار حوض غسيل جديد تمامًا، وجُلِبَت مِعزاة جديدة (لا يعلم جليرك كيف) وكان لدى زان جالونات حليب مُنفصلة للشرب وصُنع الجبن ومخض الزبدة؛ وفجأة أصبحت الأرضية تعجُّ بالألعاب المبعثرة. وحدث أكثر من مرةٍ أن تعثرت قدم جليرك في خشخيشة

خشبية وصرخ من الألم. وجد نفسه يُطلَب منه أن يخرس وأن يخرج من الغرفة كي لا يوقظ الطفلة أو يُخيفها أو يُصيبها بمللٍ قاتلٍ بشِعره.

بحلول نهاية الأسبوع الثالث، كان صبر جليرك قد نفد.

قال: «زان. لا بد أن أتأكد من أنكِ لم تقعي في حب هذه الطفلة.»

أصدرت المرأة صوتًا كالنخير، لكنها لم تُجب.

تجهَّم جليرك. «حقًّا. أنا أمنع حدوث هذا.»

ضحكت الساحرة بصوتٍ مرتفع، وضحكت معها الطفلة. مثَّلت المرأة والطفلة فريقًا واحدًا مكونًا من فردَين، وهو ما لم يحتمله جليرك.

غنَّى فيريان وهو يطير نحو الداخل من الباب المفتوح: «لونا!» أخذ يرفرف في الغرفة مثل طائر مُغرد لا يستطيع تمييز النغمات. «لونا، لونا، لونا، لونا!»

انفجر جليرك: «كُفَّ عن الغناء.»

قالت زان: «لستَ مُضطرًّا إلى سماعه، يا عزيزي فيريان. الغناء أمر جيد للأطفال. الجميع يعرف ذلك.» ركلت الطفلة وأصدرت هديلًا. استقر فيريان على كتِف زان ودندن بدون إصدار نغمات عالية. وهو إنجاز كبير في حدِّ ذاته، لكن ليس للدرجة.

أصدر جليرك نخيرًا يُعبر عن إحباطه. سألها: «هل تعرفين ماذا قال الشاعر عن الساحرات اللاتي يُربين الأطفال؟»

«لا يُمكنني التفكير فيما سيقوله أي شاعر عن الأطفال أو الساحرات، لكن لا شك لديَّ في أنه سيكون كلامًا وجيهًا وعظيمًا.» تلفَّتت حولها. «جليرك، هل يمكنك أن تناولني تلك الزجاجة؟»

جلست زان متربعةً على الأرضية الخشبية الخشنة والطفلة في حِجرها في تجويف تنورتها.

اقترب جليرك، وانحنى برأسه بالقرب من الطفلة، وارتسمت على وجهه نظرات ريبة. كانت الطفلة تضع قبضتها في فمها، فيسيل لعابها وينتقل عبر أصابعها. لوحت بيدِها الأخرى للوحش. انفلجت شفتاها الورديتان عن ابتسامة واسعة حول أصابعها المبللة باللعاب.

قال جليرك في نفسه: «أظن أنها تفعل ذلك عن قصد»، وحاول أن يمنع ابتسامته من الظهور على فكَّيه الرطبين الواسعين. «هذه الطفلة تتصرف بطريقة ظريفة لأنها تقوم بحيلة مقيتة نكاية بي. يا لها من طفلة لئيمة!»

صرخت لونا ضاحكة وركلت بقدمَيها الصغيرتَين. التقت عيناها بعينَي وحش المستنقع، فالتمعت عيناها مثل النجوم.

قال جليرك في نفسه، آمرًا: «لا تقع في حبِّ هذه الطفلة.» حاول أن يكون صارمًا.

تنحنح جليرك.

قال مؤكدًا، وهو يُضَيِّق عينَيه للطفلة: ««الشاعر» لم يقل شيئًا بشأن الأطفال والساحرات.»

قالت زان: «حسنًا، جيد»، وهي تلمس بأنفها أنف الصغيرة وتجعلها تضحك. وفعلت هذا مرةً أخرى. ثم مرة أخرى. «أظن أنه ليس علينا أن نقلق إذن. «ليس علينا أن نقلق»!» تعالى صوت زان بالجملة الأخيرة وقالتها مُنَغَّمة، ونظر إليها جليرك باستغرابٍ بعينَيه الهائلتَين.

«عزيزتي زان، أنتِ لا تفهمين مقصدي.»

«وأنت تضيع طفولة هذه الطفلة بهذا العبث والغضب، ستمكث الطفلة معنا، وهذا القرار لا رجعةَ فيه. لا يبقى الأطفال صغارًا إلا لمدة قصيرة جدًّا، فهم يكبرون بسرعةٍ تضاهي سرعة رفَّة جناح الطائر الطنَّان. استمتع بها يا جليرك! استمتع بها، أو اخرج.» لم تنظر زان إليه وهي تقول هذه الكلمات، لكن جليرك شعر بوخْزِ الكلمات التي تخرج من الساحرة كالأشواك، وكادت تُحطم قلبه.

قال فيريان: «حسنًا.» كان يجثُم فوق كتف زان، ويشاهد الطفلة تركل وتهدل بسعادة. «أنا أُحبها».

لم يكن يُسمَح له بالاقتراب منها كثيرًا. وقد أوضحت زان أن هذا من أجل سلامتهما كليهما. فالطفلة، التي تتمتع بقوًى سحرية كامنة من أخمص قدمها وحتى رأسها، أشبه ببركانٍ خامد، طاقة داخلية وحرارة وقوة يمكن أن تتراكم مع مرور الوقت، ثم تتفجَّر دون سابق إنذار. أما زان وجليرك، فكلاهما مُحصن ضد تقلبات السحر (زان بسبب مهاراتها وجليرك لأنه كان أقدم من السحر ولم يتعامل مع حماقاته) وليس عليهما القلق بشأنه، أما فيريان، فهو ضعيف. كما أن فيريان عرضة للحازوقة. وحازوقته دائمًا تصاحبها النيران.

«لا تقترب كثيرًا يا عزيزي فيريان. ابقَ خلف العَمة زان.»

اختبأ فيريان خلف ستارٍ من شَعر المرأة العجوز المجعَّد، مُحدقًا في الطفلة بنظراتٍ يختلط فيها الخوف والغيرة والشوق. قال متذمرًا: «أريد أن ألعب معها.»

قالت زان برفقٍ وهي تعدل وضع الطفلة كي تشرب من الزجاجة: «ستلعب معها. أنا فقط أريد أن أتأكد من أنكما لا يُؤذي أحدُكما الآخر.»

شهق فيريان قائلًا: «ما كنتُ لأفعل هذا أبدًا.» ثم تنشَّق. وقال: «أظن أن لديَّ حساسية من الطفلة.»

قال جليرك بتأوُّه: «ليس لديك حساسية من الطفلة»، في نفس اللحظة التي عطس فيها فيريان مُصدِرًا عمودًا من النار على مؤخرة رأس زان. لم يطرف لها جفن حتى. وبغمزة من عينَيها تحولت النار إلى بخار، أَزَال بدوره بُقع اللعاب التي لم تكن قد اهتمت بعد بتنظيفها عن كتفها.

قالت زان: «بوركت يا عزيزي. جليرك، ما رأيك في أن تأخذ فيريان للتمشية.»

قال جليرك: «أكره التمشية»، لكنه أخذ فيريان على أي حال. أو كان جليرك يسير، وفيريان يُرفرف خلفه، من طرفٍ لآخر أو للأمام وللخلف كفراشة ضخمة مزعجة. في البداية، قرَّر فيريان أن يشغل نفسه بجمع الزهور من أجل الطفلة، وهي عملية أعاقتها إصابته بالحازوقة والعطس من حين لآخر، وكل مرة كانت تصدر عنه كُتَل من اللهب، وفي كل مرة تتحول الزهور إلى رماد. لكنه كان لا يكاد يُلاحظ هذا. فبدلًا من أن ينتبِه، كان فيريان يُطلق سيلًا من الأسئلة.

سأل: «هل ستكبر الطفلة، وتصبح عملاقة مثلك ومثل زان؟ لا بد أنه يُوجَد المزيد من العمالقة، أعني في العالم الأوسع. العالم خارج «هنا». كم أتوق لرؤية العالم خارج حدود هذا المكان يا جليرك. أريد أن أرى جميع العمالقة في العالم وجميع المخلوقات التي تفوقني حجمًا!»

استمرت أوهام فيريان دون توقف، على الرغم من احتجاجات جليرك. فعلى الرغم من أن حجم فيريان كان يُضاهي حجم حمامة تقريبًا، ظل معتقدًا أنه أكبر حجمًا من المسكن التقليدي للإنسان العادي، وأنه لا بد أن يبقى بعيدًا عن البشرية، حتى لا يُرى صدفةً فينشُر الهلع حول العالم.

كانت أمُّه الضخمة قد قالت له، قبل أن تُلقي بنفسها في البركان الثائر وتلقى حتفها للأبد: «عندما يحين الوقت المناسب، يا بني، ستعرف هدفك. أنت عملاق على ظهر هذه الأرض، وستبقى كذلك. لا تنسَ هذا أبدًا.»

شعر فيريان أن المعنى الذي كانت تقصده واضح. هو ببساطة تنين هائل. لا يُوجَد شك في ذلك. أخذ فيريان يُذَكِّر نفسَه بذلك كل يوم.

ولمدة خمسمائة عام، ظل جليرك يغضب لأجل ذلك.

قل جليرك مراوغًا: «ستكبر الطفلة كما يكبر الأطفال، أتوقع ذلك.» وعندما ألح فيريان في السؤال، تظاهر جليرك بأنه يأخذ قيلولة في مستنقع الزنابق وأغمض عينيه إلى أن نام بالفعل.

تربية طفل، سواء كان مسحورًا أم لا، لا تخلو من المتاعب؛ فهي لا تخلو من بكاءٍ لا يهدأ، وسيلان الأنف الذي لا يتوقف تقريبًا، والولع بوضع جميع الأجسام الصغيرة في الفم الذي يسيل منه اللعاب.

هذا إلى جانب «الضوضاء».

قال فيريان متوسلًا، عندما طال مكوث الطفلة في الأسرة ولم تعُد حديثة عهد: «هل يمكنكِ سحرها لتكون أهدأ؟» لكن زان رفضت، بالطبع.

قالت له زان مرارًا وتكرارًا: «لا يمكن استخدام السحر لسلب إرادة الآخرين يا فيريان. كيف يُمكنني فعل شيءٍ يجب أن أطلب منها ألا تفعله «أبدًا»، بمجرد أن تعي وتفهم ذلك؟ هذا يُسمى رياءً.»

حتى عندما تكون لونا مسرورة، فإنها لا تهدأ. فهي تُهمهم وتُناغي وتُطلق صرخاتٍ حادة وتقهقه، وتزفر وتصرخ. كانت مثل شلال من الأصوات، تنهمر منه الأصوات، وتنهمر، وتنهمر. ولم تكن تتوقف مطلقًا. حتى إنها تناغي وهي نائمة.

صنع جليرك لِلونا حمالةً تتدلَّى من أكتافه الأربعة عندما يسير على ستة أطراف. وتولى الانتقال بالطفلة من المستنقع، متخطيًا الورشة ومتخطيًا حطام القلعة، والعودة إلى نقطة البداية من جديد، وهو يتلو أبيات الشعر أثناء ذلك.

لم يكن ينوي أن يُحب الطفلة.

لكنه فعل.

ردد الوحش: ««من حبة رمل»،

«يُولَد الضوء

يُولَد الفضاء

ويولد الزمن السرمدي،

وإلى حبة رمل

يئول كل شيء».»

كانت هذه واحدة من قصائده المفضلة. حدقت فيه الطفلة بينما كان يسير، متأملةً مُقلتَي عينَيه الجاحظتَين وأُذنيه المخروطتي الشكل وشفتَيه العريضتين فوق فكيه الواسعين. تفحصت بعينَيها كل نتوء صغير وكل فجوة أو خدش أو تورُّم في وجهه الضخم المفلطح، وفي عينيها نظرة تعجُّب. رفعت إصبعها ووضعته بفضول داخل فتحة أنفه. فعطس جليرك وضحكت الطفلة.

قالت الطفلة: «جليرك»، مع أن قولها قد يكون مجرد حازوقة أو تجشؤ. لكن جليرك لم يهتم بهذا. لقد نطقت اسمه. قالته. كاد قلبه يثب فرحًا إلى خارج صدره.

أما عن زان، فقد بذلت جهدها كي لا تقول له: «قلت لك هذا.» وقد نجحت تقريبًا.

في تلك السنة الأولى، راقبت زان وجليرك الطفلة علَّهما يجدان أي علامة تدلُّ على تفجُّر بركان السحر بداخلها. وعلى الرغم من أنه يمكنهما رؤية بحار السحر المتلاطمة الأمواج أسفل جلد الطفلة (ويُمكنهما الشعور بهذا التلاطم في كل مرة يحملان فيها الطفلة بين أذرعهما)، استمرت القوى السحرية بداخلها كموجةٍ ترتفع دون أن تنكسِر.

في الليل، ينحني ضوء القمر وضوء النجوم نحو الطفلة، فينهمران فوق مهدها. غطت زان النوافذ بستائر ثقيلة، لكنها كانت تجدها مُشَرَّعة، وتجد الطفلة تشرب من ضوء القمر أثناء نومها.

قالت زان لنفسها: «يا لهذا القمر! إنه مليء بالخدع.»

لكن لمحة قلق ظلَّت باقية. وظل السحر يتزايد في صمت.

في السنة الثانية، زاد السحر بداخل لونا، وتقريبًا تضاعف في الكثافة والشدة. شعر جليرك بهذا. كما شعرت زان بهذا أيضًا. لكنه لم يتفجر بعد.

«الأطفال السحريون خطرون جدًّا»، هذا ما حاول جليرك أن يُذكِّر به نفسه يومًا بعد يوم. هذا في الوقت الذي لم يكن يهدهد فيه لونا أو يُغني لها. أو يهمس بالشِّعر في أُذنها وهي نائمة. بعد فترة، بدأ طنين السحر تحت جلدِها يبدو أمرًا عاديًّا. كانت طفلة مُفعمة بالحيوية والنشاط. كما كانت طفلة فضولية. وكانت شقية. وكانت تلك أمور كافية للتعامل معها وحدَها.

ظل ضوء القمر ينحني نحو الطفلة. وقررتْ زان أن تتوقف عن القلق حيال ذلك.

في السنة الثالثة، تضاعف السحر مرة أخرى. ولم تلحظ زان وجليرك ذلك. وإنما انشغلا تمامًا بطفلةٍ تستكشف وتفتش وتشخبط على الكتب وتلقي بالبيض على الماعز،

وذات مرة حاولت الطيران من فوق سور، لينتهي بها الأمر بخدش في الركبة وكسر بإحدى الأسنان. وتسلقت الأشجار وحاولت الإمساك بالطيور وأحيانًا كانت تحتال على فيريان وتجعله يبكي.

قال جليرك: «الشِّعر سيساعدنا. فدراسة اللغة تعمل على ترويض أكثر الوحوش مشاكسةً.»

قالت زان: «سيعمل العِلم على تنظيم عقلها. كيف يمكن لطفلةٍ أن تشاغب وهي تدرُس النجوم؟»

قال فيريان: «سأعلِّمها الحساب. لن تتمكن من الاحتيال عليَّ إذا انشغلت بالعدِّ حتى مليون.»

وهكذا، بدأ تعليم لونا.

همس جليرك أثناء قيلولة لونا في الشتاء: ««في كل نسمة تفوح منها بشرى مقدم الربيع».

تحلم كل شجرة نائمة
بالأوراق الخضراء،
ويستيقظ الجبل القاحل
عند تفتح الأزهار.»

ارتفعت موجات السِّحر تحت جلدها في صمت، موجة تلو أخرى. لكن هذه الموجات لم تصطدم بالشاطئ. ليس بعد.

الفصل السادس

أنتين يُوَرِّط نفسه في المتاعب

خلال تدريب أنتين الذي استمر خمس سنوات في مجلس الحكماء، بذل قصارى جهده كي يقنع نفسه أن عمله سيصبح سهلًا في يوم من الأيام. لكنه كان مخطئًا. فهذا لم يحدث.

كان الحكماء يصيحون بالأوامر في وجهه أثناء اجتماعات المجلس والمناقشات المتعلقة بالمهام المجتمعية والمناقشات التي تجري بعد ساعات العمل. كانوا يوبِّخونه عندما يصادفونه في الطريق. أو عندما يجلسون في غرفة طعام أُمِّه لتناول عشاء باذخ (لكنه غير مريح). كما كانوا يُعنفونه بينما يسير في أعقابهم خلال حملة تفتيش مفاجئة.

ظل أنتين عالقًا في المؤخرة، عاقدًا حاجبَيه بطريقة تنمُّ عن الحيرة.

بدا وكأنه مهما فعل أنتين، فسيستشيط الحكماء وينفجرون غضبًا وتستحيل وجوههم قرمزية.

كان الحكماء يَصيحون: «أنتين! قف مستقيمًا!»

«أنتين! ماذا فعلت بإعلانات القرارات؟»

«أنتين! أزل هذه النظرة السخيفة عن وجهك!»

«أنتين! كيف نسيت الوجبات الخفيفة؟»

«أنتين! بربك ماذا سكبت على ردائك؟»

بدا وكأن أنتين لا يجيد فعل شيء بطريقة صحيحة.

لم تكن حياته في البيت أفضل حالًا.

كانت أُمُّهُ تُوبخه ليلة تلو أخرى أثناء العشاء مرددةً: «كيف تظل «حكيمًا تحت التدريب» كل هذا الوقت؟» وأحيانًا كانت مِلعقتها تفلت من يدِها لتسقط على الطاولة، فيأتي الخدم مُسرعين. «لقد وعدني أخي أنك ستُصبح من الحكماء وكان من المفترض أن تكون كذلك الآن. لقد وعدني».

تستمر الأم في التبرُّم والغضب إلى أن يشرع وين، الأخ الأصغر لأنتين، في البكاء. كان أنتين الأخ الأكبر ضمن ستة إخوة، وهي أسرة صغيرة وفقًا لمعايير «المحمية»، ومنذ توفي والده وأُمُّهُ لا تريد شيئًا سوى التأكد من أن أبناءها يُحققون أفضل النتائج التي يمكن أن تُقدمها «المحمية».

ألا تستحق «الأفضل» عندما يتعلق الأمر بالأبناء؟

قال أنتين بهدوء: «لقد أخبرني خالي أن الأمور تستغرق وقتًا يا أمي.» جذب أخاه الصغير الذي لا يزال يتعلم المشي إلى حضنِهِ وبدأ يهزُّه إلى أن هدأ الطفل. من جيبه أخرج لعبةً خشبية نحتَها بنفسه دون مساعدة، عبارة عن غرابٍ صغير له عينان لولبيتان وخشخيشة داخل بطنه. فرح الصغير وأقحم اللعبة في فمه.

قالت غاضبة: «تبًّا لخالك. نحن نستحقُّ هذا الشرف. أعني أنك تستحق هذا الشرف، يا ابني العزيز.»

لم يكن أنتين على يقين من ذلك.

استأذن وغادر الطاولة، مُغمغمًا بأن لدَيه عملًا لا بد أن يقوم به من أجل المجلس، لكن حقيقة الأمر أنه خطط للتسلُّل إلى المطبخ لمساعدة طاقم المطبخ. ثم التسلُّل إلى الحديقة لمساعدة البستانيين في آخر ساعات النهار. وبعد ذلك ذهب إلى الكوخ لنحت الخشب. أحب أنتين الأشغال الخشبية؛ لا سيما استقرار المواد، ودِقة عروق الخشب وجمالها، والرائحة الباعثة على الراحة لنشارة الخشب والزيت. قليلة هي الأشياء التي أحبَّها في حياته أكثر من الأشغال الخشبية. ظلَّ ينحت ويعمل حتى وقتٍ متأخر من الليل، محاولًا قدر الإمكان ألا يُفكر بشأن حياته. كان «يوم التضحية» التالي يقترب، على أي حال. وسيحتاج أنتين إلى عُذر آخر كي لا يحضر.

في الصباح التالي، ارتدى أنتين رداءه المغسول حديثًا واتجه إلى قاعة المجلس قبل الفجر. كل يوم، مهمته الأولى في الصباح هي أن يقرأ قراءةً شامِلةً شكاوى المواطنين وطلباتهم التي كُتبت بقطعٍ صغيرة من الطباشير على حائط كبير من الأردواز، ويُحدد الشكاوى والطلبات التي تستحق الاهتمام والأخرى التي يتوجب غسلها ومسحها.

(«لكن ماذا لو كانت كلها مُهمة يا خالي؟» هكذا سأل أنتين كبير الحكماء ذات مرة.

«لا يمكن أن تكون كذلك. على أي حال، عندما نمنع وصول صوت الناس لنا، فإننا بذلك نمنحهم هدية. إذ يتعلمون تقبل نصيبهم في الدنيا. ويتعلمون أن أي فعل غير مُهم.

تبقى أيامهم كَدِرة، كما ينبغي لها. لا تُوجَد هدية أعظم من ذلك. والآن قل لي. أين شاي الزيرين الخاص بي؟»)

بعد ذلك، كان يتعين على أنتين تهوية الغرفة، ثم وضع جدول أعمال اليوم ثم بسط الوسائد كي يقعد عليها كبير الحكماء. ثم يرشُّ في غرفة المدخل نوعًا من العطور المركبة في معامل «أخوات النجمة»، مُصممًا خصوصًا لجعل الأشخاص يشعرون بأنهم مسلوبو الإرادة وبأن ألسنتهم انعقدت كما يشعرون بالخوف والامتنان، كل هذا في آنٍ واحد، وبعد ذلك كان عليه أن يقف في الحجرة أثناء وصول الخدم ويعطي لكلٍّ منهم تعبيرًا آمرًا أثناء دخولهم إلى المبنى، وذلك قبل أن يعلق وشاحه في خزانة الملابس ويذهب إلى المدرسة.

(«لكن، ماذا إذا لم أتمكن من إعطاء تعبير آمر، يا خالي؟» هكذا سأل الفتى مرارًا وتكرارًا.

«الصبر يا بني، استمر في التدريب.»)

سار أنتين ببطء إلى مبنى المدرسة، مُستمتعًا ببريق الشمس المؤقت فوق رأسه. ستُصبح السماء غائمة خلال ساعة. دائمًا ما تكون السماء غائمة في «المحمية». يعلق الضباب بجدران المدينة وشوارعها المرصوفة كطحلب عنيد. لم يكن كثير من الناس يخرجون للعمل في وقتٍ مُبكر هكذا من الصباح. قال أنتين في نفسه: «مساكين. يُفوِّتون ضوء الشمس.» رفع وجهه وشعر بدفقة أملٍ وبِشرٍ لحظيَّين.

انحرف بصره نحو «البرج»، الذي يُشبه، في سواد أحجاره وتعقيدها على نحو شيطاني خبيث، المجرات الحلزونية ومسارات النجوم، والذي تبرز نوافذه المستديرة للخارج كالعيون. تلك الأم، التي أصابها الجنون، لا تزال هناك. كانت حبيسة هذا «البرج». المرأة المُصابة بالجنون. لخمس سنوات أخذت تتماثل للشفاء في الأَسْر لكنها لم تُشفَ تمامًا. في مخيلة أنتين، كان يمكنه أن يرى ذلك الوجه الجامح، وهاتين العينين السوداوين، وتلك الشامة على الجبهة، حمراء ومتوهجة. تَذَكَّر الطريقة التي ركلت بها بقدمِها وتسلقت وصرخت وقاتلت. لم يستطع نسيانها.

ولم يستطع أن يُسامح نفسه.

أغلق أنتين عينَيه جيدًا وحاول إبعاد المشهد عن مخيلته.

قال في نفسه وقد آلمه قلبه: «لماذا يجب أن يستمر هذا؟ لا بد من أنه يُوجَد سبيل آخر.»

كالمعتاد، كان أول من يصل إلى المدرسة. حتى المعلم نفسه لم يكن هناك. جلس على السُّلَّم وأخرج دفتر يومياته. كان قد انتهى من واجباته المدرسية، لكنها لم تكن مهمة

على أي حال. كان المعلم يصرُّ على أن يُناديه «الحكيم أنتين» بصوت متملق، مع أنه لم يكن حكيمًا بعد، كما كان يمنحه الدرجات النهائية أيًّا كانت إجاباته. على الأرجح كان يمكنه ترك الصفحات بيضاء ويحصل على الدرجات النهائية. لكن أنتين كان لا يزال يجدُّ في عمله بغضِّ النظر عن ذلك. كان يعلم أن معلمه يتوق إلى الحصول على معاملةٍ خاصة فيما بعد. في دفتر يومياته، كان لدَيه العديد من الرسوم التخطيطية لمشروع من تصميمه، وهو عبارة عن خزانة رائعة لتخزين أدوات العناية بالحدائق وتنظيمها، مثبتة على عجلات حتى يمكن جرها بسهولة بواسطة معزاة صغيرة، وهي هدية كان ينوي إعطاءها لرئيس البستانيين، الذي كان لطيفًا دائمًا.

سقط ظل على رسمه.

قال كبير الحكماء: «ابن أختي.»

رفع أنتين رأسه لأعلى بسرعة خاطفة.

قال، وهو يندفع واقفًا: «خالي!» فسقطت أوراقه فجأة وتبعثرت على الأرض. جمع الأوراق في عجل ووضعها بين ذراعيه. نظر إليه كبير الحكماء باستياء.

قال كبير الحكماء وهو يحفُّ بردائه، مشيرًا للفتى بأن يتبعه: «تعالَ يا ابن الأخت. لا بد أن نتحدث معًا.»

«ولكن، ماذا عن المدرسة؟»

«لا داعيَ أصلًا لأن تكون في المدرسة. الغرض من هذا البناء هو استضافة وتسلية من لا مستقبل لهم قبل أن يكبروا بما يكفي للعمل لصالح «المحمية». الأشخاص الذين في مكانتك لديهم معلمون خصوصيون، ورفضك لهذا الأمر الأساسي يستعصي على الفهم. أُمُّك تثرثر بشأن هذا الموضوع دون توقف. على أي حال، لن يفتقِدَك أحدٌ هُنا.»

هذا صحيح. لن يفتقده أحد. فكل يوم في الفصل، يجلس أنتين في مؤخرة الفصل ويدرس بهدوء. نادرًا ما كان يطرح أسئلة. ونادرًا ما كان يتحدَّث. لا سيما الآن، بعد أن تركت المدرسةَ للأبد الفتاةُ الوحيدةُ التي لم يُمانع أن يتحدَّث إليها، بل كان يُستحَبُّ لو أنها بادلَتْه الحديث. كانت قد ذهبت للتدريب على الرهبنة لدى «أخوات النجمة». اسمها إيثين، وعلى الرغم من أن أنتين لم يتبادل معها سوى كلماتٍ قليلة لا تتعدى ثلاث كلمات، كان يفتقدها بشدة، ولم يكن حاليًّا يذهب إلى المدرسة يومًا تلو الآخر إلا على أمل أن تُغير رأيها وتعود مجددًا.

كان قد مر عام. لم يسبق أن ترك أحدٌ «أخوات النجمة». هذا لم يحدث. ومع ذلك، ظل أنتين منتظرًا. وظل يتمنى.

تبع خالَه مسرعًا.

لم يكن الحكماء الآخرون قد وصلوا بعدُ إلى «قاعة المجلس»، ومن المرجَّح ألا يصلوا قبل الظهيرة أو بعد ذلك. طلب جيرلاند من أنتين أن يجلس.

حدقَ كبير الحكماء في أنتين طويلًا. لم يستطع أنتين إخراج «البرج» من عقله. ولم يستطع أن ينسى المرأة المجنونة. ولم يستطع أن ينسى الطفلة التي تُركت في الغابة، تبكي وتنتحب أثناء رحيلهم. قال في نفسه: «يا إلهي، كم صرختِ المرأة. وكم قاتلت، وما هذا الحال الذي أصبحنا عليه؟»

كانت هذه الأفكار مثل إبرة هائلة تثقب روحه كل يوم.

قال كبير الحكماء أخيرًا: «يا ابن أختي.» طوى يدَيه ورفعهما إلى فمه. وتنهد بعمق. أدرك أنتين أن وجه خاله كان شاحبًا. ««يوم التضحية» يقترب.»

قال أنتين: «أعرف يا خالي». كان صوته رفيعًا. وتنهد قائلًا: «باقٍ خمسة أيام. «يوم التضحية» ...». ««يوم التضحية» لا ينتظر أحدًا.»

«لم تحضر في العام الماضي. ولم تكن واقفًا مع الحكماء الآخرين. كان لدَيك عدوى في قدمك، حسبما أتذكر، أليس كذلك؟»

أطرق أنتين في الأرض. وقال: «أجل يا خالي. كان لدي حُمى أيضًا.»

«وهذه الحمى شُفِيَتْ من تلقاء نفسها في اليوم التالي؟»

قال بضعف: «حمدًا لـ «المستنقع» الرب. لقد كانت معجزة».

قال جيرلاند: «وماذا عن العام الماضي؟ التهاب رئوي، أليس كذلك؟»

أومأ أنتين برأسه. كان يعرف إلامَ سيؤدي هذا الحديث.

«وقبل ذلك. حريق في الكوخ؟ أليس كذلك؟ من الجيد أن أحدًا لم يُصَب بأذى. وكنت أنت هناك. وحدك. تكافح النيران.»

«كان الجميع واقِفِين على الطريق. ولم يكن يُوجَد متهربون. لذا كنت وحدي».

«بالطبع.» نظر كبير الحكماء إلى أنتين مُضيقًا عينَيه متفحصًا. ثم تابع: «أيها الشاب، من تظن أنك تخدع؟»

ساد الصمت بينهما.

تذكر أنتين الخصلات المتموِّجة السوداء التي كانت تُبرِز عينَين سوداوَين واسِعتَين. تذكر الأصوات التي أصدرتها الرضيعة عندما تركوها في الغابة. تذكر ارتطام أبواب «البرج» عندما حبسوا المرأة المجنونة بداخله. وارتعدت فرائِصُه.

قال أنتين: «خالي ...» لكن جيرلاند أشاح بيدِهِ متجاهلًا.

«استمِعْ إليَّ يا ابن أختي. المنصب الذي قدمتُهُ لك يتنافى مع حكمي عليك. لم أفعل هذا بسبب إلحاح أُختي المتواصل، لكن للحبِّ الكبير الذي كنت، وما زلت، أُكنُّهُ لوالدك العزيز، لترقُدَ روحه في سلام. كان يريدُ الاطمئنان على مُستقبلك قبل أن توافيه المنية، ولم أستطع أن أخذُله. ووجودك هُنا» — لانت ملامح وجه جيرلاند الصارمة قليلًا — «كان الترياق لعلاج حُزني. وأنا أُقدِّر ذلك. أنت فتى طيب يا أنتين. والدك سيفخر بك كثيرًا.»

شعر أنتين بالارتياح. لكن هذا الارتياح لم يدُمْ سوى للحظات. نهض كبير الحكماء فانسدلَ رداؤه الفضفاض ملامسًا الأرض.

«ولكن»، قالها بصوتٍ تردَّد صداه على نحو غريب في الغرفة الصغيرة. «ولكن مشاعري تجاهك لا تتعدى هذا الحد.»

كانت ثمة هشاشة في صوته. وكانت عيناه مُتسعتَين. ومُجهدتَين. حتى إنهما كانتا مُبلَّلتين قليلًا. تساءل أنتين في نفسه: «هل خالي قلق بشأني؟» ثم قال لنفسه: «بالتأكيد لا.»

تابع خاله: «أيها الشاب. لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر. الحكماء الآخرون يتهامسون. إنهم ...» توقف عن الكلام. انحبس صوته في حلقه. واحمرَّ خدَّاه. «ليسوا سعداء. حمايتي لك يا عزيزي طويلة الأمد. لكنها ليست مُطلقة.»

تساءل أنتين في نفسه، بينما كان يُحدق في وجه خاله المحتقن: «ولماذا أحتاج إلى الحماية؟»

أغمض كبير الحكماء عينَيه وحاول أن يُهدئ من أنفاسه المضطربة. أشار للفتى أن يقِف. ارتسم التعبير الآمِر على وجهه من جديد. «هيا يا ابن أختي. حان وقت عودتك إلى المدرسة. سننتظِر مجيئك كالمعتاد في منتصف ما بعد الظهيرة. آمُل أن تتمكن من جعل شخصٍ واحد على الأقل يتذلل لك اليوم. هذا من شأنه أن يُهدئ الشكوك بين الحكماء الآخرين. عِدني أنك ستحاول، يا أنتين، من فضلك.»

اتجه أنتين صوب الباب، وانساب كبير الحكماء في عَقِبه. رفع الرجل الأكبر سنًّا يدَه بنِيَّة أن يضعها على كتف الصبيِّ لكنه تركها مُعلقة في الهواء للحظةٍ قبل أن يُفكر ألا يفعل ويُنزِلها إلى حيث كانت مرةً أخرى.

قال أنتين وهو يسير نحو الخارج: «سأحاول بجهدٍ أكبر يا خالي. أعدك بأنني سأفعل.»

همس كبير الحكماء بصوتٍ أجش: «تأكَّدْ من أن تفعل.»

بعد مرور خمسة أيام، بينما كانت «أردية» الحكماء تنساب في شوارع المدينة مُتجهة نحو المنزل المُبتَلى، كان أنتين في البيت، شاعرًا بألمٍ في مَعِدته ويتقيأ غداءه. أو هذا ما قاله. تذمَّر الحكماء الآخرون طوال الموكب. تذمَّروا أثناء تَسلُّمِهم الطفل من والدَيه الخاضعَين المُذعِنَين. وتذمَّروا وهم يهرولون إلى حفرة أشجار الجميز.

همس الحكماء: «لا بد من التعامُل مع هذا الصبي.» وكان كل منهم يعلم جيدًا ما يَعنيه ذلك.

«يا ويلي، أنتين يا صغيري، أنتين يا صغيري!» هكذا قال جيرالد لنفسه أثناء سيرِهم، وخيوط الخوف تلتف حول قلبه وتتداخل معًا مُكوِّنة عقدةً محكمةً. «ماذا فعلتَ أيها الطفل الأحمق، ماذا فعلت؟»

الفصل السابع

الطفلة المسحورة تُسبِّب مزيدًا من المتاعب

عندما أصبحت لونا في الخامسة من عمرها، تضاعف سِحرها بمقدار خمسة أمثال، لكنه ظل بداخلها، ملتحمًا مع عظامها وعضلاتها ودمها. كان بالفعل موجودًا داخل كل خلية. كان خامدًا وغير مُستخدَم؛ كان قوةً كامنة دون أي أثر.

تذمر جليرك قائلًا: «لا يُمكنني الاستمرار على هذا النحو. كلما زادت القوى السحرية التي تجمعها، زاد السحر الذي سيخرج منها.» صنَعَ حركاتٍ مضحكةً بوجهه رغمًا عنه من أجل الطفلة. ضحكت لونا بجنون. قال جليرك، محاولًا عبثًا أن يكون جادًّا: «تذكري ما قلتُه لكِ.»

قالت زان: «أنت لا تعلم ذلك يقينًا. ربما لا يثور بركان السحر. ربما لن تُصبح الأمور صعبة.»

على الرغم من أن زان كانت تعمل دون كلل من أجل إيجاد منازل تُئوي هؤلاء الأطفال المهجورين، فإنها كانت تكره الأمور الصعبة. والأمور المُحزنة. والأشياء الكريهة. كانت تُفضل ألا تفكر فيها، إن كان بوسعها ذلك. جلست زان مع الفتاة، تنفخ فقاعات؛ وهي أشياء رائعة وساطعة تكاد تكون سحرية، بألوانها الجميلة التي تدور على أسطحها. طاردت الفتاة الفقاعات وأمسكت بكل فقاعة بأصابعها، وجعلت كل واحدة منها تُحيط ببراعم زهور الأقحوان أو فراشات أو أوراق أشجار. حتى إنها دخلت في فقاعة ضخمة جدًّا وطافت بها فوق قِمَم العشب مباشرةً.

قالت زان: «ثمة الكثير من الجمال يا جليرك. كيف يمكنك التفكير في أي شيء آخر؟»

هزَّ جليرك رأسه.

قال جليرك: «كم سيستمر هذا يا زان؟» لكن الساحرة رفضت أن تُجيب.

فيما بعد، حمل الفتاة وغنَّى لها حتى نامت. كان بوسعِهِ أن يشعر بثقل السحر بين ذراعَيه. وشعر بحركة أمواج السحر الهائلة وهديرها الذي يتعالى مع ارتفاع هذه الأمواج داخل جسد الطفلة دون أن تجِدَ طريقَها إلى الشاطئ.

قالت له الساحرة إنه يتوهَّم أشياء لا وجود لها.

أصرت على تركيز طاقاتهما على تنشئة الفتاة الصغيرة التي كانت بطبيعتها مَزيجًا متشابكًا من المشاغبة والحركة والفضول. فكل يوم، كانت قُدرة لونا على كسر القوانين، بطرق جديدة ومُبتكرة، تُثير دهشة كلِّ من يعرفها. حاولت امتطاء الماعز، وحاولت دحرجة الصخور لأسفل الجبل ووضعها بجانب الحظيرة («لأغراض الزينة»، كما أوضَحَت)، وحاولت تعليم الدجاج الطيران، وذات مرةٍ كادت تغرَقُ في المستنقع (وأنقذها جليرك. حمدًا للآلهة.) وسَقَت الإوز الجعة لترى ما إذا كان ذلك سيجعله يسير بطريقة مُضحكة (وقد حدث) كما وضعت حبوب الفلفل الأسود في طعام الماعز لترى إن كان هذا سيجعله يقفز (لم تقفز الماعز؛ لكنها دمَّرت السور فحسب). كانت كل يوم تستحث فيريان على إتيان أفعالٍ شنيعة، أو تحتال على التنين المسكين، وتجعله يبكي. كانت تتسلق وتختبئ وتبني وتكسر وتكتب على الجدران وتُفسد فساتينها بمجرد الانتهاء من صنعها. كان شعرها يهيش ويتبعثر ويُلطِّخ أنفها وتترك بصمات يدَيها في كل مكان تذهب إليه.

سأل جليرك مرارًا وتكرارًا: «ماذا سيحدث إذا ثار بركان سحرها؟ كيف سيكون حالها عندئذٍ؟»

حاولت زان ألا تفكر في هذا الأمر.

كانت زان تزور «المدن المستقلة» مرَّتين في العام؛ واحدة بصحبة لونا والأخرى بدونها. لم توضح للطفلة الغرض من زيارتها الفردية، كما أنها لم تُخبرها عن البلدة الحزينة الموجودة على الجانب الآخر من الغابة، أو عن الأطفال الذين يُتركون في الخلاء، على الأرجح كي يلاقوا حتفَهم. سيتعيَّن عليها إخبار الطفلة بهذا لاحقًا، بالتأكيد. قالت زان لنفسها إنها ستفعل ذلك يومًا ما. ليس الآن. فالبلدة حزينة للغاية. ولونا أصغر من أن تستوعب.

عندما كانت لونا في الخامسة من عمرها، سافرت مرة أخرى إلى واحدة من أبعد «المدن المستقلة»، مدينة تُسمى أوبسيديان. ووجدت زان نفسها قلقةً بشأن طفلة لن تجلس هادئة. لن تفعل بأي حال من الأحوال.

«من فضلكِ، يا آنسة، أيمكنكِ أن تخرُجي من هذا المنزل في الحال، وتبحثي عن صديقٍ تلعبين معه؟»

«جدتي، انظري! هذه قبعة.» وأدخلت يدَها في زبدية وأخرجت منها قطعةً منتفخة من عجينة خبز متخمرة ووضعتها فوق رأسها. «هذه قبعة يا جدتي! أجمل قبعة.»

قالت زان: «هذه ليست قبعة. هذه قطعة من العجين.» كانت في خِضمِّ إجراء سِحر معقد. كانت المعلمة ترقد فوق طاولة المطبخ، تغطُّ في نوم عميق، وقد أبقت زان راحتَيها على جانبَي وجه المرأة الشابة، وتُركز بشدة. كانت المعلمة تعاني من صداع شديد، اكتشفت زان أنه ناتج عن كتلةٍ ورمية في مركز دماغها. كان بوسع زان إزالتها شيئًا فشيئًا، لكنها كانت مهمةً صعبة. كما أنها كانت خطيرة. فهو عمل تؤدِّيه ساحرة بارعة، ولا تُوجَد من هي أبرع من زان.

ولكن على الرغم من براعتها لم تكن مهمة سهلة. بل كانت صعبة، أصعب مما ظنت زان أنها ستكون. كما كانت مُرهِقة. أصبح كل شيء مُرهِقًا في الآونة الأخيرة. أرجعت زان ذلك للشيخوخة. فقواها السحرية صارت تنفد بسرعة هذه الأيام. وتحتاج إلى وقت طويل لإعادة شحنها. وكانت متعبةً جدًّا.

«أيها الشاب»، قالت زان لابن المعلمة، وهو فتى لطيف ربما يكون في الخامسة عشرة من عمره، تبدو بشرته مُتوهجة. فهو أحد «أطفال النجوم». «هلا أخذت هذه الفتاة المثيرة للمتاعب خارجًا ولعبتَ معها كي يُمكنني التركيز في علاج أمك دون أن أقضي عليها عن طريق الخطأ؟» فشحب وجهُ الفتى. فأردفت: «أنا فقط أمزح معك، بالطبع. أمك بأمانٍ معي.» كانت زان تأمُل أن يكون قولها هذا صحيحًا.

دَسَّت لونا يدَها في يد الفتى ولمعت عيناها السوداوان مثل جوهرتين. وقالت: «هيا نلعب»، وابتسم الفتى ردًّا على قولها. أحَبَّ لونا، شأنه كشأن أي شخص آخر. ركض الطفلان إلى خارج البيت وهما يتضاحكان واختفيا في الغابة التي في خلفية المنزل بعيدًا.

فيما بعد، عندما أُزيل الورَم وعُولج الدماغ ونامت المعلمة بارتياح، شعرت زان بأنها أخيرًا يُمكنها أن تسترخي. وقعت عينها على الزبدية على المنضدة. الزبدية التي تحتوي على عجينة الخبز المتخمرة.

ولكن لم تكن تُوجَد عجينة خبز على الإطلاق. وإنما كانت توجد قبعة ذات حواف عريضة ومليئة بالتفاصيل الدقيقة. كانت أجمل قبعة رأتها زان في حياتها.

همست زان، وهي تلتقِط القبعة وتلاحظ السحر الذي يتخللها: «يا للهول!» كانت زرقاء. مع وجود بريقٍ فضي لامع عند الحواف. كان هذا هو سحر لونا. «يا للهول! يا للهول!»

وخلال اليومَين التالِيَين، بذلت زان قصارى جهدها لتُنهي عملها في «المدن المستقلة» بأسرع ما بوسعها. لكن لونا لم تكن عونًا لها على الإطلاق. كانت متفوقةً بفارقٍ شاسع على الأطفال الآخرين، في السباقات والألعاب والقفز من فوق الأسوار. تَحَدَّت مجموعات من الأطفال أن يتسلَّقوا إلى قمم الأشجار معها. أو إلى عُليَّات الحظائر. أو على دعامات الأسقف الخشبية للجيران. تبِعَها الأطفال لأعلى وأعلى، لكنهم لم يتمكنوا من مجاراتها حتى النهاية. بدت وكأنها تُحَلِّق فوق الأغصان. وكراقصةٍ بارعة، دارت حول نفسها على أطراف أصابع قدمَيها فوق حافة إحدى أوراق شجرة بتولا.

صرخت الساحرة: «انزلي في الحال، يا آنسة.»

ضحكت الفتاة الصغيرة. وحَلَّقت نحو الأرض، قافزةً من ورقة شجر إلى أخرى، وهي ترشد الأطفال خلفها بأمان. كان بوسع زان أن ترى خيوط السحر تنساب من خلفها كالشرائط. زرقاء وفضية، وفضية وزرقاء. كانت تلك الخيوط تنتفخ وتتضخَّم وتدور لولبيًّا في الهواء. وتترك آثارًا على الأرض. انطلقت زان خلف الطفلة تُلاحقها بسرعة، وفي نفس الوقت تُنظف وتُنظم الفوضى التي تسببت فيها الطفلة.

حَوَّلَت حمارًا إلى دمية.

وحَوَّلَت منزلًا إلى طائر.

وصَنَعَت حظيرةً من كعك الزنجبيل والحلوى القطنية.

قالت زان في نفسها: «إنها لا تعرف ما تفعله.» تدفَّق السحر من الفتاة. لم ترَ زان هذا القدر من السحر طوال حياتها. قالت زان في نفسها بتبرُّم: «قد تؤذي نفسها بسهولة. أو قد تؤذي شخصًا آخر. أو جميع من في المدينة.» وبينما كانت زان تقطع الطريق عدوًا آلَمَتْها عظامها الواهنة، ظلت تُبطِل تعويذةً تلوَ الأخرى إلى أن لحِقَت بالطفلة المشاكسة.

قالت زان وهي تلوِّح بكفَّيها في غضب: «وقت القيلولة»، وسقطت لونا على الأرض. لم تتدخل زان «قط» في إرادة أي شخص. «قط». من سنوات بعيدة — منذ خمسمائة سنة تقريبًا — وعدَتِ القَيِّم عليها، زوسيموس، أنها لن تفعل أبدًا. لكن الآن ... سألت زان نفسها: «ماذا فعلتُ يا تُرى؟» ظنَّت أنها قد تكون مريضة.

حدق الأطفال الآخرون. أصدرت لونا شخيرًا. وسال لعابها على الأرض.

سأل أحد الأولاد: «هل هي بخير؟»

حملت زان لونا، وهي تشعر بثقل رأس الطفلة على كتِفِها، وتلامس بخدِّها المتجعد شعر الفتاة الصغيرة.

قالت: «هي بخير يا عزيزي. هي نائمة فحسب. تغطُّ في نوم عميق. وأعتقد جازمةً أن لديك واجبات منزلية تُنجزها.» حملت زان لونا إلى دار ضيافة عمدة المدينة، التي كانتا تمكثان فيها.

نامت لونا بعُمق. كانت أنفاسها بطيئة ومنتظمة. توهَّجت الشامة الهلالية على جبهتها قليلًا. فبدت قمرًا ورديًّا. أزاحت زان شعر الفتاة الأسود عن وجهها وغاصت بأصابعها في الخصلات المتموِّجة اللامعة.

سألت نفسها بصوتٍ مرتفع: «ما الذي أُغْفِله؟» كان ثمة شيء لم تكن تدركه، شيء مهم. ما كانت ستفكر في طفولتها لو كان بوسعها ذلك. كانت طفولة حزينة جدًّا. والحزن خطير، على الرغم من أنها لم تكن تستطيع أن تتذكَّر السبب.

الذاكرة سطح زلِق — أشبه بطحلب لزج على منحدر غير مستقر — ومن السهل جدًّا أن يفقد المرء توازُنه ويسقط. وعلى أي حال، كان تذكُّر خمسمائة سنة قَدْرًا جَمًّا. لكن الآن، تتداعى عليها الذكريات، رجل عجوز طيب، قلعة متهالكة، مجموعة من العلماء يدفنون وجوههم في الكتب، تنينة أمٌّ حزينة تقول وداعًا. وثمة شيء آخر أيضًا. شيء مخيف. حاولت زان الإمساك بالذكريات بينما تتداعى، لكنها كانت مثل قِطَع ثلج لامعة في انهيار جليدي؛ كانت تلمع في الضوء مدة قصيرة ثم تختفي.

كان يُوجَد شيء كان «من المفترض» أن تتذكره. كانت متأكدة من ذلك. ليت بوسعها أن تتذكر ما هو.

الفصل الثامن

حكاية تحتوي على لمحةٍ من الحقيقة

«حكاية؟ حسنًا. سأحكي لكِ حكاية. لكنكِ لن تُحبيها. وستجعلكِ تبكين.

كان يا مكان، في سالف العصر والزمان، كان سحرة وساحرات طيبون يعيشون في قلعة في منتصف الغابة.

حسنًا، لم تكن الغابة خطيرة في تلك الأيام بالطبع. نحن نعلم من المسئول عن اللعنة التي حلَّت على الغابة. إنه الشخص نفسه الذي يسرق أطفالنا ويُسمم المياه. في تلك الأيام البعيدة، كانت «المحمية» تنعم بالحكمة والازدهار. لم يحتج أحدٌ «الطريق» لعبور الغابة. كانت الغابة صديقة للجميع. وأي شخصٍ كان يمكنه الذهاب إلى قلعة السحرة للحصول على العلاج أو الحصول على نصائح أو للقيل والقال.

لكن في أحد الأيام، عَبَرَت ساحرة شريرة السماء فوق ظهر تنين. كانت ترتدي زوجًا من الأحذية السوداء العالية الرقبة وقبعةً سوداء وثوبًا بلون الدماء. أطلقت صرخاتها الغاضبة نحو السماء.

نعم يا صغيرتي. هذه قصة حقيقية. هل تُوجَد قصص من نوع آخر؟

بينما كانت تطير مُمتطيةً تنِّينها الملعون، اهتزت الأرض وانشقت. تأجَّجت مياه الأنهار وتشكلت فقاعات من الوحل وتحولت بحيرات كاملة إلى بخار. أما «المستنقع» — مُستنقعنا الحبيب — فقد أصبح سامًّا ونتنًا، مات الناس لأنهم لم يتمكنوا من استنشاق الهواء. انتفخت الأرض الموجودة أسفل القلعة، وظلت ترتفع وترتفع وتدفقت أعمدة صهارية ضخمة من الدخان والرماد من وسطها.

صرخ الناس: «إنها نهاية العالم.» وكان من الممكن أن تكون كذلك، لو لم يجرؤ رجل طيب على التصدي للساحرة.

رأى أحد السحرة الطيبين — لا أحد يتذكَّر اسمه — الساحرة على تنِّينها المُرعب يُحلقان فوق الأرض المنشقَّة. كان يعلم ما تُحاول الساحرة فعله: كانت تريد استخراج النيران من النتوء في الأرض ونشْرَها في كل مكانٍ على سطح الأرض، كبسط مفرش على طاولة. كانت تريد أن تُغطينا جميعًا بالرماد والنار والدخان.

حسنًا، بالتأكيد هذا ما أرادته. لا أحد يعلم السبب. كيف يمكننا أن نعلم؟ إنها ساحرة. لا تريد نظامًا ولا منطقًا.

بالطبع هذه قصة حقيقية. ألم تكوني مُصغية؟

وهكذا ركض الساحر الضئيل الشجاع نحو الدخان والنيران، متجاهلًا الخطر الهائل؛ وقفز في الهواء وجذب الساحرة من فوق ظهر تنِّينها. وألقى بالتنين في الحفرة المشتعِلة في الأرض، فسدَّها كما تفعل السدادة في فوهة الزجاجة.

لكنه لم يقتُل الساحرة. بل هي من قتلتْه.

لهذا فالشجاعة لا تُفيد. الشجاعة لا تصنع شيئًا، ولا تحمي ولا تسفر عن شيء. هي فقط تؤدي بك إلى حتفك. ولهذا السبب لم نتصدَّ للساحرة. لأنه حتى الساحر القوى الكبير المُسنِّ لم يكن ندًّا لها.

لقد أخبرتكِ بالفعل أن هذه القصة حقيقية. أنا لا أحكي سوى قصصٍ حقيقية. هذا يكفي. هيا اذهبي، ولا تدَعِيني أُمسك بكِ مُتغافلةً عن مهامكِ. فحينئذٍ قد أرسلكِ إلى الساحرة وأدعها تتصرَّف معكِ.»

الفصل التاسع

أمور عديدة تسوء

كانت رحلة العودة إلى البيت كارثية.

صاحت لونا: «جدَّتي! طائر!» أصبح جذع شجرةٍ طائرًا هائلًا جدًّا لونه وردي صريح وله نظرات مُرتبكة، يجلس باسطًا قدمَيه على الأرض، وواضعًا جناحَيه عند خصره وكأنه مذهول من وجوده.

هذا هو الشعور الذي استنتجَتْ زان أنه كان يُسيطر على الطائر المسكين. حولته مرة أخرى إلى جذع شجرة بينما كانت الفتاة تنظُر في اتجاهٍ آخر. حتى من تلك المسافة البعيدة، كان بوسعها أن تُحِسَّ بارتياحه.

صرخت لونا وهي تركض إلى الأمام: «جدتي! كعكة!» وفجأة توقف تدفُّق الجدول الذي كان أمامهما، واختفت المياه وتحولت إلى نهرٍ طويل من الكعك.

«لذيذة!» صاحت لونا وهي تلتقط كعكةً بيدِها، مُلطِّخةً وجهها بالطبقة السكرية المتعددة الألوان.

أحاطت زان خصر الفتاة بذراعها، وقفزت مُتخطية جدول الكعكات بعصاها، ودفعت لونا للأمام على الطريق المتعرج صعودًا على منحدر الجبل، وهي تحمل على عاتقها مهمة إبطال التعويذات غير المقصودة.

«جدتي! فراشات!»

«جدتي! مُهر صغير!»

«جدتي! توت!»

اندفعت التعويذات، واحدةً وراء الأخرى، مِن أصابع يدَيها وقدمَيها ومن أُذنيها وعينَيها. كان سِحرُها رشيقًا ونابضًا بالحياة. وهذا كل ما تمكنت زان من فعله كي تواكبها.

في الليل، عندما نامت زان من الإعياء، حلمت بالساحر زوسيموس، الذي مات منذ خمسمائة عام. في حلمها، كانت تشرح شيئًا ما، شيئًا مُهمًّا، لكن هدير البركان حجب صوتها. لم تتمكن سوى من التركيز على وجهه الذابل المتجعِّد أمام عينَيها، وجلده الذي كان يتساقط كما تسقط بتلات الزنابق في نهاية اليوم.

عندما وصلتا إلى البيت الذي يكمن أسفل قِمم وفوهات البركان الخامد والمُحاط برائحة المستنقع القوية، كان جليرك واقفًا منتصبًا بكامل طول قامته، في انتظارهما.

قال، بينما كان فيريان يرقص ويدور في الهواء مغردًا أغنية أَلَّفَها حديثًا عن حُبه لجميع الأشخاص الذين يعرفهم «زان. يبدو أن فتاتنا صارت أكثر تعقيدًا.» كان قد رأى خيوط السحر تنساب هُنا وهناك وتمتدُّ في خيوطٍ طويلة فوق قمم الأشجار. عَلِمَ حتى من تلك المسافة الكبيرة أنه لا يرى سحر زان الأخضر الناعم المتماسِك، بلون وملمس نبات الحزاز الذي يتشبث بالجانب المحجوب عن الرياح من شجرة البلوط. لا، كان ذلك السحر أزرق وفضيًّا، فضيًّا وأزرق. كان سِحر لونا.

لوحت له زان، قائلةً: «أنت لا تعرف إلا القليل عن ذلك»، بينما أخذت لونا تركض نحو المستنقع لجمع أزهار السوسن بين ذراعَيها وشُرب رحيقها. بينما كانت لونا تركض، كانت زهور زاهية تنبُت عند مواطئ قدمَيها. وعندما خاضت في المستنقع، تحول البوص إلى قارب، صعدت إلى سطحه، طافيةً فوق الطحالب الحمراء الداكنة التي تغطي سطح الماء. جلس فيريان في مقدمة القارب. لم يبدُ عليه أن لاحظ أن ثمة أي خطأ.

لفَّت زان ذراعها حول ظهر جليرك واتكأت عليه. كانت متعبةً أكثر من أيِّ وقتٍ مضى في حياتها.

قالت: «سيحتاج هذا إلى بعض الجهد.»

بعد ذلك، متكئةً بتثاقل على عصاها، مضت زان في طريقها إلى الورشة التي ستجهزها لتعليم لونا.

اتضح أنها كانت مُهمَّةً مستحيلة.

كانت زان في العاشرة من عمرها عندما حصلت على قواها السحرية. قبلئذٍ كانت وحيدة وخائفة. لم تكن الساحرات اللاتي أشرفْنَ على تعليمها طيبات جدًّا. كانت إحداهن على وجه التحديد مُتعطشةً للحزن. عندما أنقذها زوسيموس وشملها برعايته وجعل ولاءها له، كانت مُمتنةً جدًّا حتى إنها كانت على استعدادٍ لأن تتبع أي قواعد في العالم.

لكن الأمر مختلف في حالة لونا. لم تكن قد تجاوزت الخامسةَ من عمرها. وكانت عنيدة على نحو لافت. قالت زان مرارًا وتكرارًا بينما كانت تُحاول أن تجعل الفتاة توجِّه سحرها صوب شمعة: «اجلسي بهدوء يا عزيزتي. علينا أن ننظُر إلى داخل اللهب كي نفهم ... أيتها الصغيرة. الطيران في الفصل مَمنوع.»

صاحت لونا: «أنا غراب يا جدتي.» وهو ما لم يكن صحيحًا تمامًا. ببساطة كانت قد أنبتت لنفسها أجنحةً سوداء ومضت تُرفرف في أنحاء الغرفة. نعقت: «كاو، كاو، كاو!»

انتزعت زان الطفلة من الهواء وأبطلت التحول. مجرد تعويذة بسيطة، لكنها جعلت زان تسقط أرضًا على ركبتيها. كانت يداها ترتعشان ورؤيتها غائمة ومشوشة.

سألت زان نفسها: «ما الذي يحدث لي؟» لم يكن لديها فكرة.

لم تلاحظ لونا. حولت كتابًا إلى حمامةٍ وجعلت الحياة تدبُّ في أقلامها الرصاص وريشاتها بحيث تقف بنفسها وتقدم رقصةً معقدة على المكتب.

قالت زان، مُلقيةً تعويذةَ منعٍ بسيطة على الفتاة: «لونا، توقَّفي.» كان من المفترض أن تكون تعويذة سهلة. كما كان من المفترض أن تستمر لساعة أو ساعتين. لكن التعويذة خرجت من بطن زان، وهو ما جعلها تُصدِر شهيقًا، لكنها حتى لم تنجح. كسرت لونا تعويذة المنع دون أن تفكر لثانية واحدة. سقطت زان على الكرسي.

قالت المرأة العجوز، وجسمها كله يرتعش: «اخرجي والعبي بالخارج يا عزيزتي. ولكن لا تلمسي أي شيء، ولا تؤذي أي شيء، والسحر ممنوع.»

سألت لونا، بينما كانت تخرج مُسرعة من الباب: «ما هو السحر يا جدتي؟» كانت تنتظرها أشجار لتتسلَّقها وقوارب لتبنيها. وكانت زان مُتيقنة تمامًا من أنها رأت الطفلة تتحدث إلى طائر كركي.

كل يوم، كان السحر يُصبح خارجًا عن السيطرة أكثر. طرقت لونا بمرفقَيْها على الطاولات فحوَّلتها بالخطأ إلى مياه. وحولت الشراشف إلى بجعات عندما نامت عليها. (أحدثت البجعات فوضى عارمة). وجعلت الصخور تُفرقع مثل الفقاعات. صارت بشرتها ساخنةً جدًّا لدرجة أنها أصابت زان بقروح، أو باردة لدرجة أن جسدها ترك أثر قضمة صقيع على صدر جليرك عندما احتضنته. وذات مرة جعلت أجنحة فيريان تختفي أثناء طيرانه، مُتسببة في سقوطه. ثم هربت لونا بعيدًا، وهي لا تعي ما فعلته.

حاولت زان أن تضع لونا داخل فقاعةٍ واقية، وأخبرَتْها أنها لعبة ترفيهية يلعبونها، فقط كي تُبقي قوتها المتزايدة مكبوتة. وضعت فقاعات حول فيريان وفقاعات حول الماعز

وفقاعات حول الدجاج وفقاعةً ضخمة حول البيت، خشية من أن تجعل النيران تندلع، عن غير قصد، في بيتهم. وصمدت الفقاعات، التي كانت، في نهاية المطاف، سحرية، حتى لم تعُدْ هي الأخرى قادرة على الصمود أكثر.

صاحت لونا، وهي تَجري في دوائر على الصخور، حيث تنبثِق عند كل موطئ من مواطئ قدمَيها نباتات خضراء أو زهور مُتوهِّجة: «اصنعي المزيد يا جدتي! المزيد من الفقاعات!»

لم تشعر زان بمثل هذا الإجهاد من قبل.

قالت زان لجليرك، بعد أسبوع من الأعمال الشاقة القاصمة للظهر والقليل من النوم: «خذ فيريان إلى الفوهة الجنوبية». كانت لدَيها هالات سوداء تحت عينيها. وكان جلدها شاحبًا كالورق.

هزَّ جليرك رأسه الضخم مُعترضًا. قال: «لا يُمكنني تركِكِ في هذه الحالة يا زان»، وفي نفس الوقت كانت لونا تجعل أحد الصراصير يُصبح في حجم معزاة. أعطته مكعبًا من السكر ظهر في يدِها وركِبَت على ظهره. هزَّ جليرك رأسه «كيف يُمكنني أن أفعل ذلك؟».

قالت زان: «أريد أن أُبقيكما في أمان.»

استهجن وحش المستنقع هذا. وقال: «ليس للسحر عليَّ سلطان. أنا موجود قبل السحر بزمن طويل.»

رفعت زان حاجبيها مندهشةً. «ربما. لكنني غير متأكدة. فهي تملك ... الكثير من السحر. ولا تعرف ما تفعله.» شعرت أن عظامها ضعيفةً وهشَّةً وأن أنفاسها تتلاحق في صدرها. حاولت قدْر الإمكان أن تُخفي هذا عن جليرك.

تبعت زان لونا من مكانٍ إلى آخر، مُبطِلةً تعويذة تلو أخرى. أزيلت الأجنحة من الماعز وتحولت كعكات المافن مرة أخرى إلى بيضات. وتوقَّفَ بيت الشجرة عن التحليق. كانت لونا مُتعجبة ومسرورة. كانت تقضي أيامها تغني وتتنهَّد وتشير بتعجب. كانت ترقص هنا وهناك، وحيثما كانت ترقص، كانت تتفجر ينابيع من الأرض.

في الوقت نفسه، كانت قوى زان تخور أكثر فأكثر.

في النهاية، لم يستطع جليرك أن يتحمَّل أكثر. قفز إلى مُستنقعه الحبيب بعد أن ترك فيريان عند حافة الفوهة. بعد أن غطسَ غطسةً سريعة في المياه المعكرة، اتجه صوب لونا التي كانت تقف بمفردها في الباحة.

نادته: «جليرك! أنا سعيدة جدًّا لرؤيتك! أنت لطيف جدًّا كالأرنب.»

وهكذا ببساطة، أصبح جليرك أرنبًا صغيرًا. أرنبًا صغيرًا أبيض أزغب له عينان ورديتان وذيل مُنتفخ. كانت له رموش طويلة بيضاء وأذنان طويلتان مشقوقتان، وأنفه يرتعش في منتصف وجهه.

في الحال، بدأت لونا تبكي.

هرعت زان تجري من المنزل وحاولت استيعاب ما تقوله الفتاة الباكية. وقبل أن تبدأ في البحث عن جليرك كان قد ذهب. قفز بعيدًا وهو لا يعلم من يكون، ولا ماذا يكون. كان قد تحوَّل إلى أرنب. استغرق العثور عليه ساعات.

أجلست زان الفتاة. حدقت لونا فيها.

«جدتي، تبدين مختلفة.»

كان هذا صحيحًا. أصبحت يداها خشنتَين وبها نتوءات وبُقع وجلدها يتدلى من ذراعيها المترهلتين. كان بوسعها أن تشعر بأن وجهها انكمش وبدت أكبر سنًّا في تلك اللحظة. وفي تلك اللحظة، بينما كانت جالسةً في الشمس بصحبة لونا والأرنب — الذي كان جليرك ذات يوم — يرتعش بينهما، بدأت تشعر بأن السحر بداخلها يتدفَّق منها إلى لونا، مثلما فعل عندما كانت لا تزال طفلة رضيعة. وكلما تدفق السحر من زان إلى لونا، كانت المرأة العجوز تزداد هرَمًا أكثر وأكثر وأكثر.

قالت زان وهي تمسح على أُذني الأرنب: «لونا، هل تعلمين من هذا؟»

قالت لونا، وهي تجذب الأرنب إلى حِجرها وتداعِبُه بحُب: «إنه جليرك.»

أومأت زان برأسها. «كيف عرفتِ أنه جليرك؟»

هزت لونا كتفَيها. «رأيت جليرك. ثم تحوَّل إلى أرنب.»

«حسنًا، لِمَ تظنين أنه تحوَّل إلى أرنب؟»

ابتسمت لونا. «لأن الأرانب رائعة. وهو يُريدني أن أكون سعيدة. جليرك شاطر!»

سكتت زان. «لكن كيف يا لونا؟ كيف تحول إلى أرنب؟» حبست أنفاسها. كان نهارًا دافئًا وكان الهواء رطبًا ومنعشًا. الأصوات الوحيدة كانت أصوات قرقرة المستنقع الرقيقة. حتى الطيور في الغابة هدأت وكأنها تصغي.

قطَّبت لونا حاجبيها. «لا أعرف. تحوَّل فحسب.»

طوت زان يديها المليئتين بالنتوءات ووضعتهما على شفتيها. قالت: «أرى ذلك.» ركزت على مُؤَن السحر في جسدها ولاحظت بحزن كم هي مُستنزفة. بالطبع كان يمكنها

ملؤها بسهولة بضوء النجوم وضوء القمر وأي سِحر آخر تجده في الجوار، لكن شيئًا ما يُخبرها أن هذا سيكون حلًّا مؤقتًا فحسب.

نظرت إلى لونا وطبعت قبلةً على جبهة الفتاة. «نامي يا حبيبتي. فجدتكِ تريد معرفة بعض الأمور. نامي، نامي، نامي، نامي، نامي.»

ونامت الفتاة. كادت زان تتهاوى من المجهود الذي بذلته لأجل ذلك. لكن لم يكن يُوجَد وقت لهذا. حولت اهتمامها إلى جليرك، محللة تركيب التعويذة التي حولته إلى أرنب، وبدأت في إبطالها شيئًا فشيئًا.

سأل جليرك: «لماذا أريد جزرًا؟» شرحت له الساحرة الموقف. لم يكن جليرك سعيدًا.

انفجرت زان قائلةً: «لا تبدأ حتى في لَومي.»

قال جليرك: «لا يُوجَد ما يُقال. كلانا يُحبها. فهي فرد من أسرتنا. لكن ماذا سنفعل الآن؟»

استجمعت زان نفسها للنهوض على قدمَيها، وأطرافها تُحدِث صريرًا وطقطقة كتروس صدئة.

«أكره فعل هذا، لكنني سأفعله من أجلنا جميعًا. إنها تُمثل خطرًا على نفسها. كما تمثل خطرًا علينا جميعًا. ليس لديها فكرة عما تفعله، ولا أعرف كيف أُعلِّمها. ليس الآن. ليس وهي لا تزال صغيرة ومفعمة بالحيوية ... ومتقلبة.»

وقفت زان، وحركت كتفَيها حركةً دائريةً واستعدت. صنعت فقاعة حول الفتاة وزادت من صلابة الفقاعة حتى صارت شرنقة تُحيط بها؛ مضيفةً خيوطًا براقة واحدًا تلو الآخر حولها.

قال جليرك محذرًا فجأة: «لن تتمكن من التنفس!»

قالت زان: «لن تحتاج لذلك. فهي في حالة خمول. والشرنقة تُبقي قواها السحرية في الداخل.» أغمضت عينيها. «اعتاد زوسيموس فعل هذا. كان يفعله لي. وذلك عندما كنت صغيرة. غالبًا لنفس السبب.»

امتقع وجه جليرك. وجلس متثاقلًا على الأرض وهو يثني ذيله السميك حوله كوسادة. «تذكرت. تذكرت كل شيء فجأة.» هزَّ رأسه أسفًا. «لماذا نَسِيت؟»

زمَّت زان شفتَيها المتغضنتَين. وقالت: «الحزن خطير. أو كان كذلك على الأقل. لا أستطيع أن أتذكر الآن لماذا. أظن أننا أصبحنا مُعتادِين على عدم تذكُّر الأشياء. نحن نترك الأمور تصبح ... ضبابية.»

خمَّن جليرك أنه كان ثمة ما هو أكثر من ذلك. لكنه اعتبر المسألة منتهية.

قالت زان: «سيأتي فيريان بعد قليل، أتوقع هذا. فهو لا يتحمل أن يبقى بمفرده طويلًا جدًّا. تحسبًا فقط، لا تدعه يلمس لونا إن حاول ذلك، وإن كنتُ لا أظن أن هذا سيشكل أهمية.»

اقترب جليرك ووضع يده الضخمة على كتف زان. «لكن، إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

قالت زان: «إلى القلعة القديمة.»

«ولكن ...» حدق فيها جليرك. «لا يُوجَد أي شيء هناك. مجرد بضعة أحجار قديمة.»

قالت زان: «أعرف. أريد فقط أن أبقى هناك. في ذلك المكان. حيث رأيت زوسيموس، ووالدة فيريان، والباقين، لآخِر مرة. أنا بحاجة إلى أن أتذكر أمورًا. حتى وإن كان هذا يجعلني حزينة.»

متَّكِئةً بتثاقل على عصاها، بدأت زان تعرج مبتعدة.

غمغمت مُحدِّثةً نفسها: «أريد أن أتذكَّر الكثير من الأمور. كل شيء. حالًا.»

الفصل العاشر

الساحرة تعثر على بابٍ، وأيضًا، ذكرى

وَلَّت زان ظهرها للمستنقع وسلكت الطريق صاعدةً المنحدر، نحو فوهة البركان التي كان البركان قد أظهر فيها سطحه للسماء منذ زمن بعيد. كان الطريق عبارة عن صخور ضخمة مستوية مدسوسة في الأرض، وكانت متقاربة بعضها من البعض لدرجةِ أن الفواصل بينها لا تكاد تتَّسع لقصاصة ورق.

كانت قد مضت سنوات طويلة منذ آخر مرة سارت فيها زان في هذا الطريق. في الواقع، قرون. ارتجفت. كل شيء بدا مختلفًا جدًّا. لكن ... لا.

في يوم من الأيام، كانت توجد حلقة من الصخور في فناء القلعة. كانت تُحيط بالبرج المركزي الأقدم مثل الحراس، وكانت القلعة تلتف حول كل هذا كثعبانٍ يأكل ذيله. لكن البرج لم يعد موجودًا الآن (مع أن زان لم تكن تعرف إلى أين ذهب) وتحولت القلعة إلى أنقاض، وأطاح البركان بالصخور، أو ابتلعها الزلزال، أو تآكلت بفعل النار والماء والزمن. لم تعد تُوجَد الآن سوى واحدة، وكان من الصعب العثور عليها. إذ كانت تحيط بها حشائش طويلة كستارة سميكة، وتشبث اللبلاب بسطحها. أمضت زان أكثر من نصف يوم تحاول العثور عليها، وبمجرد أن عثرت عليها، قضت ساعةً كاملةً من العمل الشاق، فقط كي تُزيح شبكة اللبلاب المتشبثة بها.

وعندما وصلت إلى الصخرة نفسها، أصيبت بالإحباط. كانت تُوجَد كلمات محفورة على مسطح الصخرة. رسالة بسيطة على كل وجهٍ من وجهيها. كان زوسيموس قد نقشها بنفسه منذ زمن بعيد. كان قد نقشها لها، عندما كانت لا تزال صغيرة.

كُتب على أحد وجهَي الصخرة: «لا تنسَي.»

وكُتب على الوجه الآخر: «أعني ما أقول.»

قالت في نفسها: «لا أنسى ماذا؟»

«ما الذي تقصده يا زوسيموس؟»

لم تكن متأكدة. على الرغم من أن ذكرياتها كانت منقوصة ومتقطعة، فإن الشيء الوحيد الذي تتذكَّره هو ميله إلى الغموض. فقد كان يفترض أنه نظرًا لأن الكلمات والتلميحات الغامضة كانت واضحة له بما يكفي، فلا بد أن تكون مفهومة تمامًا للجميع.

وبعد كل هذه السنوات، تذكرت زان كم كانت تجد هذا مزعجًا وقتئذٍ.

قالت: «يا له من رجل مُحير.»

اقتربت من الصخرة وأسندت جبهتها على الكلمات المنقوشة عميقًا، وكأن الصخرة قد تكون زوسيموس نفسه.

قالت، وهي تشعر بمشاعر جياشة لم تشعر بها منذ خمسمائة عام تقريبًا: «آه يا زوسيموس. أنا آسفة. لقد نسيت. لم أقصد هذا ولكن ...»

ضربتها موجة السحر كجلمود صخر ساقط، دافعةً إيَّاها إلى الوراء. هوت بصوت ارتطام إلى الأرض على وركَيها اللذَين كانا يُحدثان صريرًا. حدقت في الصخرة فاغرة فاها.

قالت في نفسها: «الصخرة مسحورة! بالطبع!»

ورفعت ناظريها إلى الصخرة في نفس اللحظة التي ظهر فيها شَق في منتصف الصخرة وتحرك الجانبان متأرجحَين نحو الداخل، وكأنهما درفتا بابين صخريَّتان كبيرتان.

قالت زان في نفسها: «ليس مثل درفتي بابين صخريتين. بل هما بالفعل درفتا باب صخريتان.»

بدا شكل الصخرة ثابتًا كمدخل بابٍ يفضي إلى السماء الزرقاء، لكن المدخل نفسه كان يفضي إلى ممرٍّ مُظلم حيث تختفي مجموعة درجات حجرية في الظلام.

وفي لمح البصر، تذكرت زان ذلك اليوم. كانت في الثالثة عشرة من عمرها وكانت منبهرة للغاية بمهارتها السحرية. وأخذ مُعلمها — الذي كان يومًا ما يتَّسِم بالقوة والعنفوان — يضعُف ويتلاشى يومًا بعد يوم.

قال لها حينئذٍ: «احذري من حزنكِ.» كان هرمًا جدًّا حينذاك. هَرِمًا لدرجة لا تُصدَّق. كان، بكل ما فيه من أضلعٍ وعظام وجلد متجعد بالكامل، أشبه بالجُدجُد. «حزنكِ خطير. لا تنسَي أنها لا تزال بالجوار.» وهكذا تجرَّعت زان حينئذٍ أحزانها. وذكرياتها أيضًا. ودفنت كليهما عميقًا جدًّا لدرجة أنها لن تجدهما أبدًا. أو هكذا ظنَّت.

لكنها الآن تذكرت القلعة، نعم تذكرت! تذكرت غرابتها وسهولة تفتُّتها. وممرَّاتها السخيفة. والأشخاص الذين كانوا يعيشون فيها؛ ليس السحرة والعلماء فحسب، بل

الطهاة والكتبة والمساعدون أيضًا. تذكرت كيف تشتتوا في الغابة عندما ثار البركان. تذكرت كيف ألقت تعويذاتٍ واقيةً على كلٍّ منهم — في الواقع، على كلٍّ منهم عدا واحد — وابتهلت أن تصمد كل تعويذة أثناء هروبهم. تذكرت كيف أخفى زوسيموس القلعة داخل كل صخرة في حلقة الصخور. كل صخرة عبارة عن باب. «القلعة نفسها، وأبواب مختلفة، لا تَنسَي، أنا أعني ما أقول.»

حين كانت في الثالثة عشرة، قالت: «لن أنسى.»

«بالتأكيد ستنسين يا زان. ألا تعرفين نفسكِ؟» كان هَرِمًا جدًّا حينذاك. كيف أصبح هَرِمًا إلى هذا الحد؟ كان فعليًّا يذبُل ويستحيل رمادًا. «ولكن لا داعي للقلق. لقد وضعتُ ذلك في التعويذة. والآن إذا لم تُمانعي يا عزيزتي. لقد كنتُ ممتنًّا لمعرفتكِ، ومتحسرًا على معرفتكِ، وكنت أجد نفسي أضحك على الرغم منِّي كل يوم كنا فيه معًا. لكن كل ذلك صار الآن من الماضي. ولا بد أن نفترق أنا وأنتِ. عليَّ أن أحمي عدة آلاف من الأشخاص من ذلك البركان المدمر، وآمُل حقًّا أن تكوني على يقين من أنهم سيكونون ممتنين لذلك دائمًا، أستكونين كذلك يا عزيزتي؟» هزَّ رأسه بأسًى. «ما هذا الذي أقوله؟ بالتأكيد لن تكوني كذلك.» واختفى هو و«التنينة الهائلة» في الدخان، وغاصا في قلب الجبل، حيث منعا ثوران البركان، وأجبراه على خمود غير مُستقر.

ورحل كلاهما للأبد.

لم تفعل زان أي شيء كي تحمي ذكراه، أو كي تُفسِّر ما فعله.

وبالفعل، خلال عام، لم تكن تكاد تتذكره. لم يخطر على ذهنها مطلقًا أن تجد هذا غريبًا، فالجزء منها الذي كان من شأنه أن يجده غريبًا كان في مكان بعيد آخر. ضائعًا في المستنقع.

أمعنت النظر في كآبة القلعة المخفية. كانت عظامها تؤلمها والأفكار تتزاحم في ذهنها.

لماذا كانت الذكريات تتوارى منها؟ ولماذا أخفى زوسيموس القلعة؟

لم تكن تعلم، لكنها كانت متأكدة من أنها ستجد الجواب. طرقت بالعصا على الأرض ثلاث مرات حتى نتج عن ذلك ضوء كافٍ لإنارة الظلام. وسارت إلى داخل الصخرة.

الفصل الحادي عشر

الساحرة تتوصل إلى قرار

جمعت زان كتبًا بمقدار حمل ذراع من القلعة المتهدِّمة وحملتها معها إلى ورشتها. كتبًا وخرائط وأوراقًا ودفاتر. مخططاتٍ. وصفاتٍ. رسوماتٍ. لتسعة أيام، لم تنم ولم تأكل. بقِيَت لونا في شرنقتها. ثابتة في المكان. وثابتة في الزمان أيضًا. لم تكن تتنفس. ولم تكن تفكر. كانت ببساطة مُعطَّلة. كلما نظر إليها جليرك، شعر بطعنةٍ حادة في قلبه. تساءل عما إذا كان ذلك سيترك أثرًا.

لم يكن يحتاج إلى التساؤل. بالتأكيد سيترك أثرًا.

قالت زان من وراء الباب المقفول: «لا يمكنك الدخول. لا بد أن أُركِّز.» بعد ذلك سمِعها تغمغم في الداخل.

ليلة تلو ليلة، أخذ جليرك يُطل عبر نوافذ الورشة، يراقب زان وهي تضيء شموعها وتتصفح بنظراتٍ سريعة مئات الكتب المفتوحة والوثائق، مدوِّنةً ملاحظاتٍ على لفيفة من الورق التي ازداد طولها أكثر فأكثر ساعةً بعد ساعة، ومتمتمة طوال الوقت. هزَّت رأسها. وكانت تهمس بتعويذات داخل صناديق من الرصاص، وتغلق الصندوق بسرعة في اللحظة التي تنطق فيها التعويذة وتجلس فوق الغطاء كي تُبقي التعويذة بالداخل. بعد ذلك، كانت تفتح الصندوق بحذَر وتُلقي نظرةً خاطفةً بداخله، وهي تأخذ أنفاسًا عميقة من أنفها وهي تفعل ذلك.

كانت تقول: «قرفة. وملح. الكثير من الرياح في التعويذة.» ثم تُدَوِّن ذلك.

أو تقول: «الميثان. لا نفع منه. ستطير بالخطأ. كما أنها ستكون قابلة للاشتعال. أكثر من الطبيعي.»

أو تقول: «هل هو الكبريت؟ يا إلهي. ما الذي تحاولين فعله يا امرأة؟ أتحاولين قتل الطفلة المسكينة؟» شطبت العديد من الأشياء من قائمتها.

سأل فيريان: «هل أُصيبت العمة زان بالجنون؟»

«لا يا صديقي. ولكن وجدت نفسها في مأزق أكبر مما توقعت. وهي غير معتادة على ألا تعرف ماذا تفعل. وهذا يُخيفها. وكما قال «الشاعر»:

«الأحمق، عندما لا يجد تحت قدميه
أرضًا صلبةً، يقفز
من قمة جبل،
إلى نجم محترق،
إلى فضاء مُدلَهِمٍّ بعيد.
والعالِم،
حين يُحرَم من أوراقه،
ومن ريشته،
ومن مجلداته الثقيلة،
يسقط.
ولا يعثر عليه أحد».»

سأل فيريان: «هل هذه قصيدة حقيقية؟»

قال جليرك: «بالطبع قصيدة حقيقية.»

«لكن من كتبها، يا جليرك؟»

أغمض جليرك عينيه. ««الشاعر». «المستنقع». «العالم». وأنا. في الواقع، كلهم نفس الشيء.»

لكنه ما كان ليشرح ما كان يقصده.

وأخيرًا، فتحت زان أبواب الورشة على مصراعيها، وبدا على وجهها نظرة رضا مشوبة بالتجهُّم. أوضحت لجليرك المتشكك وهي ترسم دائرةً كبيرة على الأرض بالطبشور، تاركةً فتحة لتمر عبرها: «كما ترى.» ورسمت ثلاث عشرة علامة على مسافاتٍ متساوية حول محيط الدائرة واستخدمت هذه العلامات لتصِل نقاط نجمة مكونة من ثلاث عشرة

نقطة. «في النهاية، كل ما نفعله هو ضبط ساعة. وكل يوم يدقُّ كطنين ترسٍ منتظم، هل تفهم؟»

هزَّ جليرك رأسه نفيًا. فهو لم يفهم.

وضعت زان علاماتٍ تدلُّ على الوقت على امتداد محيط الدائرة شبه المكتملة؛ منظمة ومرتبة ترتيبًا تصاعديًّا. «إنها دورة مُدَّتها ثلاثة عشر عامًا. هذا كل ما ستسمح به التعويذة. وأخشى أن تكون المدة أقلَّ من ذلك في حالتنا؛ فالآلية كلها تتزامن مع تكوينها البيولوجي. ولا أستطع أن أفعل الكثير حيال ذلك. فهي بالفعل في الخامسة من عمرها، لذا سيضبط المنبه نفسَه على خمسة، وسيَدُقُّ عندما تبلُغ الثالثة عشرة.»

أغمض جليرك عينَيه نصف إغماضة. لم يبدُ له أيٌّ مما قالته منطقيًّا على الإطلاق. بالطبع، السحر نفسه كان يبدو دومًا غير منطقيٍّ لوحش المستنقع. لم يُذكَر السحر في الأغنية التي صنعت العالم، لكنه وصل إلى العالم متأخرًا جدًّا، في الضوء المنبعث من النجوم والقمر. دائمًا ما كان يشعُر بأن السحر يُمثل له ضيفًا متطفلًا غير مرغوب فيه. وكان جليرك يُفَضِّل الشعر أكثر بكثير.

«سأستخدم نفس مبدأ الشرنقة الواقية التي تنام فيها. كل ذلك السحر محفوظ بداخل الشرنقة. لكن في هذه الحالة سيبقى داخل الفتاة. عند ناصيتها، خلف منتصف جبهتها. يُمكنني أن أبقيه مكبوتًا وصغيرًا. كأنه حبَّة رمل. كل هذه القوة في حبَّة رمل. هل يمكنك أن تتخيل هذا؟»

لم ينبس جليرك ببنت شفة. حدق في الطفلة التي بين ذراعَيه. لم تكن تتحرك.

قال: «ألن ...». كان صوته غليظًا. تنحنح وتابع مرة أخرى. «لن يُتلِف هذا ... أشياء، أليس كذلك؟ أعتقد أن عقلها يُعجبني. لا أريد أن أراه متضررًا.»

قالت زان بنبرة مُعَنِّفة: «يا له من هراء. سيكون مخُّها بخير تمامًا. على الأقل أنا متأكدة من أنه سيكون بخير.»

«زان!»

«حسنًا أنا أمزح! بالطبع ستكون بخير. هذا ببساطة سيمنحنا بعض الوقت حتى نتأكد من أنها على درايةٍ بما تفعله بسحرها بمجرد أن يُطلَق له العنان. هي تحتاج إلى تعليم. تحتاج إلى الإلمام بمحتويات تلك الكتب الموجودة هناك. تحتاج إلى فهم حركات النجوم وأصل الكون وما تقتضيه الطيبة. تحتاج إلى الإلمام بالرياضيات والشعر. لا بد أن تطرح أسئلة. لا بد أن تسعى إلى الفهم. لا بد أن تتعرَّف على قوانين السبب والنتيجة

والعواقب غير المقصودة. لا بد أن تتعلَّم الرحمة والفضول والخَشيَة. كل هذه الأشياء. علينا أن نعلمها يا جليرك. ثلاثتنا جميعًا. إنها مسئولية كبيرة.»

أصبح الهواء في الغرفة ثقيلًا فجأة. أصدرت صوت نخير وهي تُمرر الطبشور لرسم الحواف الأخيرة للنجمة المكوَّنة من ثلاثة عشر رأسًا. حتى جليرك الذي لم يكن ليتأثر عادةً، وجد نفسه متعرقًا ومصابًا بالغثيان.

قال جليرك: «وماذا عنكِ؟ هل سيتوقف تدفق سحرِك؟»

هزت زان كتفَيها. «سيبطُؤ، أتوقع هذا.» زمَّت شفتَيها. «ستقِلُّ سرعته شيئًا فشيئًا فشيئًا. وعندما تبلغ الثالثة عشرة، ستتدفَّق كامل قوايَ السحرية خارجةً. لن يعودَ لديَّ سحر. سأصبح وعاءً فارغًا ليس فيه ما يحرك هذه العظام الهَرِمة. وبعدئذٍ سأفنى.» كان صوت زان هادئًا وناعمًا، مثل سطح المُستنقع، وجميل كجمال المستنقع. شعَرَ جليرك بألمٍ في صدره. حاولت زان أن تبتسِم. «ومع ذلك، إذا كان بوسعي الاختيار، فأُفَضِّل أن أتركها يتيمةً «بعد» أن أُعلِّمها بعض الأمور. وأربيها تربيةً صالحة. وأُعِدُّها. وأُفَضِّل أن أموت في الحال بدلًا من أن تخور قوايَ مثل زوسيموس.»

قال جليرك: «الموت دائمًا ما يأتي بغتة.» كان قد بدأ يشعر بحكةٍ في عينَيه. «حتى عندما لا يكون كذلك.» أراد أن يضمَّ زان بين ذراعَيه الثالثة والرابعة، لكنه كان يعلم أن الساحرة لن تسمح بذلك، لذا، بدلًا من ذلك، ضمَّ لونا أكثر إليه، بينما أخذت زان تفكُّ الشرنقة السحرية. راحت الفتاة تضغط على شفتَيها بضع مرات واستكانت في صدره الرطب، باعثةً فيه الدفء. لمع شعرُها الأسود الفاحم كسماء الليل. ونامت نومًا عميقًا. نظر جليرك إلى الشكل على الأرض. كان لا يزال يُوجَد ممر كي يعبُر من خلاله هو والطفلة. بمجرد أن تصبح لونا في مكانها ويصبح جليرك خارج الإطار الطباشيري، ستكمل زان الدائرة وستبدأ التعويذة.

تردد.

قال: «هل أنتِ متأكدة يا زان؟ هل أنتِ متأكدة تمام التأكد؟»

«نعم. بفرض أنني فعلت هذا بطريقة صحيحة، فإن بذرة السحر ستؤتي ثمارها في عيد ميلادها الثالث عشر. لا نعرف اليوم تحديدًا، بالطبع، لكن يُمكننا التخمين. سيكون هذا هو اليوم الذي سيأتي فيه سحرها. وعندئذٍ سأموت. هذا يكفي. لقد تجاوزتُ أي حصة منطقية من الحياة على هذه الأرض. ويعتريني فضول شديد لمعرفة ما يحدث بعد ذلك. هيا. دعنا نبدأ.»

وفاحت في الهواء رائحة اللبن والعرق وخَبْز الخُبز. ثم روائح توابل ثقيلة وسحجات بالرُّكَب وشعر مبلول. ثم رائحة عضلات عاملة، وجلد مُغطًى بالصابون، وبِرك جبلية صافية. وشيء آخر أيضًا. رائحة ترابية قاتمة وغريبة.

وصرخت لونا، مرةً واحدة.

وشعر جليرك بشرخ في قلبه، شرخ رقيق كخطٍّ مرسوم بقلَم رصاص. ضغط بأياديه الأربعة على صدره، محاولًا أن يحفظه من أن ينشقَّ نصفَين.

الفصل الثاني عشر

الطفلة يُحكى لها عن «المستنقع»

«لا أيتها الطفلة. لا تعيش الساحرة في «المستنقع». ما الذي تقولينه! كل الأشياء الجميلة تأتي من «المستنقع». من أين إذًا سنجمع سيقان الزيرين وأزهار الزيرين وثمار الزيرين؟ من أين سأجمع السبانخ المائية والأسماك التي تتغذى على الوحل من أجل غدائكِ أو بيض البط أو بيض الضفادع من أجل الإفطار. لولا «المستنقع» لما وجَد والداكِ عملًا ولمتِّ جوعًا.

علاوة على ذلك، إذا كانت الساحرة تعيش في «المستنقع»، لكنتُ رأيتُها.

حسنًا، لا. بالطبع لم أرَ «المستنقع» بالكامل. لم يفعل ذلك أحد. يُغطي «المستنقع» نصف العالم، وتغطي الغابة النصف الآخر. الجميع يعرف هذا.

لكن لو كانت الساحرة في «المستنقع»، كنت سأرى تموُّج الماء الناتج عن خطواتها الملعونة. كنت سأسمع نباتات البوص تهمس باسمها. لو كانت الساحرة في «المستنقع»، كان سيلفظُها للخارج كما يلفظ المُحتضَر أنفاسَه الأخيرة.

بالإضافة إلى ذلك، «المستنقع» يُحبنا. ولطالما أحبَّنا. لقد تكوَّن هذا العالم من «المستنقع». كل جبل، وكل شجرة، وكل صخرة وكل حيوان وحشرة سريعة. حتى الريح نَبَعَتْ من أحلام «المستنقع».

حسنًا، بالتأكيد تعرفين هذه القصة. الجميع يعرف هذه القصة.

حسنًا. سأخبركِ بها إن كان لا بد أن تسمعيها مرة أخرى.

في البداية، لم يكن يوجد سوى «مستنقع»، و«مستنقع»، و«مستنقع». لم يكن يُوجَد بشَر. ولم تكن تُوجَد أسماك. ولم تكن تُوجَد طيور أو وحوش أو جبال أو غابة أو سماء.

كان «المستنقع» كل شيء، ولم يُوجَد سوى «المستنقع».

مضى طين «المستنقع» من أحد طرفَي الدُّنيا إلى الطرف الآخر. حدثت بها انحناءات وتعرُّجات على مر الزمان. لم تكن تُوجَد كلمات، ولم يكن يُوجَد تعلم، ولم تكن تُوجَد

موسيقى أو شِعر أو فِكر. لم تكن تُوجَد سوى تنهيدة «المستنقع»، وصوت اهتزاز ماء «المستنقع» والحفيف الأزلي للبوص.

كان «المستنقع» وحيدًا. أراد عينين كي يرى بهما العالم. وأراد ظهرًا قويًّا يحمل به نفسه من مكان لآخر. أراد قدمين كي يسير بهما ويدَين كي يلمس بهما وفمًا كي يستطيع الغناء.

وهكذا خلق «المستنقع» جسدًا: وحشًا هائلًا استطاع النهوض من المستنقع على قدمَيه الكبيرتَين الممتلئتَين بالوحل. كان «الوحش» هو «المستنقع»، و«المستنقع» هو «الوحش». أحب «الوحش» «المستنقع» وأحب «المستنقع» «الوحش»، تمامًا كما يعجب الإنسان بصورته في بركة ماء راكدة وينظر إليها بحنو. كان صدر «الوحش» ممتلئًا بالرحمة الدافئة الداعمة للحياة. شعر بأن وميض الحب يشعُّ للخارج. أراد «الوحش» كلماتٍ كي يُعبر بها عما شعر به.

وهكذا وُجِدَت كلمات.

وأراد «الوحش» أن تنسجِم الكلمات معًا بحيث تُفسِّر المعنى الذي أراده. ففتح فمه وخرجت منه قصيدة.

قال «الوحش»: «مستديرة وصفراء، صفراء ومستديرة»، وهكذا ولدت الشمس، مدلاة فوق الرُّءوسِ مباشرةً.

قال «الوحش»: «زرقاء وبيضاء وسوداء ورمادية، ودفقة من ألوان زاهية عند الفجر.» فوُلِدَت السماء.

غنَّى «الوحش»: «صرير الخشب ونعومة الطحالب وحفيف نباتات خضراء مختلفة.» فظهرت الغابات.

كل شيء ترينه وكل شيء تعرفينه ظهر للوجود على يد «المستنقع». «المستنقع» يحبنا ونحن نحبُّه.

تقولين إن الساحرة في «المستنقع»؟ يا إلهي! لم أسمع شيئًا أسخف من هذا طوال حياتي.»

الفصل الثالث عشر

أنتين يذهب في زيارة

لدى أخوات النجمة دائمًا صبيٌّ مُتدرب، دائمًا ولد صغير. حسنًا، لم يكن صبيًّا متدربًا بقدْر ما كان، في الواقع، خادمًا. كانوا يُعينون الصبيَّ في سن التاسعة ويُبقونه إلى أن يُطرَد مع ملاحظة واحدة.

كلُّ صبيٍّ كان يتسلَّم الملاحظة نفسها. في كل مرة الملاحظة نفسها.

كانت الملاحظة تقول: «لقد كانت لدَينا آمال عظيمة، لكنه خيَّب آمالنا.»

بعض الصبية لم يخدموا سوى أسبوعٍ أو اثنين. سمع أنتين عن صبيٍّ من المدرسة لم يقضِ سوى يومٍ واحد. كان يُطلَب من معظمهم ترك الخدمة في سنِّ الثانية عشرة، مباشرةً بعدما يكونون قد بدءوا يشعرون بالراحة. بمجرد أن يُصبحوا على درايةٍ بكمية المعارف التي يُمكنهم تعلُّمها في مكتبات «البرج» ويصبحوا متعطشين إليها، كانوا يُطرَدون.

كان أنتين في سن الثانية عشرة عندما تسلَّمَ الملاحظة الخاصة به، بعد يومٍ واحد من حصوله على امتيازات المكتبة (بعد سنوات من الإلحاح في طلبها). كانت ضربةً ساحقة.

عاشت «أخوات النجمة» في «البرج»، وهو مبنًى ضخم يُزعج العين ويشوِّش العقل. ينتصب البرج في مركز «المحمية»، مُلقيًا بظلِّه في كل مكان.

تحتفِظ «أخوات النجمة» بمخازن المؤن والمكتبات المُلحقة والأسلحة في طوابق لا تنتهي تحت الأرض. خُصِّصت غُرَف من أجل تجليد الكتب وخلط الأعشاب والتدريب على المبارزة بالسيف والتدريب على القتال بالأيدي. كانت «أخوات النجمة» يتَّسِمن بالمهارة في جميع اللغات المعروفة، وعلم الفلك، وفن صناعة السموم، والرقص، والتعدين والفنون القتالية، وفن الزخرفة بالقصاصات (الديكوباج)، ويتمتَّعن بمعرفة أدقِّ تفاصيل فنون القتل. فوق سطح الأرض، كان يُوجد مكان إقامة «الأخوات» البسيط (ثلاث لكل غرفة)، ومساحات للاجتماع والتأمُّل، وزنازين مَنيعة، وغرفة تعذيب، ومرصد للأجرام السماوية.

كل هذه الأماكن كانت متصلة ببعضها داخل هيكل معقد من الممرات ذات الزوايا الغريبة والدرجات المتقاطعة الملتفَّة حول نفسها من باطن المبنى وحتى أعماقه السحيقة، كما تلتف إلى أن تصل إلى قمته فوق المرصد وتعود. إذا كان هناك شخص أحمق بما يكفي لدخول المبنى دون تصريح، فسيقضي أيامًا يتجول فيه دون أن يعثر على مخرج.

خلال السنوات التي قضاها أنتين في «البرج»، كان بوسعِهِ أن يسمع أصوات نعير «الأخوات» في غُرَف التدريب، وكان بوسعه أن يسمع أصوات نحيبٍ متقطعةً من الزنازين وغرفة التعذيب، كما كان بوسعه أن يسمع انغماس «الأخوات» في مناقشات حامية الوطيس حول عِلم النجوم والتركيب الكيميائي لثمار الزيرين أو معنى قصيدة مثيرة للجدل جدًّا. كان بوسعه أن يسمع «الأخوات» يتغنَّينَ وهن يطحنَّ الدقيق أو يَغلين الأعشاب أو يَسننَّ سكاكينهن. تعلم أن يكتُب ما يُملى عليه، وتنظيف المراحيض، وإعداد الطاولات، وتقديم وجبة غداء مُمتازة، وأتقن فنَّ تقطيع الخبز إلى شرائح. وتعلم متطلبات إعداد إبريقٍ ممتاز من الشاي، والتفاصيل الدقيقة لإعداد الشطائر وكيفية الوقوف بثباتٍ تامٍّ في ركنٍ من أركان الغرفة والاستماع إلى محادثة، وتذكُّر التفاصيل كلها دون أن يجعل المُتحدِّثين يُلاحظون وجوده على الإطلاق. وكثيرًا ما أثنت «الأخوات» عليه أثناء فترة وجوده في «البرج»، وامتدحن حُسن خطِّه وسُرعته وسلوكه المهذب. لكن هذا لم يكن كافيًا. لم يكن كافيًا على الإطلاق. فكلَّما تعلَّم أكثر، أدرك أن أمامه المزيدَ كي يتعلَّمه. كانت تُوجَد هناك حصيلة هائلة من المعرفة داخل المجلدات المغبرة المرصوصة فوق أرفف المكتبات، وكان أنتين مُتعطشًا لأن ينهل منها جميعًا. لكن لم يُسمَح له بأن ينهلَ منها. عمل بجد. وبذل قصارى جهده. وحاول ألا يفكر في الكتب.

ومع ذلك، عاد في أحد الأيام إلى غرفته ووجد حقائبه قد حُزمت. ثبتت «الأخوات» ملاحظةً على قميصه وأرسلوه إلى أُمِّه. كانت الملاحظة تقول: «لقد كانت لدَينا آمالٌ عظيمة، لكنه خيَّب آمالنا.»

لم يتمكن من تجاوُزِ هذا مطلقًا.

الآن، بصفته «حكيمًا تحت التدريب»، كان من المفترض أن يكون في قاعة المجلس، يُعِد جلسات الاستماع، لكنه ببساطة لم يستطع. بعدما اختلق الأعذار، مُجددًا، بشأن عدم حضور «يوم التضحية»، لاحظ أنتين اختلافًا واضحًا في علاقة الأُلفة بينه وبين الحكماء. وجد مزيدًا من الغمغمة. وكثرت النظرات الجانبية. والأدهى من ذلك كله، أن خاله رفض حتى أن ينظر إليه.

لم يكن أنتين قد وطِئ «البرج» منذ أيام تدريبه، لكنه شعر أنه آن الأوان كي يزور «الأخوات»، اللاتي كنَّ بالنسبة له عائلة مؤقتة، على الرغم من غرابتهن وتحفظهن ودمويتهن التي لا يمكن إنكارها. ولكن هذا لم يكن يُشكل فارقًا. فالعائلة تظل هي العائلة، هكذا قال لنفسه وهو يسير لأعلى نحو الباب المصنوع من البلوط ثم يطرق الباب.

(ثمة سبب آخر للزيارة بالتأكيد. لكن أنتين لم يكن يستطيع أن يعترِف به ولو حتى لنفسه. وكان هذا السبب يجعله يرتعش.)

أجاب أخوه الصغير الطرق على الباب. اسمه رووك. كان أنفه يسيل كالمعتاد، وكان شعره أطول مما كان عليه حين رآه أنتين آخِر مرة، منذ عام.

قال رووك: «هل أنت هُنا كي تصحبني إلى البيت؟» وكان صوته خليطًا من الأمل والخجل. «هل خيبتُ آمالهم أنا أيضًا؟»

قال أنتين، وهو يحكُّ رأس أخيه الأصغر وكأنه كلب حسَن السلوك: «من الرائع أن أراك يا رووك. لا. أنت هنا منذ سنة واحدة فقط. لديك مُتسع من الوقت كي تُخيب آمالهم. هل الأخت إجنيشا موجودة؟ أودُّ أن أتحدث معها.»

ارتعش رووك ولم يلُمْه أنتين على ذلك. فقد كانت الأخت إجنيشا امرأة جبارة. ومرعبة. لكن أنتين كان دومًا على علاقة طيبة معها وبدت مُولَعة به دائمًا. وكانت «الأخوات» الأخريات على يقينٍ من أنه كان يعلم كم أن هذا أمر نادر. اصطحب رووك أخاه الأكبر لغرفة مكتب «رئيسة الأخوات»، مع أنه كان يستطيع الوصول إليها مغمض العينين. إذ كان يعرف كل خطوة، وكل شقٍّ صخري في الجدران العتيقة، وكل لوح خشبي يُصدر صريرًا في الأرضية. كان، بعد كل هذه السنوات، لا يزال يحلم بالعودة إلى «البرج» مرة أخرى.

قالت الأخت إجنيشا من مكتبها: «أنتين!» كانت، حسبما بدا، تُترجِم نصوصًا ذات صلة بالنباتات. كان شغف الأخت إجنيشا الأكبر هو النباتات. كان مكتبها ممتلئًا بنباتات من كل الأوصاف، مُعظمها أتى من أكثر المناطق غموضًا في الغابة أو المُستنقع، لكن بعضها جاء من جميع أنحاء العالم عن طريق تجَّار مُتخصصين في المدن الموجودة على الطرف الآخر من «الطريق».

قالت إجنيشا، وهي تنهض من مكتبها وتقطع الغرفة التي تفوح منها رائحة عطر ثقيل كي تضع رأس أنتين بين يدَيها القويتَين الخشنَتَين: «عجبًا، يا فتاي العزيز.» ربَّتت برفق على خدَّيه لكن يدها كانت لا تزال تلسع. «لقد أصبحتَ اليوم أكثر وسامةً بكثير مما كنت عليه حينما أرسلناك إلى البيت.»

قال أنتين، يُراوده نفس الشعور بالخجل لمجرد التفكير في ذلك اليوم المقيت الذي ترك فيه «البرج» مع ملاحظة: «أشكرك أيتها القائدة.»

«اجلس، من فضلك.» نظرت إلى خارج الباب وصاحت بصوتٍ مرتفع جدًّا. نادت رووك: «يا ولد! يا ولد، هل تسمعني؟»

صاح رووك بصوت كالصرير: «نعم أيتها القائدة» وهو يندفع عبر مدخل الغرفة ويتعثر في عتبة الباب.

لم تكن إجنيشا مسرورة بذلك. «نُريد شاي اللافندر وبسكويت بزهور الزيرين.» نظرت إلى الصبي نظرةً قاسية، فركض بعيدًا وكأن نمرًا يركض خلفه.

تنهدت الأخت إجنيشا. «يؤسِفني أن أقول إن أخاك يفتقر إلى مهاراتك. هذا مؤسف. كانت لدَينا آمال كبيرة.» أشارت لأنتين أن يجلس على أحد الكراسي؛ كان مُغطًّى بنوع شائك من النباتات المتسلقة. لكن أنتين جلس عليه عَلَى أَيِّ حَال، محاولًا أن يتجاهل الوخز في ساقَيه. جلست الأخت إجنيشا قُبالته وانحنت مُتفحصةً وجهه.

«أخبِرني يا عزيزي، هل تزوَّجْت؟»

قال أنتين، وقد احمرَّ وجهه خجلًا: «لا يا سيدتي. ما زلتُ بَعدُ صغيرًا».

طقطقت الأخت إجنيشا بلسانها على سقف حنكها. «لكن تعشق فتاةً ما. يُمكنني أن أتبين ذلك. لا يمكنك أن تُخفي أي شيءٍ عني، أيها الصبي العزيز. إياك حتى أن تحاول.» حاول أنتين ألا يُفكر في الفتاة التي كانت في مدرسته. إيثين. كانت في مكانٍ ما في هذا البرج. لكنه فقدها، ولم يكن يُمكنه فعل شيء حيال ذلك.

قال متهربًا: «مهامِّي مع المجلس لا تُتيح لي الكثير من الوقت.» وهو ما كان صحيحًا.

قالت وهي تلوِّح بيدها: «بالطبع، بالطبع. المجلس.» بدا لأنتين أنها قالت الكلمة بنبرةٍ تنطوي على بعض الاستهزاء. لكنها بعد ذلك عطست قليلًا، وافترض أنه حتمًا تخيل ذلك.

«لم يمضِ على كوني «حكيمًا تحت التدريب» سوى خمس سنوات، لكنني أتعلم ...» توقف فجأة. واختتم كلامه بصوت مكتوم، قائلًا: «كثيرًا».

تردَّد صوت بداخله: «الرضيعة على الأرض.

المرأة تصرخ من العوارض الخشبية.»

مهما حاول، لم يتمكن بعد من طرد تلك المشاهد من رأسه. ولا رد المجلس على أسئلته. ما الذي دعاهم إلى التعامُل مع أسئلته بهذه الاستهانة؟ لم يكن لدى أنتين أي فكرة.

مالت الأخت إجنيشا برأسها على أحد الجانبين ونظرت إليه نظرةً متفحصةً. «بصراحة، أيها الصبي العزيز جدًّا، لقد صُعِقتُ من اتخاذك قرار الانضمام لتلك الهيئة، وأُقر بأنني افترضتُ أنه لم يكن قرارك على الإطلاق، وإنما قرار ... أُمك الرائعة.» جعَّدت شفتَيها في امتعاض، وكأنها تتناول شيئًا حامضًا.

كان هذا صحيحًا. كان صحيحًا تمامًا. لم يكن الانضمام للمجلس اختيار أنتين على الإطلاق. لو كان الأمر بيده لاختار أن يكون نجَّارًا. ولقد قال هذا لأُمِّه كثيرًا، كثيرًا ومطولًا، لكنها لم تستمع إليه.

تابعت الأخت إجنيشا: «النجارة، كان هذا سيكون تخميني. فقد كنتَ دومًا تميل إليها»، ولم تلاحِظ الصدمة على وجه أنتين لأنها كانت، على ما بدا، قد قرأت ما كان يجول بخاطره.

«أنتِ ...»

ابتسمت مُضيِّقة عينيها: «حسنًا، أنا أعرف القليل، أيها الشاب.» وسَّعَت فتحتَي أنفها ورمشت بعينَيها. «ستندهش.»

تعثَّر رووك وهو يدخل حاملًا الشاي والبسكويت، وتمكن من سكْب الشاي ورمْيِ البسكويت في حجر أخيه. رمقَتْهُ الأخت إجنيشا بنظرةٍ حادة كنصل السكين، فاندفع إلى خارج الغرفة في ذُعر، وكأنه ينزف بالفعل.

قالت الأخت إجنيشا، وهي ترتشف من كوب الشاي بابتسامة: «والآن. ما الذي يُمكنني أن أفعله من أجلك؟»

قال أنتين، على الرغم من أن فمه كان مُمتلئًا بالبسكويت: «حسنًا. لقد أردتُ الزيارة فحسب. فأنا لم آتِ منذُ وقتٍ طويل. أنتِ تعلمين هذا. جئتُ للتواصل. والاطمئنان على أخبارِك.»

تردد صوتٌ بداخله: «الرضيعة على الأرض.

الأم تصرخ.

يا إلهي، ماذا لو وصل للرضيعة كائن آخَر قبل الساحرة؟ ماذا سيحدُث لنا عندئذٍ؟

يا إلهي، لماذا يجب الاستمرار في هذا؟ لماذا لا يُوقِفه أحد؟»

ابتسمت إجنيشا. وقالت «كاذب»، فطأطأ أنتين رأسه. ضغطت على ركبتِه بحنان. قالت، ملطِّفةً: «لا تخجل أيها الفتى المسكين. لستَ الوحيد الذي يتمنَّى أن يحملق ويُحدق في الحيوان الموضوع في القفص. أفكر في فرض رسم دخول.»

احتج أنتين، قائلًا: «أوه. لا، أنا ...»

أسكتَتْه بإشارة من يدِها. «لا داعي. أنا متفهمة تمامًا. هي طائر نادر. لغز محير. نافورة أحزان.» تنهَّدت تنهيدة خفيفة، وارتجف جانِبا شفتَيها، كطرف لسان ثعبان. رفع أنتين حاجبَيه.

سأل أنتين: «هل يُمكن أن تُعَالَج؟»

ضحكت الأخت إجنيشا. «آه، يا عزيزي أنتين! لا يُوجَد علاج للحزن.» انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة، وكأن هذا كان أفضل خبر.

ألحَّ أنتين، قائلًا: «بالتأكيد. ولكن، لا يُمكن أن يدوم للأبد. فكثيرون جدًّا من قومِنا فقدوا أطفالَهم. وليس حزن الجميع كهذا الحزن.»

زمَّت شفتَيها كنايةً عن الاستهجان. «لا. لا ليس كذلك. جنونها هو الذي يُعَظِّم حزنها. أو جنونها نابع من حزنها. أو ربما هو أمر مُختلف تمامًا. هذا يجعل منها مادةً شَيِّقةً للدراسة. أنا بالفعل أُقدِّر وجودها في «برجنا» الحبيب. نحن نستفيد استفادةً جيدة من المعرفة التي نحصل عليها من ملاحظة عقلها. فالمعرفة في النهاية سلعة لا تُقدَّر بثمن.» لاحظ أنتين أن خدَّي «رئيسة الأخوات» كانا مُتورِّدين أكثر قليلًا مما كانا عليه آخر مرة كان فيها في «البرج». «ولكن صدقًا، أيها الصبي العزيز، مع أن هذه السيدة العجوز، تُقدِّر الاهتمام من شابٍّ وسيم، لستَ في حاجةٍ للتمسُّك بالرسميات معي. يومًا ما يا عزيزي، ستنال عضويةً كاملةً في المجلس. كل ما عليك فعله أن تطلُب من الصبي الموجود عند الباب أن يُريك أي مسجونٍ تودُّ رؤيته. تلك هي القاعدة المتبعة.» رمقته ببرود. لكن هذا لم يدُم طويلًا. وسرعان ما منحت أنتين ابتسامةً دافئة. «هيا تعالَ أيها الحكيم الصغير.»

نهضت وسارت نحو الباب دون أن تُصدِر صوتًا. تبِعها أنتين، يمشي مُتثاقلًا وحذاؤه يُحدِث جلبةً على الأرضية.

على الرغم من أن زنازين السجن كانت فوقهما بطابقٍ واحد، تطلَّب الصعود إلى هناك أربع سلالم. اختلس أنتين النظر من غرفةٍ إلى أخرى، على أمَلِ أن يلمح إيثين، الفتاة التي عرفها من المدرسة. رأى العديد من العضوات اللاتي ترهبن لكنه لم يرَها. حاول ألا يشعُر بخيبة الأمل.

كانت درجات السلالم تلتفُّ يمينًا ويسارًا وتنحدِر في دوَّامةٍ ضيقة إلى حافة الغرفة الرئيسية في طابق السجن. كانت الغرفة المركزية عبارة عن مساحة دائرية ليس بها

نوافذ، وبها ثلاث «أخوات» يجلسْنَ في المنتصف بالضبط على كراسي موضوعة على شكل مثلث ضيق بحيث كانت كل واحدة تُولي ظهرها للأُخرَيَين، وتضع كل واحدة منهن قوسًا على حِجرها.

نظرت الأخت إجنيشا نظرةً آمِرةً إلى أقرب «أخت». وأشارت بحركةٍ من رأسها نحو أحد الأبواب.

«دعيه يدخل لرؤية رقم خمسة. سيطرق الباب عندما يكون مُستعدًّا للمُغادرة. حاذري أن تُصيبيه بغير قصد.»

ثم بابتسامة، عادت ببصرِها إلى أنتين وعانقَتْه.

قالت، بوجهٍ بشوش: «حسنًا، سأذهب»، ومضت عائدةً إلى السُّلَّم الحلزوني بينما نهضت أقرب الأخوات وفتحت الباب المكتوب عليه الرقم «٥».

التقت عيناها بعينَي أنتين وهزَّت كتفَيها بلا مبالاة.

«لن تُقَدِّم لك الكثير. كان علينا أن نُبقِيَها في أوضاعٍ خاصة كي نُبقِيَها هادئة. وتعين علينا أن نحلق شعرها الجميل لأنها لم تتوقَّف عن محاولة شدِّه وتقطيعه.» تفحَّصَتْه من أعلى لأسفل. «أنت لا تحمل معك أي أوراق. أليس كذلك؟»

رفع أنتين حاجبيه. «أوراق؟ لا. لماذا؟»

زَمَّت «الأخت» شفتيها في امتعاضٍ فصنعتا خطًّا رفيعًا. وقالت: «غير مسموح بحيازة الأوراق.»

«لمَ لا؟»

صار وجه «الأخت» خاليًا من أي تعبير. صار جامدًا كيدٍ داخل قفاز. قالت: «سترى.» وفتحت الباب.

كانت الغرفة عبارة عن فوضى من الأوراق. كانت السجينة قد مزقت الأوراق وطوتها ولفَّتْها وهدَّبَتها مكونة عدة آلاف من الطيور الورقية، من كل الأشكال والأحجام. كانت تُوجَد بجعات ورقية في الزاوية، وطيور بلشون ورقية على الكرسي، وطيور طنانة ورقية صغيرة تتدلى من السقف. وبطَّات ورقية وطيور أبو الحناء ورقية وطيور سنونو ورقية ويمام ورقي.

للوهلة الأولى، صُدم أنتين مما رأى. كان الورق غاليًا. غاليًا جدًّا. كان يوجد صناع ورق في المدينة يصنعون حزمًا جميلة من أوراق الكتابة من خليط من لباب الخشب وعشبة البِرك والكتان البري وزهور الزيرين، لكن معظمها كان يباع للتجار الذين يأخذونها إلى

الطرف الآخر من الغابة. وعندما كان أي شخص من «المحمية» يدون أي شيء، كان هذا يأتي بعد قدرٍ كبير من التفكير والتأمل والتخطيط.

أما هنا، فكانت تقبع هذه المرأة المجنونة. كانت تُهدِر الورق. لم يستطع أنتين أن يخفي صدمته.

ومع هذا، لم يكن الأمر برمته سيئًا.

كانت الطيور المصنوعة مُعقدة ومفصَّلة على نحوٍ مدهش. ازدحمت الأرضية بالطيور الورقية، كما تراكمت فوق السرير، وكانت تطلُّ من دُرجَي خزانة السرير الصغيرة. ولم يكن يمكنه إنكار أن هذه الطيور الورقية كانت «جميلة جدًّا». كانت «جميلة جدًّا». وضع أنتين يده على قلبه.

همس: «عجبًا.»

كانت السجينة راقدةً على السرير، تغطُّ في النوم، لكنها استيقظت على صوته. فتَمَطَّت ببطءٍ شديد. وببطءٍ شديد، وضعت مرفقَيْها تحت جسدها ومالت على جانبها قليلًا قليلًا.

بصعوبة شديدة تعرَّف عليها أنتين. كانت قد فقدت شعرها الأسود الجميل، الذي حُلق بالكامل، وكذلك فقدت التوهُّج الذي كان يشعُّ من عينَيها، وتورُّدَ خدَّيها. وضمرت شفتاها وأصبحتا مُتدلِّيتَين وكأنهما أثقل من أن يتماسكا، وكان خداها شاحبين وباهتين. حتى الشامة الهلالية على جبهتها كانت مجرد أثر لما كانت عليه في السابق، كأنها بقعة رماد على جبينها. كانت يداها الصغيرتان الماهرتان مُغطَّاتَين بقصاصات صغيرة — قال أنتين في نفسه إنها ربما كانت قصاصات ورقية — ولطَّخَت بقعٌ داكنة من الحبر أناملها. تفحصته عيناها من أعلى لأسفل، ومن أسفل لأعلى، ومن اليمين إلى اليسار، لكنها لم تتعرف عليه. ولم تتمكن من تحديد نواياه.

قالت ببطءٍ: «هل أعرفك؟»

أجاب أنتين: «لا يا سيدتي.»

قالت: «أنت تبدو» — وابتلعت ريقها — «مألوفًا.» بدا وكأن كل كلمة كانت تُسحَب من بئر عميقة جدًّا.

تلفت أنتين حوله. كانت تُوجَد طاولة صغيرة عليها مزيد من الأوراق، لكن هذه الأوراق كان مرسومًا عليها. كانت عليها خرائط غريبة ومُحيرة تحتوي على كلمات غير مفهومة له وعلامات لم يعرفها. وجميع هذه الأوراق كانت تحتوي على عبارة واحدة مكتوبة على الركن السفلي الأيمن منها: «إنها هُنا؛ إنها هُنا؛ إنها هُنا».

تساءل أنتين في نفسه: «من التي هُنا؟»

«أنا عضو في مجلس الحكماء يا سيدتي. في الواقع، يمكنكِ القول إنني عضو مؤقت. «حكيم تحت التدريب».»

قالت «حسنًا» وتراجعت وتمدَّدَت على السرير مرة أخرى محدقةً في السقف بوجهٍ خالٍ من التعابير. «إنه أنت. أنا أتذكرك. هل جئتَ لتسخر منِّي أنت أيضًا؟»

أغمضت عينَيها وضحكت.

تراجع أنتين خطوةً للخلف. وشعر بقشعريرة تسري في جسده لدى سماعه صوت ضحكتها، وكأن شخصًا صَبَّ ماءً باردًا ببطءٍ على ظهره. رفع ناظريه إلى الطيور الورقية المعلقة من السقف. والغريب أن جميعها كانت تتدلَّى مما يُشبه خصلات من شعر أسود مموج طويل. والأغرب من ذلك: أنها كانت جميعًا تنظر نحوه. هل كانت تنظر نحوه من قبل؟

بدأ كفا أنتين يتعرَّقان.

قالت ببطءٍ شديد جدًّا، وهي تضع كل كلمة بجوار الكلمة السابقة، كمن يُكوِّن خطًّا مُستقيمًا طويلًا من الأحجار المستديرة الثقيلة «لا بد أن تُخبر خالك، أنه مخطئ. إنها هُنا. وهي فظيعة.»

كان مكتوبًا على الخريطة: «إنها هُنا.»

«إنها هُنا.»

«إنها هُنا.»

«إنها هُنا.»

لكن ماذا كان يعني ذلك؟

سأل أنتين، مُكرَهًا: «مَن موجودة أين؟» لماذا كان يتحدث إليها؟ ذكر نفسه: «لا يمكن للمرء أن يجادل المجنون بالمنطق. لا يمكن فعل هذا.» أصدرت الطيور الورقية حفيفًا فوق رأسه. فقال أنتين في نفسه: «لا بد أنها الرياح.»

قالت: «الطفلة التي أخذها! طفلتي!» أطلقت ضحكة جوفاء وتابعت: «لم تمت. يظن خالك أنها ماتت. خالك مخطئ.»

«لماذا يظن أنها ماتت؟ لا أحد يعرف ما تفعله الساحرة بالأطفال.» ارتعدت فرائصه مرة أخرى. كان صوت حفيف مُرتجف صدر على يَساره كخفقان أجنحةٍ ورقية. التفت لكن لم يكن شيء يتحرك. سمِعَه مرة أخرى على يمينه. ومجددًا التفت. ولم يكن شيء يتحرك.

قالت الأم بينما تحاول جاهدة الوقوف على قدمَيها: «هذا كل ما أعرفه.» بدأت الطيور الورقية ترتفع وتدور.

قال أنتين لنفسه: «إنها الرياح لا أكثر.»

«أعرف أين هي.»

قال أنتين لنفسه: «أنا أتوهم أشياء.»

«أعرف ما فعلتم.»

قال أنتين لنفسه: «شيء ما يزحف نزولًا على رقبتي. يا إلهي. إنه طائر طنان. و... آاااه!»

انقض غراب ورقي عبر الغرفة، وضرب بجناحه خدَّ أنتين، مُسببًا فيه جرحًا قطعيًّا ينزف.

كان أنتين مذهولًا لدرجة أنه لم يتمكن من أن يصيح.

«ولكن لا يهم. فيوم الحساب قادم. إنه قادم. إنه قادم. وهو يوشك على أن يحل.»

أغمضت عينَيها وتمايلت. كان من الواضح أنها مجنونة. بالفعل، كان الجنون يخيم عليها كسحابة، ورأى أنتين أنه يتعين عليه الذهاب، خشية أن تُصيبه بالعدوى. طرق الباب بعنف، لكنه لم يُحدث صوتًا. صاح مُناديًا على «الأخوات»: «دعوني أخرج»، لكن بدا أن صوته كان يتلاشى في اللحظة التي خرج فيها من فمِه. شعر بأن كلماته ترتطم بالأرض عند قدمَيه. هل أُصيب بعدوى الجنون؟ هل يمكن أن يحدث شيء كهذا؟ اختلطت الطيور الورقية وتجمَّعت واحتشدت. وارتفعت في موجات كبيرة.

صرخ عندما اتجه طائر السنونو الورقي صوب عينيه وعضت بجعتان ورقيتان قدميه: «رجاءً!» أخذ يركل ويضرب بيدَيه، لكن الطيور الورقية ظلت تقترب.

قالت الأم: «تبدو صبيًّا لطيفًا. اختر لك وظيفةً أخرى. تلك هي نصيحتي لك.» زحفت عائدةً إلى السرير.

طرق أنتين الباب بعنفٍ مجددًا. ومن جديد كان طرقه بلا صوت.

هاجت الطيور وأصدرت نعيقًا وصراخًا حادًّا. وسَنَّت أجنحتها الورقية كالسكاكين. واحتشدت مصدرةً همهمات هائلة؛ وانتفخت وانكمشت ثم انتفخت من جديد. تراجعت الطيور إلى الخلف استعدادًا للهجوم. غطَّى أنتين وجهه بيدَيه.

ثم انقضت عليه.

الفصل الرابع عشر

ثمة تَبِعات

عندما استيقظت لونا، شعرت بأنها مختلفة. لم تعرف السبب. رقدت على سريرها وقتًا طويلًا، تستمع إلى تغريد الطيور. لم تفهم ماذا كانت تقول. هزت رأسها. لماذا يتعين عليها أن تفهمها أصلًا؟ هذه مجرد طيور. وضعت يدَيها على وجهها. واستمعت للطيور مرة أخرى.

قالت جهرًا: «لا أحد يُمكنه التحدث إلى الطيور.» وهذا صحيح. لماذا إذن بدا وكأن الأمر لم يكن كذلك. حطَّ طائر حسون زاهي الألوان على عتبة النافذة وغرد بعذوبة، وشعرت لونا بأن قلبها سينفطِر. وبالفعل انفطر قلبها قليلًا، في هذه اللحظة تحديدًا. وضعت يدَيها على عينيها وأدركت أنها كانت تبكي، على الرغم من أنها لم تكن تعرف السبب.

قالت بصوتٍ مرتفع، وهي تلاحظ القليل من التذبذُب والحشرجة في صوتها: «سخيفة. يا لسخافتكِ يا لونا.» كانت أسخف فتاة. الجميع كان يقول هذا.

تلفتت حولها. كان فيريان يستلقي متكورًا عند نهاية سريرها. كان ذلك معتادًا. إذ كان يُحب النوم على سريرها، مع أن جدتها غالبًا ما كانت تمنع ذلك. لم تعرف لونا السبب.

على الأقل كانت «تظن» أنها لا تعرف السبب. لكنها شعرت في قرارة نفسها أنها ربما كانت تعرف في يوم من الأيام. لكنها لا تتذكر متى.

كانت جدتها نائمةً في سريرها على الجانب الآخر من الغرفة. وكان وحش المستنقع ممددًا على الأرضية، يُصدر شخيرًا هائلًا.

قالت لونا في نفسها: «هذا غريب.» لم تتمكن من تذكُّر مرة واحدة نام فيها جليرك على الأرضية. أو في الداخل. أو غير مغمور في المستنقع. هزت لونا رأسها. رفعت كتفَيها

وقرَّبتهما من أُذنيها، واحدًا ثم الآخر. كان العالم حولها يُطبق عليها بغرابة، كمعطف صار ضيقًا. أيضًا، شعرت بألَمٍ مريع في رأسها، في عُمق رأسها. ضربت جبهتها عدة مرات براحتها، لكن هذا لم يساعدها.

انزلقت لونا من سريرها وخلعت رداء النوم وارتدت فستانًا بجيوب عميقة مَخيطة في كل مكان فيه، لأنها طلبت من جدتها أن تصنعه هكذا. برفق وضعت فيريان النائم في أحد الجيوب، حريصة على ألا تُوقظه. كان سريرها متصلًا بالسقف بحبال وبكرات لإفساح مساحة البيت الصغير خلال اليوم. لكن لونا كانت لا تزال أصغر من أن تستطيع رفعه بمفردها. تركته كما كان وخرجت.

كان الوقت مبكرًا، ولم تكن شمس الصباح قد تجاوزت حافة قمة الجبل. كان الجبل باردًا ورطبًا ونابضًا بالحياة. كانت ثلاثة من الفوهات البركانية تُطلق شرائط رفيعة من الدخان تخرُج بتكاسُل من داخِلِها في صورةٍ لولبية وتمضي متعرجةً نحو السماء. سارت لونا ببطءٍ نحو حافة المستنقع. نظرت إلى قدمَيها العاريتَين اللتين كانتا تغوصان قليلًا في الأرض المكسوة بالطحالب، تاركة آثار أقدام. لم تنبت أي زهور في الأماكن التي وطأتها بقدمَيها.

لكن، من السخف التفكير في هذا، أليس كذلك؟ لماذا ينبت شيء عند موطئ قدمَيها؟ قالت جهرًا: «سخيفة، سخيفة.» ثم شعرت بدوارٍ في رأسها. جلست على الأرض وحدقت في قمة الجبل، وهي لا تفكر في أي شيء على الإطلاق.

وجدت زان لونا جالسةً بمفردها في الخارج، تُحدق في السماء. وهو ما كان غريبًا. ففي المعتاد، كانت الفتاة تستيقظ محدثة زوبعةً، وتعمل على إيقاظ كل من كان بالقُرب منها. لم يكن هذا هو حالها اليوم.

قالت زان في نفسها: «حسنًا. كل شيء مختلف الآن.» وهزت رأسها. واستدركت: «ليس كل شيء.» فمع أن السحر المقيد والملتفَّ بداخلها آمِن الآن، كانت لا تزال الفتاة نفسها. لا تزال «لونا». ببساطة لم يكن يتعين عليهم القلق بشأن تفجُّر سحرها في أنحاء المكان. الآن يمكنها أن تتعلم في سلام. واليوم سيبدءون.

قالت زان: «صباح الخير أيتها الغالية» تاركةً يدَها تنزلق على رأس الفتاة، وراحت تعبث بأصابعها في خصلات شعرها المتموجة الطويلة السوداء. لم تقُل لونا أي شيء. بدت في حالة غَشْيَة. حاولت زان ألا تقلق بشأن هذا.

قال فيريان، وهو يتطلع إليها من الجيب ويتثاءب، ويمدُّ ذراعَيه الصغيرتين للخارج قدر المستطاع: «صباح الخير يا عمتي زان.» نظر حوله مُحدقًا: «لماذا أنا في الخارج؟»

عادت لونا إلى وعيها باختلاجة. ونظرت إلى جدتها وابتسمت. قالت وهي تنهض مسرعة: «جدتي. أشعر وكأنني لم أركِ منذ أيامٍ عديدة.»

بادر فيريان قائلًا: «حسنًا، هذا بسبب ...» لكن زان قاطعته.

وقالت: «صمتًا أيها الصغير.»

تابع فيريان بحماس: «ولكن يا عمتي زان. أريد فقط أن أوضح أن ...»

«كفَّ عن الثرثرة، أيها التنين السخيف. اغرب عن وجهي. اذهب وابحث عن صديقك الوحش.»

ساعدت زانُ لونا على النهوض وأخذتها من يدِها وانطلقت بها مبتعدة.

سألت لونا: «ولكن إلى أين نذهب يا جدتي؟»

قالت زان، وهي ترمق فيريان بنظرةٍ حادة: «إلى الورشة يا عزيزتي.» ثم قالت له: «اذهب وساعد جليرك في إعداد الإفطار.»

«حسنًا يا عمتي زان. أريد فقط أن أُخبر لونا أن ...»

انفجرت فيه قائلةً: «الآن يا فيريان»، واصطحبت لونا بعيدًا.

أحبت لونا ورشة جدتها، وكانت قد تعلَّمت بالفعل أساسيات الميكانيكا، بما في ذلك الرافعات والأوتاد والبكرات والتروس. حتى في تلك السن الصغيرة، كانت لونا تتمتع بعقل ميكانيكي، وكانت لديها القدرة على صنع آلات ميكانيكية صغيرة تطن وتدق. كانت تحبُّ العثور على قِطَع من الخشب يُمكنها تشذيبها وربطها معًا وتشكيلها لتصبح شيئًا آخر.

في الوقت الحالي، كانت زان قد نحَّت كل مشروعات لونا جانبًا في إحدى الزوايا وقسَّمت الورشة كلها إلى أقسام، كل قسم يحتوي على الأطقم الخاصة به من رفوف الكتب ورفوف الأدوات ورفوف المواد. كان يُوجَد قسم للاختراع وقسم للإنشاء وآخر للدراسة العلمية وآخر لدراسة النباتات وآخر لدراسة السحر. على الأرضية كانت قد رسمت العديد من الرسوم بالطبشور.

سألتها لونا: «ماذا حدث هُنا يا جدتي؟»

قالت زان: «لا شيء يا عزيزتي.» لكنها بعد ذلك عَدَلَت عن رأيها. وقالت: «حسنًا، حدثت عدة أشياء بالفعل، لكن لدَينا أشياء أهم علينا أن نتعامل معها أولًا.» جلست على الأرضية قبالة الفتاة، واستجمعت سِحرها في يدِها، وجعلته يطفو فوق أصابعها مباشرةً ككرةٍ مضيئة لامعة.

قالت: «كما ترين يا عزيزتي، السحر يتدفَّق خلالي، من الأرض إلى السماء، لكنه يتجمع داخلي أيضًا. بداخلي. مثل كهرباء استاتيكية. وهو يطقطق ويطن داخل عظامي. عندما أرغب في القليل من الضوء الإضافي، أحكُّ يديَّ معًا هكذا، وأجعل الضوء يدور بين راحتيَّ حتى يُصبح كافيًا كي يطفو حيثما أريده أن يطفو. لقد رأيتِني أفعل هذا مئات المرات من قبل، ولكن لم يسبق لي أن فسَّرتُه. أليس هذا جميلًا يا عزيزتي؟»

لكن لونا لم تفهم. كانت عيناها خامدتَين، كنايةً عن عدم الفهم. وكان وجهها خاليًا من التعبير. كانت تبدو وكأن روحها كانت قد مضت في حالة سُبات، كشجرةٍ في فصل الشتاء. شهقت زان.

وقالت: «لونا؟ هل أنتِ بخير؟ هل أنتِ جائعة؟ لونا؟» لم تكن ثمة أي استجابة. عينان خامدتان. ووجه خالٍ من التعبير. بدا وكأن لونا كانت تُشكِّل فجوةً في الكون. شعرت زان بالذعر يتفشَّى داخل صدرها.

وعاد البريق إلى عينَي الطفلة، كأن الخواء لم يحدث على الإطلاق. قالت: «جدتي، هل يُمكنني الحصول على بعض الحلوى؟»

قالت زان: «ماذا؟» وازداد ذُعرها على الرغم من أن البريق عاد إلى عيني الطفلة. وأمعنت النظر.

هزت لونا رأسها كما لو كانت تتخلَّص من ماء في أذنيها. قالت ببطءٍ: «حلوى. أريد شيئًا حلوًا.» عقدت حاجبَيها. وأضافت: «أرجوكِ». واضطرت الساحرة إلى أن تضع يدَها في جيبها وتُخرج حفنةً من التوت المُجفف. مضغته الفتاة بتأنٍّ. وتلفتت حولها.

«لِمَ نحن هُنا يا جدتي؟»

قالت زان: «لقد كنا هنا طوال الوقت.» تفحصت وجه الفتاة بعينَيها. وقالت لنفسها: «ما الذي كان يحدث؟»

«ولكن ما السبب؟» نظرت لونا حولها. وزمَّت شفتَيها. «ألم نكن بالخارج؟» قالت: «أنا لا ...» وأخذ صوتها يتضاءل. «أنا لا أتذكر ...»

«أريد أن أعطيكِ درسك الأول يا عزيزتي.» فبدا القلق على وجه لونا، وتوقفت زان عن الكلام. ووضعت يدَها على خد الفتاة. كانت موجات السحر قد ذهبت. إذا ركزت بشدة، يمكنها أن تشعر بجاذبية هذه الكتلة الكثيفة ملساء وصلدة ومغلفة كحبة جوز. أو مثل بيضة.

قررت أن تجرب مرةً أخرى. «لونا، حبيبتي. هل تعلمين ما هو السحر؟»

مرة أخرى صارت عينا لونا خامدتَين. ولم تتحرك. كانت بالكاد تتنفس. بدا وكأن «شخصية» لونا — بريق عينيها وحركتها وذكاؤها — كانت ببساطة قد تلاشت.

انتظرت زان مرةً أخرى. هذه المرة استغرق الأمر وقتًا أطول كي يعود البريق إلى عيني لونا وكي تعود إلى طبيعتها. نظرت الفتاة إلى جدتها بتعبيرٍ يشي بالفضول. تلفتت إلى يمينها وإلى يسارها. وقطَّبَت حاجبيها.

سألت: «متى أتينا إلى هنا يا جدتي؟ هل نمت؟»

نهضت زان وبدأت تمشي في الغرفة. وتوقفت عند طاولة الاختراعات، متفحصةً التروس والأسلاك والأخشاب والزجاج والكتب التي تحتوي على رسوم وتعليمات معقدة. التقطت ترسًا صغيرًا بإحدى يدَيها وزنبركًا صغيرًا، حادًّا عند الأطراف لدرجة أنه أحدث بقعة دموية على إبهامها، باليد الأخرى. التفتت إلى لونا وتخيَّلَت الآلية الموجودة داخل تلك الفتاة؛ تتحرك بنسقٍ إيقاعي مُتجهة نحو عيد ميلادها الثالث عشر، بانتظامٍ ودون توقف كساعة مضبوطة جيدًا.

أو على الأقل، هكذا كان «يفترض» أن تعمل التعويذة. لم يكن أي شيء في تركيب التعويذة يُشير إلى مثل هذا ... «الخمود». هل أخطأت في التعويذة؟

قررت أن تتبع تكتيكًا مختلفًا.

سألت لونا: «جدتي ماذا تفعلين؟»

قالت زان: «لا شيء يا عزيزتي.» وأسرعت نحو طاولة السحر وأخذت تُجمِّع بلورة زجاجية تتنبأ بالمستقبل، خشب من الأرض وزجاج من أحجار نيزكية منصهرة، وقليل من الماء، وثقب واحد في المنتصف كي يسمح بدخول الهواء. كانت واحدة من أفضل جهودها. لم يبدُ أن لونا حتى رأت تلك البلورة. حارت نظرتها من جانب إلى الآخر. وضعت زان البلورة بينهما ونظرت إلى الفتاة من خلال الثقب.

قالت المرأة العجوز: «أريد أن أحكي لكِ قصة يا لونا.»

قالت لونا: «أنا أحب القصص.» وابتسمت.

قالت زان: «في يوم من الأيام، عثرت ساحرة في الغابة على رضيعة.» وعبر البلورة، رأت كلماتها تطير كالغبار إلى أُذني الفتاة. ورأت الكلمات تنفصل داخل رأسها، فمثلًا كلمة رضيعة تباطأت ثم طارت من مراكز الذاكرة إلى التراكيب الخاصة بالخيال إلى المناطق المعنية بالاستمتاع باللعب بالكلمات التي لها وقعٌ موسيقي في الدماغ. رضيعة، رضيعة، ر-ر-رضي-ع-ع-ة، مرارًا وتكرارًا. وأخذت عينا لونا تزداد قتامة.

قالت زان: «في يوم من الأيام، عندما كنتِ صغيرة جدًّا جدًّا، أخذتكِ للخارج لرؤية النجوم.»

قالت لونا: «نحن نخرج دائمًا لرؤية النجوم. كل ليلة.»

قالت زان: «نعم، نعم. انتبهي. في إحدى الليالي، منذ زمن طويل، جمعتُ ضوء النجوم على أناملي وأطعمته لكِ مثل العسل من قرص الشمع.»

فصارت عينا لونا خامدتَين. هزَّت رأسها كأنها تزيح خيوط عنكبوت. قالت ببطءٍ: «عسل!» وكأن الكلمة نفسها كانت حملًا ثقيلًا.

لم تَعبأ زان بردها. وقالت بإصرار: «بعد ذلك، في ليلة من الليالي، لم تلاحظ جدتكِ القمر البازغ، يتدلى منخفضًا وضخمًا في السماء. ومدَّت يدَيها لتجمع ضوء النجوم، وأعطتكِ ضوء القمر عن طريق الخطأ. وبهذا أصبحتِ مسحورة يا عزيزتي. هذا هو مصدر السحر. أنتِ شربت كثيرًا من القمر، والآن القمر مكتمل بداخِلكِ.»

بدا وكأن التي تجلس على الأرض ليست لونا، وإنما صورة مرسومة لها. إذ لم يطرف لها جفن. كان وجهها ساكنًا كأنما قُدَّ من صخر. لوَّحت زان بيدها أمام وجه الفتاة، ولكن لم يحدث شيء. لا شيء على الإطلاق.

قالت زان: «يا للهول! يا للهول! يا للهول! يا للهول.»

أخذت زان الفتاة بين ذراعيها وهرعت نحو الباب وهي تنشج، وتبحث عن جليرك.

ظلت الفتاة على هذا الحال معظم فترة ما بعد الظهيرة قبل أن تستعيد وعيها بذاتها.

قال جليرك: «حسنًا. الموقف صعب قليلًا.»

انفجرت فيه زان قائلةً: «الأمر ليس كذلك على الإطلاق. أنا متأكدة من أن هذا الأمر مؤقت»، وكأن كلماتها وحدَها يمكن أن تجعل هذا صحيحًا.

لكن الأمر لم يكن مؤقتًا. لقد كان نتيجة لتعويذة زان: كانت الطفلة في الوقت الحالي غير قادرة على تعلُّم أشياء عن السحر. ولم يكن يمكنها أن تسمع عنه، أو أن تتحدث عنه، بل لم يكن يمكنها حتى أن تعرف الكلمة. في كل مرة كانت تستمع فيها لأي شيء له علاقة بالسحر، كان وعيها يختفي وتخبو الجذوة المشتعلة بداخلها وتتلاشى روحها. ولم تكن زان تعرف إن كانت هذه المعرفة تُمتصُّ في نواة دماغها أم تتبدَّد بالكامل.

سأل جليرك: «ماذا سنفعل عندما تبلغ السن المنتظرة؟ كيف ستعلِّمينها عندئذٍ؟»

وقال في سريرته: «لأنكِ بالتأكيد عندئذٍ ستكونين قد رحلتِ. سينفتح سحرها وسيفرغ سحركِ، ولن يتبق لكِ يا عزيزتي زان، يا من بلغ عمركِ خمسمائة سنة، أي قوى سحرية تُبقيكِ على قيد الحياة.» شعر أن شقوق قلبه تزداد عمقًا.

قالت زان بيأس: «ربما لن تكبر أبدًا. ربما تبقى هكذا للأبد، وبذلك لن يتعيَّن عليَّ أن أودِّعها أبدًا. ربما أخطأتُ في التعويذة، وسحرها لن يخرج أبدًا. ربما لم يكن يُوجَد فيها سِحر مطلقًا كي يبدأ.»

قال جليرك: «أنتِ تعلمين أن هذا غير صحيح.»

اعترضت زان: «قد يكون صحيحًا. أنت لا تدري.» توقفت قليلًا، قبل أن تستطرد مرة أخرى. «البديل أكثر حزنًا من أن نتخيَّله.»

بادرها جليرك: «زان ...».

انفجرت قائلةً: «الحزن خطير.» وغادرت غاضبةً.

تكررت هذه المحادثة بينهما مرارًا وتكرارًا، دون أن يصِلا إلى حل. وأخيرًا، رفضت زان أن تُناقش هذا الأمر على الإطلاق.

بدأت زان تقول لنفسها: «الطفلة لم يكن يوجد فيها سِحر.» وكلما قالت زان لنفسها إن ما تقوله قد يكون صحيحًا، كانت تزداد اقتناعًا بأنه صحيح. وحتى إن كانت لونا مسحورة يومًا ما، فإن كل هذه القوى السحرية قد أوقِفت ولن تكون مشكلة. وربما تبقى عالقة للأبد. ربما أصبحت لونا الآن فتاة عادية. «فتاة عادية.» قالتها زان مرارًا وتكرارًا. قالتها مرات كثيرة جدًّا لدرجة الاقتناع بأنها صحيحة. هذا بالضبط ما قالته في «المدن المستقلة» عندما سئلت عنها. قالت: «فتاة عادية.» وقالت لهم إن لونا لديها حساسية من السحر. قالت إنها تُعاني من «البثور». وتعاني من «نوبات.» و«تشعر بحكة في عينيها.» و«اضطرابات في المعدة.» وطلبت من الجميع ألا يذكروا كلمة سِحر بالقرب من الفتاة.

وهكذا، لم يفعل أحد. فدومًا ما كانت نصيحة زان تُنَفَّذ بحذافيرها.

في الوقت نفسه، كان أمام لونا عالم كامل كي تستكشفه؛ العلوم والرياضيات والشعر والفلسفة والفنون. بالتأكيد سيكون ذلك كافيًا. بالتأكيد ستكبر كما تكبر الفتيات، وستظل زان كما كانت؛ زان التي تتمتع بقوى سحرية وتشيخ ببطء ولا تموت. بالتأكيد، لن ترحل زان أبدًا.

قال جليرك مرارًا وتكرارًا: «هذا لا يمكن أن يستمر. لونا بحاجة لأن تعرف ما بداخلها. هي بحاجة لأن تعرف آلية السِّحر. لونا بحاجة لأن تعرف ماهية الموت. هي بحاجة لأن تكون «مستعدة».»

قالت زان: «أنا متأكدة من أنني لا أفهم عمَّ تتحدث. هي مجرد فتاة عادية، حتى لو لم تكن كذلك من قبل، فإنها كذلك الآن بالتأكيد. سحري تجدَّد. ولا أكاد أستخدِمه

على أي حال. لا حاجة لأن نزعجها. لماذا نتحدث عن خسارة وشيكة؟ لماذا نعرضها لهذا الحزن؟ الحزن خطير يا جليرك، هل تتذكَّر؟»

رفع جليرك حاجبَيه. سأل: «لمَ نعتقد ذلك؟»

هزت زان رأسها. «ليست لديَّ أي فكرة.» وبالفعل لم تكن لديها فكرة. كانت تعرف من قبل، لكنها نسيت.

كان من الأسهل أن تنسى.

وهكذا كبرت لونا.

ولم تعرف شيئًا عن ضوء النجوم أو ضوء القمر أو العقدة المحكمة الموجودة خلف ناصيتها. ولم تتذكر شيئًا عن تحويلها جليرك إلى أرنب أو عن الزهور التي تنمو عند موطئ قدمَيها أو عن القوة التي كانت، حتى الآن، تدق بداخلها مع حركة تروسها، وتنبض وتنبض وتنبض دون توقُّف نحو نقطة نهايتها. لم تعرف شيئًا عن بذرة السحر الصلبة الصغيرة التي تستعد لأن تتفتح وتزهر بداخلها.

لم تكن لديها أي فكرة على الإطلاق.

الفصل الخامس عشر

أنتين يكذب

لم تُشفَ الجراح التي سببتها الطيور الورقية. لم تُشفَ تمامًا، على أي حال.

ولولت والدة أنتين: «كانت مجرد أوراق. كيف يمكن أن تُسبب هذه الجروح العميقة؟»

لم تكن مجرد جروح، فالعدوى التي سببتها الجروح كانت أسوأ بكثير. ناهيك عن فقدان كمية كبيرة من الدم. كان أنتين قد رقد على الأرض لمدةٍ طويلة بينما كانت المرأة المجنونة تحاول إيقاف النزيف بالورق، لكنها لم تفعل ذلك بطريقة جيدة. فالأدوية التي أعطتها لها «الأخوات» جعلتها مضطربة وضعيفة. كانت تغيب عن الوعي وتعود مرة أخرى. وعندما جاءت الحارسات لفحصه أخيرًا، كان هو والمرأة المجنونة يرقدان في بركة من الدم، واستغرقن لحظاتٍ حتى عرفنَ لمن منهما هذا الدم تحديدًا.

استشاطت الأم غضبًا، قائلةً: «ولماذا لم يأتين لنجدتكَ حين صرخت؟ لِمَ تركْنَكَ؟»

لم يعرف أحدٌ الإجابة عن هذا السؤال. ادعت «الأخوات» أنه لم تكن لديهن أي فكرة. وأنهن لم يسمعنه. وفيما بعد، نظرة واحدة إلى شحوب وجوههن واحمرار أعينهن كانت كفيلة بجعل الجميع يعتقد أن هذا صحيح.

تهامس الناس قائلين إن أنتين هو من جرح نفسه.

تهامس الناس قائلين إن قصة الطيور الورقية محض خيال. ففي نهاية المطاف، لم يرَ أحدٌ أي طيور. مجرد رزم من الأوراق الملطخة بالدم على الأرض. على أي حال مَن سمع من قبل بطائر ورقي يُهاجم؟

تهامس الناس قائلين إن طفلًا كهذا لا يصلح لأن يكون «حكيمًا تحت التدريب». وفي هذه النقطة، كان أنتين يتفق معهم تمامًا. وعندما شُفِيَت جروحه، كان قد أعلن للمجلس أنه مستقيل. وأن استقالته سارية المفعول فورًا. وبعد أن تحرَّر أنتين من المدرسة، وتحرر من المجلس، ومن تأنيب أُمِّه، أصبح نجَّارًا. وكان بارعًا جدًّا في النجارة.

ونظرًا لأن أعضاء المجلس كانوا يُشعرون بالمسئولية حيال الأذى العميق الذي أصاب أحد أعضائه، وذلك كلما نظروا إلى الندوب العميقة التي غطت وجه الفتى — ناهيك عن إصرار أمِّه — فقد أعطاه المجلس مبلغًا محترمًا من المال تمكَّن من خلاله من الحصول على أخشابٍ نادرة وأدوات ممتازة من التجار الذين كانوا يباشرون أعمالهم عبر «الطريق». (يا إلهي! هذه الندوب! يا إلهي! كم كان وسيمًا! يا للهول! يا لتلك الإمكانيات المفقودة. يا له من أمر مؤسف. يا للأسف الشديد).

تعين على أنتين أن يعمل.

وبسرعة كبيرة، نظرًا لانتشار الحديث عن مهارته وحُسن صنعته على طرفي «الطريق»، تمكن أنتين من تكسُّب عيش كريم يكفي لجعل أُمِّه وإخوته سعداء وراضين. وشيَّد لنفسه بيتًا مستقلًّا، صحيح أنه أصغر حجمًا وأبسط وأكثر تواضعًا، لكنه مع ذلك كان مريحًا.

لكن هذا كان خلافًا لرغبة أُمِّه. فهي لم توافق على رحيله من المجلس، وأخبرته بهذا. لم يكن أخوه رووك يفهم، هو الآخر، لكن اعتراضَهُ جاء مُتأخرًا جدًّا؛ بعد أن طُرد من «البرج» وعاد إلى البيت يجرُّ أذيال الخزي. (وعلى عكس أخيه، لم تحتوِ ملاحظة رووك على الديباجة: «كان لدَينا آمال عظيمة»، بل كانت ببساطة «هذا الصبي خيب آمالنا.» وألقت الأم باللائمة على أنتين.)

لم يكد أنتين يُعير ذلك اهتمامًا. كان يقضي أيامه بعيدًا عن الجميع، يعمل وسط الخشب والمعادن والزيوت. يشعر بحكة نشارة الخشب. وانزلاق الحبيبات تحت أصابعه. كان كل ما يُهمُّه هو أن يصنع شيئًا جميلًا ومكتملًا و«حقيقيًّا». مرت الشهور والسنوات، وأُمُّه لا تزال مُنزعجة منه.

ولولت ذات يومٍ أصرَّت فيه أن يصطحبها إلى السوق: «أي نوع من الأشخاص هذا الذي يترك المجلس؟» ظلَّت تُعاتبه وتلومُهُ وهي تتفحص الأكشاك التي تحتوي على مجموعات مختلفة من الزهور الطبية والتجميلية، وعسل الزيرين ومربى الزيرين وبتلات الزيرين المُجففة، التي يمكن خلطها باللبن ووضعها على الوجه لمنع التجاعيد. لم يكن بمقدور الجميع التسوق من السوق؛ فمعظم الأشخاص كانوا يتَّبِعون نظام المقايضة مع جيرانهم كي لا تكون دواليبهم خاوية تمامًا. وحتى أولئك الذين كان يمكنهم زيارة السوق، لم يكونوا قادرين على شراء أكوام السِّلع التي تُكوِّمها والدة أنتين في سلة تسوُّقها. فكونها الأخت الوحيدة لكبير الحكماء كان أمرًا له مزاياه.

ألقت نظرة متفحصة على بتلات الزيرين المُجففة. ورمقت المرأة الواقفة في الكشك بنظرة صارمة. «منذ متى حُصدت هذه؟ أتجرؤين على الكذب عليَّ!» فشحب وجه بائعة الزهور.

همهمت قائلةً: «لا يُمكنني أن أجزم يا سيدتي.»

رمقتها والدة أنتين بنظرة مُتعالية. «إن لم يكن يُمكنكِ أن تجزمي، إذن لن أدفع ثمنها.» وانتقلت إلى الكشك التالي.

لم يعلق أنتين؛ وإنما ترك نظرَهُ ينجرف لأعلى صوب «البرج»، وهو يُمرِّر أصابعه بسرعة فوق الحفر العميقة والندوب التي تُشوه وجهه، مُتتبعًا أخاديد الندوب كمن يتتبع خريطة.

قالت أمُّه، بينما كانت تتفحص قطعًا من القماش جُلِبَت من الطرف الثاني من الطريق: «حسنًا، لا يسعنا سوى أن نأمُل أنه، بعد أن يلقى مشروع النجارة السخيف نهايته الحتمية، أن يُعيدك خالك الموقر، إن لم يكن عضوًا في المجلس، فعلى الأقل فردًا من موظفيه. ثم، يومًا ما، تُصبح فردًا من الموظفين التابعين لأخيك الصغير. على الأقل لدَيه من الفطنة ما يجعله يستمع إلى كلام أُمِّه!»

طأطأ أنتين رأسه ونخر من أنفه ولم يقل شيئًا. وجد نفسه يشرد نحو كشك بيع الورق. لم يَعُد يلمس الورق إلا نادرًا. إلا إذا لم يكن بوسعه أن يتجنَّب ذلك. ومع ذلك لم يكن يكره الورق. كانت أوراق الزيرين هذه جميلة. ترك أصابعه تنساب فوق رُزم الأوراق وترك عقله ينجرف مع صوت حفيف الأجنحة الورقية التي تطير قبالة واجهة الجبل وتختفي عن الأنظار.

غير أن والدة أنتين كانت مُخطئة بشأن فشله القادم. ظلت ورشة النجارة ناجحة، ليس فقط وسط القِلة القليلة من الأثرياء في «المحمية» و«جمعية التجار» المشهورة بالبخل. ليس هذا فحسب، بل تزايد الطلب، على الجانب الآخر من «الطريق» أيضًا، على منحوتاته وأثاثه والإنشاءات الممتازة التي صنعها. كل شهر كان التجار يصلون بقائمة من الطلبات، وكل شهر كان يتعيَّن على أنتين أن يرفض قبول بعضها، معللًا بلُطف بأنه فردٌ واحد له يَدان فقط ووقته بالطبع محدود.

وعندما كان التجار يسمعون تلك الاعتذارات، كان التجار يعرضون على أنتين مزيدًا من المال مقابل أعماله اليدوية.

وكما شحذ أنتين مهاراته وكما أصبحت عيناه تَشِيان بالصفاء والبراعة وكما ازدادت تصميماته إتقانًا، ازدادت أيضًا شُهرته. وفي غضون خمس سنوات، ذاع صيتُه في مدن لم يكن قد سمع بها من قبل، ناهيك عن أن يفكر في زيارتها. طلب رؤساء بلديات الأماكن البعيدة أن يحظوا بشرَف صُحبته. فكر أنتين مليًّا في الأمر؛ بالطبع فعل. فلم يكن قد سبق له أن غادر «المحمية». ولم يعرف أي شخصٍ غادرها مع أن أُسرته كان يمكنها بالتأكيد تحمُّل تكلفة ذلك. ولكن كان مجرد فكرة فعل أي شيءٍ آخر سوى النوم والعمل، كقراءة كتاب من حينٍ لِآخَرَ بجانب المدفأة، كان يفوق مَقدرته. أحيانًا كان يشعر أن العالم من حوله كئيب وأن الهواء المُفعم بالحزن يجثم فوق عقله وجسده ويشوِّش رؤيته كالضباب.

ومع هذا كان راضيًا. إذ كانت معرفة أنتين بأن أعماله اليدوية كانت تنتقِل إلى بيوت جيدة كانت تُرضيه حتى النخاع. كانت إجادته لشيءٍ ما تمنحه شعورًا طيبًا. وعندما ينام، كان غالبًا ما يشعر بالرضا.

الآن كانت أمُّه تُصر على أنها كانت تعلم دائمًا أن ابنها سيحقق نجاحًا عظيمًا، وقالت مرارًا وتكرارًا إنه محظوظ للغاية لأنه هرب من حياة السُّخرة مع هؤلاء العجائز المُملِّين الخَرِفين في المجلس، وأنه من الأفضل بكثير أن يتبع المرء مواهبه والنعم التي حظي بها وما إلى ذلك. وأخبرته أن هذا ما كانت تقوله دائمًا.

قال أنتين وهو يُغالب ابتسامة: «أجل يا أمي. حقًّا كنتِ دائمًا تقولين هذا.»

وعلى هذا الحال، مرت السنوات: ورشة وحيدة؛ وأعمال ممتازة جميلة؛ وزبائن يمدحون عمله ويجْفلون فزعًا حين يلمحون وجهه. في الحقيقة لم تكن حياةً سيئة.

وقفت والدة أنتين في مدخل الورشة في ساعة متأخرة من صباح أحد الأيام، وفتْحَتا أنْفِها تتغضَّنان من أثر نشارة الخشب والرائحة النفَّاذة لزيت ثمرة الزيرين الذي يُعطي الخشب بريقه المميز. كان أنتين قد انتهى لتوِّه من وضع اللمسات المنحوتة الأخيرة على اللوح الأمامي من مهد طفل، نُحِتَت عليه سماء مليئة بنجوم لامعة. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يصنع فيها مهدًا كهذا، ولم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها مصطلح «ابن النجوم»، على الرغم من أنه لم يكن يعرف ما يَعنيه. كان الأشخاص على الجانب الآخر من «الطريق» يتَّسمون بالغرابة. كان الجميع يعرفون هذا، على الرغم من أنه لم يكن أحدٌ قد التقى بهم.

قالت أمُّه وهي تنظر إلى الورشة: «لا بد أن تحضر صبيًّا مساعدًا.» كانت الورشة منظمة جيدًا ومجهزة بالكامل ومريحة. حسنًا، مريحة لبعض الناس. أنتين، على سبيل المثال، كان يشعر براحة تامَّة في ذلك المكان.

قال أنتين وهو يدهن الزيت في منحنى خشبي: «لا أريد مساعدًا.» كانت التعريقات الخشبية تلمع مثل الذهب.

«ستنجز أعمالًا تجاريةً أفضل بوجود أيدٍ عاملة إضافية. إخوتك ...»

أجاب أنتين برفق: «... أغبياء فيما يتعلق بالأخشاب.» وكان مُحقًّا في هذا.

زفرت الأم، قائلةً: «حسنًا. فقط فكِّر إذا ...»

قال أنتين: «أموري على ما يرام كما هي.» وكان محقًّا في هذا أيضًا.

قالت أمُّه: «حسنًا إذن.» أخذت تنقل ثقلها من جانب لآخر. وعدَّلت من انثناء ذيل عباءتها الفضفاضة. كانت تملك وحدَها عباءات أكثر من العباءات التي تملكها أكبر العائلات عددًا. «ماذا عن حياتك يا بني؟ ها أنت ذا تَصنع المهود لأحفاد نساء أخريات، وليس لأحفادي. كيف يُمكنني أن أتحمَّل الخزي المتواصل بسبب رحيلك عن المجلس من دون أن يكون لي حفيد جميل أُداعبه فوق قدميَّ المباركة.»

تهدَّج صوت أمِّه. كان أنتين يعلم أنه في وقتٍ من الأوقات كان بإمكانه أن يتجول في السوق ومعه فتاة تتأبط ذراعَه. لكنه كان وقتئذٍ خجلًا جدًّا، ولم يجرؤ على ذلك. كان أنتين يعلم أن ذلك في الماضي ما كان سيُصبح صعبًا عليه، لو كان قد حاول. كان قد رأى الصور واللوحات التي كانت أُمُّه في ذلك الوقت قد كلفت أحدًا ما برسمِها، وعرف أنه، يومًا ما، كان وسيمًا.

لكن لا يهم. كان ماهرًا في عمله وأحبَّه. هل حقًّا كان يريد المزيد؟

«أنا متأكد من أن رووك سيتزوَّج في يومٍ من الأيام، يا أمي. وين أيضًا وبقية إخوتي سيتزوجون. لا تقلقي. سأصنع لكل واحد من إخوتي مكتبًا وفراش زوجية ومهدًا للأطفال حينما يحين الوقت المناسب. عما قريب سيكون لديكِ أحفاد يتعلقون بالعوارض الخشبية.»

«الأم متعلقة بالعوارض الخشبية. والطفلة بين ذراعيها. يا ويلي! والصراخ.» أغمض أنتين عينَيه بإحكامٍ وحاول طرد هذه الصورة من مخيلته.

«لقد تحدثتُ مع بعض الأمهات الأخريات. ولقد لاحظن باهتمامٍ الحياة التي أسستَها هنا. وهن مهتمَّات بتقديمك إلى بناتهن. ليس إلى أجمل بناتهن، كما تفهم، لكنهن بناتهن على أي حال.»

تنهد أنتين، ونهض وغسل يدَيه.

«شكرًا لكِ يا أمي، لكن لا.» سار عبر الغرفة ومال ليطبع قبلة على خدِّ أمِّه. لاحظ كم أجفلت عندما اقترب أكثر مما يلزم بوجهه المُشوَّه، وجاهد كي لا يدع الأمر يؤلِمه.

«لكن، يا أنتين ...»

«والآن، عليَّ الذهاب.»

«لكن، إلى أين أنت ذاهب؟»

«لديَّ العديد من المهام التي يتعين عليَّ إنجازها.» كانت هذه كذبة. مع كل كذبة يقولها، كانت الكذبة التي تليها تُصبح أسهل. «سأكون في منزِلِكِ في خلال يومين لتناول العشاء. لم أنسَ.» كانت هذه أيضًا كذبة. لم تكن لدَيه أي نية لتناول الطعام في منزل أُسرته، وكان يختلق العديد من الأعذار كي لا يكون في الجوار في آخر لحظة.

قالت: «ربما يتعيَّن عليَّ أن آتي معك. وأن أبقى بصحبتك لأؤنس وحدتك.» كانت تُحبه، بطريقتها. كان أنتين يعلم ذلك.

قال أنتين: «سيكون من الأفضل أن أذهب بمفردي.» ربط عباءته حول كتفَيه وسار مبتعدًا، تاركًا أمَّه خلفه في الظلال.

لزم أنتين الأزقة والدروب الضيقة التي لا يطرقها الكثير من الناس في «المحمية». وعلى الرغم من أن الجو كان صافيًا، شدَّ قلنسوته بإحكام على جبهته كي يواري وجهه. كان أنتين قد لاحظ منذ فترةٍ طويلة مضت أن إخفاءه لنفسه جعل الناس أكثر ارتياحًا وقلَّل من التحديق فيه إلى أدنى درجة. في بعض الأحيان، كان أطفال صغار يطلبون منه في خجل لمسَ ندوبه. لو أن الأهل كانوا في الجوار، حتمًا كانوا سيُبعدون الطفل مُحرَجين، وسينتهي التعامل عند هذا الحد. وفي حالة عدم وجود الأهل، كان من شأن أنتين أن يجلس القرفصاء بِجدِّية وينظر إلى الطفل في عينَيه. وإن لم يُطلق الطفل ساقيه للريح، كان يخلع قلنسوته ويقول: «اذهب.»

قد يسأل أحد الأطفال: «هل تؤلِمك؟»

كان أنتين يقول دائمًا: «ليس اليوم.» وهذه كذبة أخرى. كانت ندوبه تؤلِمه دائمًا. ليس بقدْر ما كانت تؤلِمه يوم حدوثها، أو حتى في الأسبوع الأول من حدوثها. لكنها مع ذلك كانت مؤلمة؛ ألمٌ مُزمن على شيء فُقِد.

كانت لمسة تلك الأصابع الصغيرة، متتبعةً تجعيدات وبروزات الندوب، تجعل صدر أنتين يضيق قليلًا. كان من شأن أنتين أن يقول: «شكرًا لك.» وكان بالفعل يعني ما يقول. في كل مرة.

كان الطفل يُجيب دائمًا: «شكرًا لك.» ويفترق الاثنان؛ يمضي الصغير إلى أهله ويمضي أنتين وحيدًا.

كان تجواله يأخذه دائمًا، سواء كان يودُّ هذا أم لا، إلى قاعدة «البرج». بيته، الذي عاش فيه لفترة قصيرة عجيبة في شبابه. وهو المكان الذي تغيَّرت فيه حياته للأبد. أدخل يدَيه في جيوبه واتَّجه بوجههِ إلى السماء.

قال صوتٌ ما: «عجبًا. ها هو أنتين. عاد لزيارتنا أخيرًا!» كان الصوت لطيفًا جدًّا، ومع ذلك، كما لاحظ أنتين، كان قليلٌ من التذمُّر مدفونًا عميقًا جدًّا في نبرة الصوت حتى إنه كان من الصعب سماعه.

قال مُنحنيًا: «مرحبًا، أيتها الأخت إجنيشا. أنا مندهش من رؤيتكِ بعيدًا عن مكتبكِ. ألم يعُد لفضولكِ سلطان عليكِ أخيرًا؟»

كانت المرة الأولى التي تجاذبا فيها أطراف الحديث وجهًا لوجه منذ أن أُصيب، منذ سنوات مضت. كان التواصل بينهما قد تألَّف من ملاحظات مُقتضبة، ومن المرجح أن إحدى الأخوات كانت تكتب الملاحظات وتُوقِّعها باسم الأخت إجنيشا. لم تكلف نفسها عناء الاطمئنان عليه ولو مرةً واحدة منذ أُصيب. شعر بمرارة في حلقه. وتجرعها كي يمنع نفسه عن التجهُّم.

قالت بطريقةٍ غير متكلفة: «أوه، لا. الفضول لعنة المهرة. أو لعلها المهارة هي لعنة الفضولي. على أي حال، مع الأسف، لستُ أفتقر إلى أي الأمرَين، وهو ما يجعلني مشغولة. لكنني وجدت أن الاهتمام بحديقة الأعشاب الخاصة بي يمنحني قدرًا من الراحة» ورفعت يدَها. «أستمحيك عُذرًا ألا تلمس أيًّا من الأوراق. أو الزهور. وربما ينبغي ألا تلمس التراب أيضًا. ليس بدون قفازات. فكثيرٌ من هذه الأعشاب سامٌّ بدرجةٍ مُميتة. أليست جميلة؟»

قال أنتين: «للغاية.» لكنه لم يكن يُفكر في الأعشاب كثيرًا.

قالت الأخت إجنيشا، وهي تُضيق عينَيها بينما عاد أنتين يُحدِّق لأعلى نحو نافذة الزنزانة التي تعيش فيها المرأة المجنونة: «وما الذي جاء بك إلى هُنا؟»

تنهَّد أنتين. ونظر مرةً أخرى إلى الأخت إجنيشا. تراكَمَ تراب الحديقة فوق قفازَيها. جعل العرقُ وأشعةُ الشمس وجهَها زَلِقًا. نظرت حولَها نظرةً تنمُّ عن التخمة، وكأنها تناولت أروع وجبةٍ في العالم وأصبحت مُمتلئة. ولكن لم يكن من الممكن أن تكون كذلك. فقد كانت تعمل بالخارج. تنحنح أنتين.

قال أنتين: «أردت أن أُخبركِ شخصيًّا أنني لن أتمكن من صُنع المكتب الذي طلبتِه إلا بعد ستة أشهُرٍ أخرى، وربما سنة.» كانت هذه كذبة. فالتصميم كان بسيطًا، والخشب المطلوب كان يمكن جلبُهُ بسهولة من الغابة الموجودة في الجانب الغربي من «المحمية».

قالت الأخت إجنيشا: «هذا هراء. بالطبع يمكنك أن تُجري بعض الترتيبات. «الأخوات» بمثابة عائلة لك.»

هزَّ أنتين رأسه، وعاد بنظَرِه إلى النافذة. لم يكن قد رأى المرأة المجنونة — عن قرب على أي حال — منذ هجوم الطيور. لكنه كان يراها كل ليلةٍ في أحلامه. أحيانًا تكون متعلقة بالعوارض الخشبية. وأحيانًا تكون في زنزانتها. وأحيانًا تمتطي ظهور قطيع من الطيور الورقية وتختفي في جوف الليل.

ابتسم للأخت إجنيشا ابتسامة خفيفة. قال: «عائلة؟ سيدتي، أظن أنكِ قابلتِ عائلتي.»

تظاهرت الأخت إجنيشا بتجاهل التعليق، لكنها زمَّت شفتَيها كي تكبح تجهُّمها.

حدق أنتين مرة أخرى في النافذة. كانت المرأة المجنونة تقِفُ في النافذة الضيقة. كان جسدها أكبر قليلًا من شبَح. رأى يدَيها تمتدُّ إلى القضبان، ورفرف طائر عن كثب، وعشَّش في راحة يدِها. كان الطائر مصنوعًا من الورق. كان بوسعه سماع حفيف الجناحَين من المكان الذي كان واقفًا فيه.

ارتعش أنتين.

قالت الأخت إجنيشا: «إلامَ تنظر؟»

كذب أنتين، قائلًا: «لا شيء. لا أرى شيئًا.»

«أيها الفتى العزيز، هل ثمَّة مشكلة؟»

أطرق إلى الأرض. وقال: «حظًّا موفقًا مع الحديقة.»

«قبل أن تغادر، يا أنتين. لماذا لا تصنع لنا معروفًا، بما أننا لا نستطيع أن نستميلك لنجعلك تستخدِم يديك الماهرتَين لصنع أشياء جميلة، مهما طلبنا مرارًا؟»

«سيدتي، أنا ...»

نادت الأخت إجنيشا: «أنتِ هناك!» وعلى الفور أصبح لصوتِها نبرة أكثر صرامة بكثير. «هل انتهيتِ من التعبئة يا فتاة؟»

«أجل، أيتها الأخت»، جاء الصوت من داخل سقيفة الحديقة — واضحًا ورنانًا مثل الجرس. شعَرَ أنتين بقلبه يدق. قال في نفسه: «ذلك الصوت. أتذكر ذلك الصوت.» لم يكن قد سمع هذا الصوت مُذ أن كانا في المدرسة، منذ سنوات عديدة مضت.

«ممتاز.» التفتت إلى أنتين مرةً أخرى، وقد لانت كلماتها مرةً أخرى. «لدينا مبتدئة اختارت ألا تُجهِد نفسها بحياة الدراسة والتأمُّل السامية، وقررت الرجوع إلى العالم الأكبر. فتاة غبية.»

صُدم أنتين. وتلعثم، قائلًا: «ولكن. ذلك لا يحدث أبدًا!»

«بالفعل. لا يحدث أبدًا. ولن يحدث مرةً أخرى أبدًا. لا بد أنني خُدعت عندما جاءت إلينا أول مرة، تريد أن تنضمَّ إلى أَخَوِيَّتنا. لا بد أن أتمتع بمزيد من حُسن التمييز المرة القادمة.»

خرجت شابة صغيرة من سقيفة الحديقة. كانت ترتدي فستانًا بسيطًا مُربع الشكل، من المرجَّح أنه كان يناسبها عندما دخلت «البرج» لأول مرة، بعد عيد ميلادها الثالث عشر بقليل، لكنها كانت قد صارت أطول وأصبح الفستان بالكاد يُغطي ركبتَيها. وكانت ترتدي حذاءً رجاليًّا عالي الرقبة باليًا ومُرقَّعًا وغير متوازن، لا بد أنها حصلت عليه من أحد البستانيين. ابتسمت، وبدا أن النمش على خدَّيها يلمع.

قالت إيثين بلطف: «مرحبًا يا أنتين. لقد مضى وقتٌ طويل.»

شعر أنتين أن الأرض تَميد من تحت قدمَيه.

التفتت إيثين إلى الأخت إجنيشا. «كان يعرف أحدنا الآخر في المدرسة.»

همس أنتين بصوت مبحوح، وهو يُحني رأسه لأسفل: «لم تتحدَّث إليَّ قط.» آلمته ندوبه. «ولا أي فتاة.»

التمعت عيناها وانفرجت شفتاها عن ابتسامة. «هل كان الأمر كذلك؟ أتذكر شيئًا مختلفًا.» نظرت إليه. نظرت إلى ندوبه. نظرت إليه «مباشرةً». لم تَحِد بنظرها بعيدًا. ولم تجفل. حتى أمُّه أجفلت. أمُّه نفسها أجفلت منه.

قال: «حسنًا. كي أكون منصفًا. لم أكن أتحدث إلى أي فتيات. ما زلت لا أتحدث إلى أي فتيات. لا بد أن تسمعي أُمي وهي تتحدث عن ذلك.»

ضحكت إيثين. شعر أنتين بأنه قد يفقد وعيَه.

«هل يمكنكَ مساعدة هذه الصغيرة التعِسة في حمل مُتعلقاتها؟ فقد مرض إخوتها وتوفي والداها. أودُّ إزالة أي أثر لهذا الإخفاق المهين بأسرع ما يمكن.»

إن كان أي من هذا الكلام قد ضايق إيثين، فإنها لم تُبدِ ذلك. قالت، بصوتها العذب والحلو مثل القشدة: «شكرًا لكِ يا أخت إجنيشا على كل شيء. لقد أصبحتُ أفضل بكثير مما كنت عليه عندما دخلتُ من ذلك الباب.»

انفجرت الأخت إجنيشا، قائلةً: «و«أقل» بكثير مما كان يمكن أن تكوني عليه. يا للشباب!» ورفعت يدَيها إلى أعلى بحركة غاضبة. «إذا كنا لا نستطيع تحمُّلهم، فكيف سيتحملون أنفسهم؟» التفتت إلى أنتين. «ستُساعدني، أليس كذلك؟ لا تتمتع الفتاة بأي تهذيب يجعلها تُظهِر أدنى قدْر ممكن من الأسى إزاء أفعالها.» للحظة صارت عينا «رئيسة الأخوات» قاتمتَين، وكأنها كانت جائعة جدًّا. حدقت وعبست، ثم تلاشت القتامة. ربما كان أنتين يتخيل ذلك. وأردفت: «لا يُمكنني أن أحتمل ثانية أخرى بصحبتها.»

همس أنتين: «حسنًا أيتها الأخت.» وازدرد أنتين لعابه. شعر وكأن رملًا في فمه. وبذل ما في وسعه كي يتمالك نفسه. «أنا في خدمتكِ. دائمًا.»

استدارت الأخت إجنيشا وغادرت وهي تغمغم أثناء سيرها.

تمتمت إيثين قائلةً لأنتين: «لو كنتُ مكانك، كنتُ سأعيد التفكير في موقفي.» فالتفتَ، وابتسمت له ابتسامةً عريضةً أخرى. وقالت: «شكرًا لك على مساعدتي. لقد كنت دائمًا أطيب صبيٍّ عرفتُه في حياتي. هيا. دعنا نخرج من هنا بأسرع ما يمكن. بعد كل هذه السنوات، ما زلت أرتجف من «الأخوات».»

وضعت يدها على ذراع أنتين وقادته لأمتعتها في سقيفة الحديقة. كانت أصابعها غليظة الجلد ويداها قويتين. وشعر أنتين بشيء يرفرف في صدره؛ رعشة في البداية ثم ارتفاع قوي ثم رفرفة، مثل جناحَي طائر يطير عاليًا فوق الغابة، ويقطع صفحة السماء بسرعة.

الفصل السادس عشر

عالم من الورق

لم تستطع المرأة المجنونة في «البرج» تذكُّر اسمها.

ولم تستطع تذكر اسم أي أحد.

ما هو الاسم على أي حال؟ لا يمكنك الإمساك به. ولا يمكنك شمه. لا يمكن أن تهدهده حتى ينام. لا يمكنك أن تهمس له بحبك مرارًا وتكرارًا. يومًا ما كان ثمة اسم تحبه أكثر من كل الأسماء الأخرى. لكنه حلَّق بعيدًا كالطائر. ولا يمكنها إقناعه بالعودة من جديد.

كانت أشياء كثيرة قد طارت بعيدًا. الأسماء. الذكريات. معرفتها لنفسها. كانت تعلم أنها في وقت مضى كانت ذكية. وقوية. وطيبة. ومحبة للآخرين ومحبوبة. في وقت مضى كانت قدماها تلامسان الأرض وكانت أفكارها مرتبة بعناية، واحدة فوق أخرى، في خزانة عقلها. لكن قدميها لم تلامسا الأرض منذ مدة طويلة جدًّا، وحلت محل أفكارها عواصف وزوابع تاركةً خزانات عقلها فارغة. ربما للأبد.

الشيء الوحيد الذي كان يمكنها تذكره هو ملمس الورق. كانت متعطشة للورق. في المساء، كانت تحلم بالملمس الأملس الجاف لرِزم الورق واللسعة المؤلمة للحواف. حلمت بانسكاب الحبر على الأوراق ناصعة البياض. حلمت بطيور من الورق ونجوم من الورق وسماوات من الورق. حلمت بقمر من الورق يخيم على مدن من الورق وغابات من الورق وأشخاص من الورق. عالم من الورق. كون من الورق. حلمت بمحيطات من الحبر وغابات من الريشات ومستنقع لا نهائي من الكلمات. حلمت بكل هذا بوفرة.

لم تحلم بالورق فحسب؛ بل كان لديها أيضًا. لم يكن أحد يعرف كيف. كل يوم، كانت «أخوات النجمة» يدخلن إلى الغرفة ويُزلن الخرائط المرسومة والكلمات المكتوبة دون أن يكلفن أنفسهن عناء القراءة. كانت الأخوات يمزقن كل الأوراق ويكنسنها بعيدًا.

ولكن، كل يوم، كانت تجد نفسها غارقة في الأوراق والريشات والحبر. كانت تحصل على كل ما تريد.

أرادت رسم خريطة. فرسمت خريطة. كانت تراها باهتة كضوء النهار. كتبت: «إنها هُنا. إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.»

سأل الشاب، مرارًا وتكرارًا: «من هي التي هُنا؟» في البداية كانت ملامحه شابة ووجهه جميلًا وصافيًا. بعد ذلك، كان محمرًّا وغاضبًا، وينزف. في النهاية، التأمت الجروح التي سببتها الطيور الورقية وصارت ندوبًا؛ في البداية قرمزية، ثم وردية، ثم بيضاء. شَكَّلَت خريطة. تساءلت المرأة المجنونة عما إذا كان يُمكنه رؤيتها. أو ما إذا فهم ما تعنيه. تساءلت عما إذا كان يمكن لأي شخص أن يفهمها، أم أن تلك الأشياء واضحة لها هي وحدها. هل كانت هي وحدها مجنونة، أم أن العالم أصيب بالجنون معها؟ لم تكن في وضع يسمح لها بأن تجزم. أرادت أن تَسِمَ الشاب بعلامة وتكتب «إنها هُنا» عند نقطة التقاء عظمة الوجنة بشحمة الأذن. أرادت أن تجعله يفهم.

«من التي هُنا؟» كان بوسعها أن تشعر به يسأل هذا السؤال وهو يحدق في «البرج» من الأرض.

أرادت أن تصرخ، قائلةً له: «ألا تفهم؟» لكنها لم تفعل. كانت كلماتها مشوشة. لم تكن تعرف إن كان أي شيء يخرج من فمها له أي معنًى.

كل يوم، كانت تُطلق طيورًا ورقيةً من النافذة. أحيانًا واحدًا. وأحيانًا عشرة. كل طائر به خريطة في قلبه.

«إنها هُنا»، في قلب أبي الحناء.

«إنها هُنا»، في قلب الكركي.

«إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا»، في قلب الصقر وطائر الرفراف والبجعة.

كانت طيورها لا تذهب بعيدًا جدًّا. ليس في البداية. كانت تشاهد من نافذتها أناسًا يَصِلون في الأسفل ويلتقطون هذه الطيور من فوق الأرض في الجوار. وكانت تشاهد هؤلاء الأشخاص يحدقون لأعلى نحو «البرج». وكانت تشاهدهم وهم يهزون رءوسهم. وكانت تسمعهم يتنهدون: «يا للمرأة المسكينة، يا للمرأة المسكينة»، ويتشبثون بأحبائهم بقوة أكبر قليلًا، وكأن الجنون مرضٌ معدٍ. وربما كانوا على حق. ربما كان كذلك.

لم ينظر أحد إلى الكلمات أو الخرائط. كانوا فقط يسحقون الأوراق؛ ربما ليصنعوا منها عجينة ويحولوها إلى ورق جديد. لم يكن بوسع المرأة المجنونة أن تلومهم. فالورق كان غاليًا. أو كان غاليًا على معظم الناس. كانت تحصل عليه بسهولة كبيرة. كل ما كان

عليها فعله هو أن تمد يديها خلال شقوق العالم، فتسحب ورقةً تلو الأخرى. كل ورقة كانت خريطة. وكل ورقة كانت طائرًا. وكل ورقة كانت تُطلق إلى السماء.

كانت تجلس على أرضية زنزانتها. كانت أصابعها تجد الأوراق. وكانت أصابعها تجد الريشات والحبر. لم تسأل كيف. كل ما كانت تفعله هو أن ترسم خريطة. أحيانًا كانت ترسم الخريطة وهي نائمة. كان الشاب يقترب. كانت تشعر بخطوات أقدامه. بعد قليل سيتوقف على مبعدة وسيحدق بالأعلى، وعلامة استفهام تلتف حول قلبه. رأته يكبر من شاب صغير لحرفي لصاحب عملٍ لرجل يقع في الحب. وما زال لديه السؤال نفسه.

ثَنَت الورقة على شكل باز. وجعلتها تستقر في راحة يديها للحظة. وشاهدتها تبدأ في الارتعاش والرفرفة. وتركتها تنطلق في السماء.

أطلت تحدق من النافذة. كان الطائر الورقي أعرج. فقد كانت في عجلة من أمرها ولم تنجز طيَّه جيدًا. هذا الطائر المسكين لن يصمد. هبط على الأرض يكافح بقوة أمام الشاب ذي الندوب في وجهه. توقف الشاب. ودعس عنق الطائر بقدمه. تعاطفًا أم انتقامًا؟ أحيانًا يكون الأمران وجهين لعملة واحدة.

ضغطت المرأة المجنونة بيدها على فمها. كان ملمس أصابعها خفيفًا كالورق. حاولت أن ترى وجهه، لكنه كان محتجبًا في الظل. لم يكن ذلك مهمًّا. كانت تعرف وجهه بقدر ما كانت تعرف وجهها. يمكنها أن تتبع انحناء كل ندبة بأصابعها في الظلام. رأته يتوقف ويفك ثنيات الطائر الورقي ويحدق في الرسوم التي كانت قد رسمتها. رأته يرفع ناظريه نحو «البرج» ثم ببطءٍ يمضيان عبر السماء ثم يستقران على الغابة. ثم عاد ينظر إلى الخريطة.

ضغطت بيدِها على صدرها وشعرت بحزنها؛ كان كثيفًا لا رحمة فيه، مثل ثقب أسود في قلبها يبتلع الضوء. ربما كان كذلك دائمًا. شعرت بأن حياتها في «البرج» لا نهائية. أحيانًا كانت تشعر بأنها أُلقِيَت في السجن منذ بداية العالم.

وفي لمحة شديدة خاطفة كلمح البصر، شعرت بحزنها يتبدَّل.

قال قلبها: «الأمل.»

قالت السماء: «الأمل.»

قال الطائر في يد الشاب وقالت نظرة عينيه: «الأمل.»

همست روحها: «الأمل والنور والحركة. الأمل والتشكل والانصهار. الأمل والحرارة والتنامي. معجزة الجاذبية. معجزة التحوُّل. كل شيء ثمين دُمر وكل شيء ثمين أُنقِذ. الأمل، الأمل، الأمل.»

تبدد حزنها. لم يبقَ إلا الأمل. شعرت وكأنها تشعُّ إلى الخارج، وتملأ «البرج»، بل البلدة، بل العالم بأسره.

وفي تلك اللحظة، سمعت «رئيسة الأخوات» تبكي بتألُّمٍ وحرقة.

الفصل السابع عشر

شرخ في حبة الجوز

ظنت لونا أنها عادية. وظنت أنها محبوبة. كانت مُحقة في أحد الأمرين.

كانت طفلة في الخامسة من عمرها، وبعد ذلك، صارت في السابعة. ولاحقًّا صارت في الحادية عشرة.

قالت لونا في نفسها إنه كان أمرًا رائعًا بالتأكيد، أن يكون المرء في الحادية عشرة. أحبت التناظر في العدد، واللاتناظر فيه. فالعدد ١١ يبدو عددًا زوجيًّا عند النظر إليه، لكنه عمليًّا ليس كذلك؛ فشكله يختلف عن مضمونه. وهو في ذلك مثل حال معظم الذين يبلغون ١١ عامًا، أو هكذا افترضت. كان احتكاكها بأطفال آخرين مقصورًا دائمًا على زيارات جدتها إلى «المدن المستقلة»، وتحديدًا الزيارات التي كان يُسمح للونا بالمجيء فيها. أحيانًا كانت جدتها تذهب بدونها. وكل عام، كانت لونا تجد الأمر مثيرًا للغضب أكثر فأكثر.

في نهاية المطاف، كانت في الحادية عشرة من عمرها. كانت، كالعدد ١١، تجمع بين متناقضات. وكانت مستعدة لأن تكون عدة أشياء في آنٍ واحد؛ طفلة وناضجة وشاعرة ومهندسة وعالمة نباتات وتنينة. وكانت القائمة تمتد. كان حرمانها من الذهاب في «بعض» الرحلات دون الأخرى أمرًا مزعجًا جدًّا. كانت تقول هذا. وتُردِّده كثيرًا. وجهرًا.

عندما تذهب جدتها، كانت لونا تقضي جلَّ وقتها في الورشة. كانت تزخر بكتب حول المعادن والصخور والماء، وكتب حول الزهور والطحالب والنباتات الصالحة للأكل، وكتب حول الوظائف الحيوية للحيوانات والسلوك الحيواني، وتربية الحيوانات، وكتب حول مبادئ الميكانيكا. لكن الكتب المفضلة للونا كانت كتب علم الفلك، لا سيما القمر. أحبت القمر كثيرًا، وأرادت أن تضمه بين ذراعَيها وأن تغني له. أرادت أن تجمع فتات القمر

في وعاء هائل وتشربه جافًّا. كانت تمتلك عقلًا جائعًا، وفضولًا توَّاقًا للمعرفة وموهبةً في الرسم والبناء والتشكيل.

كان لأصابعها عقلها الخاص. «هل ترى يا جليرك؟»، هكذا قالت، وهي تُريه صرصارًا آليًّا مصنوعًا من خشب مُلمَّع وعينين زجاجيتين وأرجلٍ معدنية صغيرة تتصل بزنبركات. كان الصرصار يقفز ويعدو بسرعة ويمد أطرافه ويلتقط أشياءً. بل إنه كان بوسعه أن يُغني. في هذه اللحظة بالذات كانت لونا تضبطه ليفعل ذلك، وبدأ الصرصار في تقليب صفحات كتاب. زوى جليرك ما بين عينيه وجعد أنفه الرطب.

قالت: «إنه يقلب الصفحات. يقلب صفحات الكتاب. هل رأيت من قبل صرصارًا أمهر منه؟»

قال: «لكنه يقلب الصفحات عشوائيًّا. لا يبدو وكأنه «يقرأ» الكتاب. وحتى إن كان يفعل، لن يقرأ بالتزامن معكِ. كيف سيعرف متى يقترب من الصفحة ويقلبها؟» بالطبع، كان يُضايقها لا أكثر. في الحقيقة كان منبهرًا. لكنه أخبرها آلاف المرات أنه لا يمكن أن ينبهر بكل شيء مُبهر تفعله. فقد يجد أن قلبه انتفخ بما يفوق قدرته وأخرجه من العالم ككل.

دعست لونا الأرض بقدمها. «بالطبع لا يمكنه «القراءة». وهو يقلب الصفحات عندما أطلب منه أن يقلب الصفحات.» عقدت ذراعَيها على صدرها ورمقت وحش المستنقع بنظرة تمنَّت أن تكون نظرةً حادة.

قال فيريان محاولًا التهدئة: «أعتقد أن كليكُما مُحقٌّ. أحب الأشياء السخيفة والأشياء الذكية. أحب كل الأشياء.»

قالت الفتاة ووحش المستنقع في آنٍ واحد: «اصمت يا فيريان.»

«إن جعل الصرصار يقلب الصفحة يستغرق وقتًا أطول من الوقت الذي يستغرقه تقليبكِ للصفحة بنفسك. لماذا لا تقلبين الصفحة بنفسكِ ببساطة.» شعر جليرك بالقلق من أن يكون قد تمادى في مزاحه. فحمل لونا بين أذرُعه الأربع ووضعها على كتفه اليمنى. أدارت لونا عينيها في محجريها كناية عن الضيق ونزلت من فوق كتفه.

«لأنه عندئذٍ لن يوجد «صرصار».» شعرت لونا بوخز في صدرها. وشعرت بالوخز في سائر جسدها. وشعرت بالوخز طوال اليوم. سألت: «أين جدتي؟»

قال جليرك: «تعلمين أين هي. ستعود في الأسبوع القادم.»

«أكره الأسبوع القادم. أريدها أن تعود «اليوم».»

«يخبرنا الشاعر أن التبرُّم من الانتظار من صفات الكائنات الدقيقة كالبراغيث وفراخ الضفادع وذباب الفاكهة. أنتِ يا حبيبتي أكبر بكثير من ذبابة فاكهة.»

«وأكره الشاعر أيضًا. فليذهب إلى الجحيم.»

آلمت هذه الكلمات جليرك حتى النخاع. ضغط بأياديه الأربعة على قلبه وتهاوى بقوة على مؤخرته الهائلة، وهو يلفُّ ذيله حول جسده كحركة وقائية. «ما الذي قلتِه للتو؟»

قالت لونا: «أنا أقصد ما أقول.»

رفرف فيريان من الفتاة إلى الوحش ومن الوحش إلى الفتاة. لم يعرف أين يهبط.

قالت لونا وهي تفتح أحد جيوبها الجانبية: «تعالَ يا فيريان. يمكنك أخذ قيلولة، وسأصعد إلى القمة الجبلية لمعرفة ما إذا كان يمكننا رؤية جدتي في رحلتها. يمكننا أن نرى على مسافة بعيدة جدًّا من هُناك.»

«لن يمكنكِ رؤيتها بَعد. ولا حتى بعد أيام.» نظر جليرك إلى الفتاة عن كثب. كان يعتريها شيء ما ... شيء غريب اليوم. لكنه لم يستطع تحديده.

قالت لونا، وهي تدور على عقبيها وتسير في الطريق صاعدةً: «لا يمكنك أبدًا أن تعرف.»

أنشد جليرك بينما كانت تسير: ««ليس للصبر جناح».

«الصبر لا يجري
ولا يهب كالريح ولا ينزلق ولا يرفرف.
الصبر هو ارتفاع أمواج المحيط؛
الصبر هو تنهد الجبل؛
الصبر هو صوت حفيف نباتات «المستنقع»
الصبر هو جوقة النجوم،
تغني أغنية أبدية».»

قالت لونا، دون أن تلتفت: «لستُ مصغيةً إليك». لكنها كانت تسمعه. كان بوسع جليرك أن يستنتج هذا.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه لونا لأسفل المنحدر، كان فيريان قد نام. كان بمقدور ذلك التنين النوم في أي مكان وفي أي وقت. كان خبيرًا في النوم. مدت لونا يدها في جيبها وأعطته ضربة خفيفة. لكنه لم يستيقظ.

تمتمت لونا: «يا للتنانين!» كانت هذه الإجابة للعديد من أسئلتها على الرغم من أن هذا لم يكن منطقيًّا جدًّا. عندما كانت لونا صغيرة، كان فيريان أكبر منها؛ كان ذلك واضحًا. عَلَّمَها العدَّ والجمع والطرح والضرب والقسمة. وعَلَّمَها أن تستخدم الأعداد على نطاق أوسع من الأعداد نفسها، بتطبيقها على مفاهيم أوسع حول الحركة والقوة والمكان والزمان والمنحنيات والدوائر والزنبركات المحكمة.

أما الآن، فكان الأمر مختلفًا. أخذ فيريان يبدو أصغر وأصغر بمرور الأيام. أحيانًا كان يبدو للونا أنه يعود في الزمان إلى الوراء بينما كانت هي ثابتة، ولكن في أحيان أخرى كان يبدو أن العكس هو الصحيح؛ فكان فيريان هو الذي يكون ثابتًا في حين كانت لونا منطلقةً في الزمن إلى الأمام. تساءلت عن سبب هذا.

وكان من شأن جليرك أن يوضح: «إنها طبيعة التنانين!»

وكان من شأن زان أن تتفق معه: «إنها طبيعة التنانين!» وكان كلاهما يهز كتفيه. تَقَرَّر إنها طبيعة التنانين. ما الذي يمكن للمرء أن يفعله؟

لم تفسِّر هذه الإجابة أي شيء. على الأقل لم يحاول فيريان مطلقًا أن ينحرف بالإجابة بعيدًا عن أسئلة لونا الكثيرة أو أن يجيب بإجابات محيرة. أولًا لأنه لم يكن يعرف معنى «إجابات محيرة». وثانيًا لأنه نادرًا ما كان يعرف أي إجابات. إلا إذا كانت هذه متعلقة بالرياضيات. عندئذٍ كان يصير نافورةً من الإجابات. أما في أي أمر آخر، فكان فيريان فحسب، وكان ذلك كافيًا.

بلغت لونا أعلى القمة الجبلية قبل الظهيرة. ثنت أصابعها ووضعتها فوق عينيها وحاولت أن تنظر لأبعد نقطة ممكنة. لم يكن قد سبق لها أن كانت على ارتفاع كهذا من قبل. كانت مندهشة من أن جليرك سمح لها بالذهاب.

كانت «المدن» تقع على الجانب الآخر من الغابة، أسفل المنحدر الجنوبي قليل الانحدار، حيث الأرض مستقرة ومسطحة. حيث لا تعود الأرض تحاول قتلك. وكانت لونا تعرف أنه فيما وراء ذلك توجد مزارع ومزيد من الغابات ومزيد من الجبال وأخيرًا محيط. لكن لونا لم تبعد من قبل إلى ذلك الحد. على الطرف الآخر من الجبل، باتجاه الشمال، لم يكن يوجد سوى غابة، وفيما وراء ذلك كان يُوجَد مُستنقع يُغطي نصف العالم.

قال لها جليرك إن العالم ولِد من ذلك المستنقع.

سألت لونا آلاف المرات: «كيف؟»

قال جليرك في بعض الأحيان: «قصيدة.»

قال في أحيان أخرى: «أغنية.» وبدلًا من أن يفسر لها أكثر، أخبرها أنها ستفهم في يوم من الأيام.

قررت لونا أن جليرك مريع. الجميع مريعون. وأكثر شيء كان مريعًا هو الألم في رأسها الذي يزداد سوءًا كل يوم. جلست على الأرض وأغمضت عينيها. في الظلام خلف أجفانها، كان يمكنها رؤية اللون الأزرق والوميض الفضي عند الحواف، إلى جانب شيء مختلف تمامًا. شيء صلب وكثيف، مثل حبة جوز.

الأدهى من ذلك، أن الشيء بدأ ينبض، وكأنه يحوي عقارب معقدة. «كليك، كليك، كليك.»

قالت لونا في نفسها: «كل دقة تجعلني أقرب إلى التَّتِمَّة.» هزت رأسها. لماذا تظن ذلك؟ لم يكن لديها أي فكرة.

تساءلت «تَتِمَّة ماذا؟» ولكن لم تكن توجد إجابة.

وفجأة، تخيلت منزلًا به ألحفة مخيطة يدويًّا تغطي الكراسي. ورسوم على الحوائط، وبرطمانات بألوان زاهية مرتبة فوق الأرفف في صفوف متناسقة ومغرية. وامرأة بشعر أسود وشامة على شكل هلال على جبهتها. وصوت رجل يدندن. «هل ترين ماما؟ هل ترين ماما، يا عزيزتي؟» أخذ صدى تلك الكلمة يتردَّد في عقلها من أحد جانبَي رأسها إلى الجانب الآخر — «ماما، ماما، ماما» — مرارًا وتكرارًا كبكاء طائر بعيد.

قال فيريان: «لونا؟ لماذا تبكين؟»

قالت لونا، وهي تمسح دموعها: «أنا لا أبكي. وعلى أي حال، أفتقد جدتي فحسب، هذا كل شيء.»

وكان ذلك صحيحًا. كانت بالفعل تفتقدها. مهما وقفت وحدقت من أعلى، فلن يغير هذا من الزمن المُستغرَق للسير من «المدن المستقلة» إلى بيتهم عند قمة البركان الخامد. كان ذلك مؤكدًا. أما عن ذلك المنزل والألحفة والمرأة ذات الشعر الأسود، فقد رأتهم لونا من قبل. لكنها لم تكن تعرف أين.

نظرت لأسفل في اتجاه المستنقع والحظيرة والورشة وبيت الشجرة بنوافذه المستديرة التي تبرز من جانبي جذع الشجرة كعينين مذهولتين لا يرف لهما جفن. وقالت في نفسها: «كان يوجد منزل آخر. وكانت توجد عائلة أخرى. قبل هذا المنزل. وهذه العائلة.» كانت تعرف هذا في قرارة نفسها.

سأل فيريان، بلمحة ألم في صوته: «لونا، ماذا حدث؟»

قالت لونا، وهي تلف يديها حول خصره وتقربه منها: «لا شيء يا فيريان». وقبلت أعلى رأسه. «لا شيء على الإطلاق. أنا أفكر فقط في حبي الجم لعائلتي.»

كانت أول كذبة قالتها في حياتها. على الرغم من أن كلماتها كانت صادقة.

الفصل الثامن عشر

الساحرةُ تُكتَشَف

لم تستطع زان تذكُّر آخر مرة سافرت فيها بهذا البطء الشديد. كان سحرها قد أخذ يتضاءل لسنوات، لكنها لا تنكر أن هذا التضاؤل كان يحدث بسرعة أكبر الآن. يبدو الآن أن السحر قد تقلص إلى قطرات ضئيلة تتدفق عبر قناة ضيقة في عظامها المسامية. ضَعُف بصرها وسمعها وصارت تشعر بألم في خاصرتها (وكذلك قدمها اليسرى وأسفل ظهرها وكتفاها ورسغاها، والمثير للدهشة، أنها صارت تشعر بألم في أنفها). وكانت حالتها على وشك أن تزداد سوءًا. عما قريب، ستمسك بيد لونا للمرة الأخيرة، وتهمس لها بكلمات معبرة عن الحب بصوت مبحوح. كان هذا يفوق احتمالها.

في الحقيقة، لم تكن زان تخشى الموت. ولماذا تخشاه؟ كانت قد ساعدت على تخفيف آلام المئات والآلاف من الأشخاص خلال إعدادهم للرحلة إلى المجهول. وكانت قد رأت بما يكفي من المرات في وجوه الأشخاص في لحظاتهم الأخيرة، نظرات دهشة، وفرحة جنونية جامحة. شعرت زان بالثقة في أنه لم يكن يُوجَد ما تخشاه. ومع ذلك كان أمرًا ذا شأن. كان «ما قبل الموت» هو ما يجعلها تتوقف بعض الوقت للتفكير. كانت تعلم أنها لن تنعم بالسكينة في الأشهُر التي ستقودها نحو نهايتها. وعندما كانت تتمكن من استدعاء ذكريات زوسيموس (كان الأمر لا يزال صعبًا، مع أنها كانت تبذل قصارى جهدها)، كانت هذه الذكريات حول تجهُّمه، وارتعاشه ونحوله المفزع. تذكرت الألم الذي كان يُقاسيه. ولم تودَّ السير على خطاه.

قالت لنفسها: «هذا من أجل لونا. كل شيء، كل شيء من أجل لونا.» وكان هذا صحيحًا. فقد أحبتها مع كل وخزةِ ألمٍ في ظهرها؛ أحبَّتها مع كل سُعال جافٍّ متقطع؛ أحبتها مع كل تنهيدة ناتجة عن الآلام الروماتيزمية؛ أحبتها مع كل طقطقة في مفاصلها. لم يكن ثمة شيء لم تكن على استعداد لتحمله من أجل هذه الفتاة.

وكانت بحاجة لأن تُخبرها. بالطبع كانت كذلك.
قالت لنفسها: «قريبًا. ليس بعد.»

تقع «المحمية» أسفل منحدر طويل قليل الانحدار قبل نقطة التقاء المنحدر بـ «مستنقع زرين» الشاسع. تسلقت بروزًا صخريًّا كي تلقي نظرة على المدينة من أعلى قبل هبوطها الأخير.

كان ثمة شيء مختلف بشأن تلك المدينة. الطريقة التي تبقى بها أحزانها الكثيرة معلقة في الهواء وثابتة مثل الضباب. وبينما كانت زان واقفةً على ارتفاعٍ أعلى من غيمة الحزن أخذت تنتقد نفسها، وهي في حالة من صفاء الذهن.

تمتمت: «يا لكِ من عجوز حمقاء. كم من أناس ساعدتِ؟ وكم من جروح طيبتِ وكم من قلوب طمأنتِ؟ وكم من أرواح أرشدتِ إلى الطريق؟ ومع ذلك، ها هم هؤلاء المساكين، رجالًا ونساءً وأطفالًا، الذين رفضتِ مساعدتهم. ما الذي يمكنكِ قوله للدفاع عن نفسك أيتها المرأة السخيفة؟»

لم يكن لديها ما تقوله دفاعًا عن نفسها.

وكانت لا تعرف السبب بعدُ.

كل ما تعرفه أنها كلما اقتربت، زاد شعورها بحاجتها الماسَّة إلى الرحيل.

هزت رأسها ونَحَّت الحصى وأوراق الشجر عن تنُّورتها، وتابعت السير لأسفل المنحدر نحو المدينة. وبينما كانت تسير، راودتها ذكرى. تمكنت من تذكر غرفتها في القلعة القديمة، غرفتها المفضلة، التي كانت تحتوي على تنينَين منحوتَين في الصخر على جانبي المدفأة، وسقف مكسور، مفتوح على السماء لكنه مسحور بحيث يُبعِد الأمطار. واستطاعت أن تتذكر صعودها إلى سريرها المُتنقل وعقدِها ليدَيها معًا ووضعهما على صدرها وهي تدعو النجوم أن تحظى بليلةٍ خالية من الأحلام السيئة. لكنها لم تحظَ بهذا قط. واستطاعت تذكُّر نحيبها في السرير، وتدفق الدموع. واستطاعت أن تتذكر صوتًا على الجانب الآخر من الباب. صوتًا هادئًا أجشَّ ومبحوحًا يهمس: «المزيد. المزيد. المزيد.»

جذبت زان عباءتها وأحكمتها حول ذراعيها. لم تكن تحب الشعور بالبرد. كما أنها لم تكن تحب تذكُّر الأشياء. هزت رأسها كي تطرد الأفكار وسارت لأسفل المنحدر. نحو الغيمة.

رأت المرأة المجنونة في «البرج» الساحرة تعرج عبر الأشجار. كانت بعيدة جدًّا، لأبعد حد، لكن عيني المرأة المجنونة كان يُمكنهما أن تريا أرجاء العالم إن هي سمحت لهما.

هل كانت تعرف كيفية فعل هذا قبل أن تُصاب بالجنون؟ ربما كان بإمكانها هذا. وربما ببساطة لم تلحظ هذا. لقد كانت يومًا ما ابنةً مخلصةً ثم فتاةً وقعت في الحب ثم أمًّا منتظرةً، تعدُّ الأيام التي تفصلها عن ميلاد ابنتها، وبعد ذلك اتخذ كل شيءٍ مسارًا خاطئًا.

اكتشفت المرأة المجنونة أنه يمكنها «معرفة» بعض الأمور. أمور مستحيلة. كان العالم، الذي عرفته أثناء جنونها، مليئًا بقِطع براقة وثمينة. قد يُسقط رجل عملةً على الأرض ولا يعثر عليها مرة أخرى، لكن غرابًا سيجدها في لمح البصر. والمعرفة، في جوهرها، عبارة عن جوهرة براقة، والمرأة المجنونة هي الغراب. اندفعت، ووصلت للمعرفة والتقطتها وجمعتها. عرفت «الكثير من الأشياء». على سبيل المثال عرفت أين كانت تعيش الساحرة. يمكنها السير إلى هناك معصوبة العينين لو تمكنت من الخروج من «البرج» مدةً طويلةً بما يكفي. كانت تعرف أين تأخذ الساحرة الأطفال. وكانت تعرف شكل تلك المدن.

كانت «رئيسة الأخوات» تقول لها كل يوم عند بزوغ الفجر: «كيف حال مريضتنا هذا الصباح؟ ما مقدار الحزن الذي يُخيم على روحها المسكينة للغاية؟» كانت جائعة. شعرت المرأة المجنونة بهذا.

كان يمكن للمرأة المجنونة أن تجيب: «لا يوجد» لو كانت ترغب في الكلام. لكنها لم تكن ترغب.

لسنوات، كانت «رئيسة الأخوات» تتغذى على أحزان المرأة المجنونة. لسنوات شعرت المرأة المجنونة بالانقضاض المفترس. (اكتشفت المرأة المجنونة أنها تعرف مصطلح «آكلة الحزن». لم يكن مصطلحًا تعلمته من قبل. وجدت نفسها تعرفه بنفس الطريقة التي كانت تعثر بها على أي شيء مفيد، مدت يدَها عبر الشقوق الموجودة في الكون واكتشفته.) لسنوات رقدت بصمتٍ في زنزانتها أثناء افتراس «كبيرة الأخوات» للحزن.

ثم في أحد الأيام، لم يكن يُوجد حزن كي تحصل عليه. تعلمت المرأة المجنونة كيف تقفل عليه وتستبدل به شيئًا آخر. الأمل. ومنذ ذلك الحين، باتت «كبيرة الأخوات» تتضور جوعًا.

قالت «كبيرة الأخوات»، والتجهُّم بادٍ على وجهها: «جيد. لم تَدَعيني أدخل. في الوقت الحالي.»

قالت المرأة المجنونة في نفسها، وبارقة الأمل تشرق بداخلها: «وأنتِ لم تَدَعيني أخرج. في الوقت الحالي.»

ضغطت المرأة المجنونة وجهها على القضبان الكثيفة في نافذتها الرقيقة. كانت الساحرة قد غادرت البروز الصخري وهبطت في اتجاه جدران المدينة، في الوقت الذي كان المجلس يحمل فيه آخر رضيعٍ للبوابات.

لم تولول الأم. ولم يصرخ الأب. لم يقاتلا من أجل طفلهما المنكوب. في خَدَرٍ شاهدا الطفل يُحمَل إلى الغابة بأهوالها، وهما يعتقدان أن هذا سيُبعد تلك الأهوال. ثبَّتا وجهيهما وحدَّقا في خوف.

أرادت المرأة المجنونة أن تُخبرهما أنهما «أحمقان». وأرادت أن تقول لهما: «أنتما تنظران في الاتجاه الخاطئ.»

طوت المرأة المجنونة خريطةً على شكل صقر. كانت ثمة أشياء يمكنها أن تجعلها تحدث، أشياء لا يمكنها تفسيرها. كان هذا يحدث قبل أن يأتوا لأخذ رضيعتها، وقبل «البرج»؛ كان الصاع من القمح يُصبح صاعَين؛ والقماش يتضاءل بينما يُصبح الورق كثيفًا وفخمًا في يدَيها. لكن ببطء أثناء سنواتها الطويلة في «البرج» أصبحت الهِبات التي حظيت بها واضحةً وقاطعة. عثرت على قطع وأجزاء من السحر في الشقوق الموجودة في الكون وأخْفَتها.

وجهت المرأة المجنونة الصقر نحو الهدف. كانت الساحرة تتَّجِه نحو المساحة التي تحيطها الأشجار. كان الحكماء يتجهون نحو المساحة نفسها. سيتَّجه الصقر مباشرةً نحو المكان الذي يُوجَد فيه الرضيع. كانت تعرف هذا في قرارة نفسها.

كان جيرلاند كبير الحكماء يشيخ حقًّا. وكانت الجرعات، التي كان يتلقَّاها كل أسبوع من أخوات النجمة، تساعده، لكن هذه الأيام بدا أنها كانت تساعده على نحوٍ أقلَّ من المعتاد. وأزعجه هذا.

وكان عمل تسليم الرُّضَّع في الغابة يُزعجه أيضًا، ليس «المبدأ» نفسه ولا «النتائج». كان ببساطة لا يحب لمس الرُّضَّع. فهم مزعجون وغليظون، وبصراحة، «أنانيون».

بالإضافة إلى ذلك، رائحتهم كريهة. الطفل الذي كان يحمله كانت رائحته كريهة بالفعل.

كانت هيبة الموكب على أتمِّ ما يُرام، وكان من المهم المحافظة على المظاهر، لكن ... نقل جيرلاند الطفل من ذراع لأخرى، فقد كان يكبر في السن على مثل هذا الأمر.

كان يفتقد أنتين. كان يعرف أن تفكيره بهذه الطريقة سخيف. فرحيل الفتى كان أفضل من بقائه. فالأعذار، في نهاية المطاف، مسألة تُثير الفوضى. لا سيما إذا كانت العائلة طرفًا في الأمر. ومع ذلك كان يفتقده. فبقدر غضب جيرلاند من معارضة أنتين غير المنطقية لـ «يوم التضحية»، شعر أنه فقد شيئًا ما باستقالة أنتين، لكنه لم يستطع أن يُحدِّد ماهيته بالضبط. بدا المجلس فارغًا برحيل أنتين. قال لنفسه إنه ببساطة كان يريد أن يُمسك شخصٌ آخر بالطفل الذي كان يتلوَّى، لكن جيرلاند كان يعرف أن الطفل لم يكن السبب الوحيد لما كان يشعر به.

انحنى الأشخاص الواقفون على امتداد الممشى عندما مر المجلس، وهو ما كان أمرًا حسنًا وجيدًا. تلوَّى الرضيع. وبصَقَ على عباءة جيرلاند. تنهد جيرلاند بعُمق. لن يُحدث ضجة. فقد كان واجبه نحو قومه أن يتعامل مع هذه الأمور المزعجة بهدوء.

كان صعبًا — لا أحد سيعرف كم هو صعب — أن تكون محبوبًا وجديرًا بالاحترام وغير أناني هكذا. وعندما مرَّ أعضاء المجلس فوق المعبر الأخير، حرص على أن يُهنئ نفسه على طبيعته الطيبة الإنسانية.

تحولت صرخات الطفل إلى حازوقة متَّصِلة.

تمتم جيرلاند: «يا لك من ناكر للجميل.»

حرص أنتين على أن يكون مرئيًّا بينما كان أعضاء المجلس يمرون. تبادل النظرات قليلًا مع خاله جيرلاند، وقال في نفسه، بقشعريرة: «يا له من رجل مقيت»، وانسلَّ من خلف الحشد وتسلل عبر البوابة دون أن يراه أحد. وما إن صار تحت غطاء الأشجار، حتى تقدم ركضًا نحو المنطقة الخالية التي تُحيطها الأشجار.

كانت إيثين لا تزال واقفةً على جانب الطريق. كانت معها سلة مُجهزة من أجل الأسرة المكلومة. كانت ملاكًا وكنزًا، والمذهل في الأمر أنها كانت الآن زوجة أنتين، إذ كانت قد أصبحت زوجته بعد شهرٍ من تركها «البرج». أحب كل منهما الآخر بشدة. وأرادا تكوين أسرة. ولكن كان ثمة عائق.

«المرأة المُعلقة بالعوارض الخشبية،

صرخات الطفلة،

غيمة الحزن التي تُخيم على «المحمية» مثل الضباب.»

كان أنتين قد رأى ذلك الهول يمتدُّ وينتشر دون أن يفعل شيئًا. وقف جانبًا يرى رضيعًا تلو الآخر يؤخَذ ويُترَك في الغابة. قال لنفسه: «لا يُمكننا إيقاف ما يحدُث مهما حاولنا.» هذا ما كان الجميع يقولونه لأنفسهم. وهذا ما كان أنتين يعتقِدُه طوال الوقت.

لكن أنتين كان يعتقد أيضًا أنه سيقضي حياته بمفرده، وحيدًا. ثم أثبت الحب خطأ ما كان يعتقد. والآن كان العالم أبهى من ذي قبل. إذا ثبت خطأ ذلك الاعتقاد، ألا يُحتَمَل أن تكون الاعتقادات الأخرى أيضًا خاطئة.

تساءل أنتين: «ماذا لو كنا مُخطئين بشأن الساحرة؟ ماذا لو كنا مخطئين بشأن التضحية؟» كان السؤال في حد ذاته ثوريًّا. ومدهشًا. «ماذا سيحدث إذا حاولنا؟»

لماذا لم تخطر له هذه الفكرة من قبل؟ فكر في نفسه: «ألن يكون من الأفضل إنجاب طفل في عالم يسوده الخير والعدل والطيبة؟»

هل حاول أي شخصٍ من قبل أن يتحدث مع الساحرة؟ كيف «عرفوا» أنه لا يمكن التفاهم معها؟ في نهاية المطاف، أي شخصٍ كبير في السن يتمتع حتمًا بقدرٍ من الحكمة. كان هذا ببساطة منطقيًّا.

جعله الحب متهورًا. وجعله شجاعًا. وجعل الأسئلةَ الضبابية أوضح. وكان أنتين بحاجة إلى إجابات.

مضى مسرعًا بمحاذاة أشجار الجميز وتوارى بين الشجيرات، منتظرًا أن يغادر الرجال المسنون.

وهناك وجد الصقر الورقي، متدليًّا كحليةٍ من شجيرات الطقسوس. أمسك به وقربه من قلبه.

عندما وصلت زان إلى منطقة الأشجار، كانت قد وصلت متأخرة. كان بوسعها سماع صوت اهتياج الرضيع من على بُعد نصف فرسخ.

نادت: «العمة زان قادمة، يا عزيزي! أرجوك لا تغضب!»

لم يكن بوسعها أن تصدق ذلك. على مدى كل هذه السنوات، لم تأتِ متأخرة مطلقًا. لم يحدث هذا قط. يا للرضيع المسكين! أغمضت عينيها وحاولت أن ترسل سيلًا من السحر إلى ساقيها كي تمنحاهما المزيد من السرعة. لكنه مع الأسف كان أشبه ببُرَيكة وليس سيلًا، لكنه بالفعل ساعد قليلًا. وباستخدام عكازها كي تقفز عاليًا وهي تمضي قدمًا، تمكنت زان من المرور عبر الشجيرات.

قالت: «حمدًا للآلهة!» وتنفَّست الصعداء عندما رأت الرضيع؛ صحيح أنه كان محتقن الوجه وغاضبًا، لكنه كان بخيرٍ ولا يزال على قيد الحياة. «لقد كنت قلقةً جدًّا عليك، أنا ...»

وفجأة، حال رجل بينها وبين الطفل.

صرخ: «توقفي!» كان وجهُهُ مليئًا بالندوب العميقة ويُمسك بسلاح في يدَيه.

اختلطت بُرَيكة السحر الآن بالخوف والدهشة والقلق على الرضيع الذي كان الغريب الخطير حائلًا بينها وبينه، فتضخمت فجأة وصارت موجةً عارمة. توهجت داخل عظام زان، وجعلت عضلاتها وأنسجتها وجلدها يتوهج. حتى شعرها توهج من السحر.

صاحت زان، وصوتها يرعد عبر الصخور: «ابتعد عن طريقي.» كان بوسعها أن تشعرَ بسحرها يندفع من مركز الأرض، عبر قدمَيها ويخرج من رأسها مُتجهًا نحو السماء، ثم يعود إلى الأرض مرة أخرى ثم إلى عظامها وهكذا دواليك، كالمدِّ والجزر على الشاطئ. مدت يديها وقبضت على الرجل بكلتا يديها. صرخ الرجل لأن موجة عارمة أصابته مباشرةً في ضفيرته العصبية البطنية وقطعت أنفاسه. طرحته زان جانبًا بسهولة وكأنه دميةٌ من القماش. حولت نفسها إلى طائر باز كبير على نحو مدهش، وهبطت على الرضيع وأمسكت بقماطه جيدًا بمخالبها وطارت به إلى السماء.

لم تستطع زان أن تبقى على هذه الحالة؛ فلم تكن تملك ما يكفي من السحر، ولكن كان يمكنها أن تبقى هي والطفل في الهواء إلى أن تعبر القمَّتَين الجبليتَين القادمتَين. بعد ذلك، ستمنح الرضيع طعامًا وقسطًا من الراحة، هذا إذا لم تسقط قبل ذلك. فتح الرضيع حلقه وأخذ يصرخ.

شاهدت المرأة المجنونة في «البرج» تحوُّل الساحرة. لم تشعر بشيء وهي تشاهد الأنف العجوز يتحول إلى منقار. ولم تشعر بأي شيء وهي تشاهد الريش ينبثق من مسامها، ولا عندما تحول ذراعاها إلى جناحَين وقصُر جسدها وصرخت العجوز في قوة وألم.

تذكرت المرأة المجنونة وزن طفلتها في ذراعَيها. وتذكرت رائحة فروة رأسها. وركلاتها المرحة بساقيها اللتين لم تكن قد سارت عليهما بعد. والتلويح المندهش ليدَيها الصغيرتَين.

تذكرت كيف أولت ظهرها للسطح.

وتذكرت وجود قدمَيها على العوارض الخشبية. تذكرت كم تمنَّت أن تطير.

تمتمت، عندما شرعت الساحرة في الطيران: «الطيور. الطيور، الطيور، الطيور.»

لا يوجد وقت في «البرج». لا يوجد سوى الضياع.

قالت في نفسها: «في الوقت الحالي.»

شاهدت الشاب؛ الشاب ذا الندبات على وجهه. كانت آسفة بشأن الندبات. لم تكن تقصد أن تفعل ذلك. لكنه كان صبيًّا حنونًا، وماهرًا وفضوليًّا، وطيب القلب. طيبته هي كَنزه الثمين. كانت تعرف أن هذه الندبات أبعدت عنه الفتيات السخيفات. كان يستحق شخصًا غير عادي ليُحبه.

رأته يحدق في الصقر الورقي. ورأته يفضُّ بحرصٍ كل طيةٍ ويبسط الورقة على صخرة. لم تكن الورقة تحتوي على أي خريطة. بل كانت تحتوي على كلمات.

كُتب على أحد جانبَي الورقة: «لا تنسَ.»

وكُتب على الجانب الآخر: «أنا أعني ما أقول.»

وبداخل روحها، شعرت المرأة المجنونة بآلاف الطيور، طيور من الورق، وطيور من الريش، وطيور من القلوب والعقول، واللحم والدم، تصعد إلى السماء وتحوم حول أشجار الأحلام.

الفصل التاسع عشر

رحلة إلى «مدينة العذاب»

فيما يخص الأشخاص الذين يحبون لونا، كان الوقت يمضي في لمح البصر. أما لونا، فكانت قلقة من أنها قد لا تبلغ الثانية عشرة من عمرها أبدًا. كان كل يوم يمر عليها ثقيلًا كالحَجر فوق قمة الجبل السامق.

وفي الوقت نفسه، مع كل يومٍ كان يمرُّ عليها، كانت تزداد معرفة. كان كل يومٍ يجعل العالم يبدو وكأنه يتمدَّد وينكمِش في آنٍ واحد؛ فكلما «عرفت» لونا، كان يزداد شعورها بالإحباط من أنه توجد أشياء لم «تعرفها» بعد. كانت سريعة التعلم كما كانت ماهرة في استخدام يديها وسريعة الخطو وأحيانًا متقلبة المزاج. كانت تهتم بالعنزات والدجاج وكانت تهتم بجدتها وبالتنين وبوحش المستنقع. تعلمت كيف تحلب الماعز وتجمع البيض وتصنع الخبز وتبتكر الاختراعات وتصنع آلاتٍ معقدة وتزرع النباتات وتكبس الجبن وتُنضِج حساءً يغذي العقل والروح. تعلمت كيف تجعل المنزل مُرتبًا (مع أنها لم تحب هذه المهمة كثيرًا) وكيف تخيط الطيور الورقية على طرف الفستان كي يبدو مبهجًا.

كانت فتاة ذكية وبارعة، فتاة تعرف الحب كما أنها كانت محبوبة.

ولكن، كان ثمة شيء ما.

كان ثمة شيء ناقص. فجوة في معرفتها. فجوة في حياتها. كان بوسع لونا أن «تشعر» بذلك. كانت تأمُل أن بلوغها الثانية عشرة سيجعلها تتغلب على هذا الشعور؛ سيبني جسرًا فوق هذه الفجوة. لكن هذا لم يحدث.

بدلًا من ذلك، عندما بلغت الثانية عشرة أخيرًا، لاحظت أن تغييرات عديدة بدأت تحدث لها؛ ولم تكن كلها لطيفة. لأول مرة، صارت أطول من جدتها. وصارت أكثر عرضة لتشتت الانتباه. كما أنها أصبحت عديمة الصبر. ومشاكسة. كانت تنفجر غضبًا في جدتها. وتنفجر غضبًا في وحش المستنقع. حتى إنها كانت تنفجر غضبًا في تنينها، الذي

كان قريبًا من قلبها كأخيها التوءم. كانت تعتذر إليهم جميعًا بالطبع، لكن حدوث هذا في حدِّ ذاته كان مثيرًا للغضب. لماذا كان يغيظها الجميع؟ تساءلت لونا.

وكان ثمة شيء آخر. وهو أنه على الرغم من أن لونا كانت تعتقد دومًا أنها قرأت كل الكتب الموجودة في الورشة، بدأت تُدرك أنه كان يُوجد العديد من الكتب التي لم تقرأها على الإطلاق. كانت تعرف شكل هذه الكتب. كما كانت تعرف أماكنها على الرف. لكن مهما حاولت، لم تستطع تصوُّر عناوين هذه الكتب أو تذكُّر إشارةٍ واحدة إلى محتوياتها.

وعلاوة على ذلك، وجدت أنها لا تستطيع حتى قراءة الكلمات المكتوبة على حواف أغلفة المجلدات. كان ينبغي أن تتمكن من قراءتها. فالكلمات لم تكن أجنبية والأحرف مشبَّكة بعضها في بعض بطرُق تجعل المعنى أوضح حتمًا.

ومع هذا لم تتمكن من قراءتها.

في كل مرة كانت تحاول أن تنظر إلى حواف الأغلفة، كانت عيناها تنجرفان يمينًا ويسارًا وكأن الكلمات لم تكن مصنوعةً من حبر على جلد بل من زيت على زجاج. لم يحدث لها هذا عندما نظرت إلى حافة كتاب «حيوات نجم» ولم يحدث عندما نظرت إلى النسخة العزيزة عليها من كتاب «الميكانيكا». لكن كلمات الكتب الأخرى كانت زلقة ككراتٍ زجاجية على زبد. والأدهى من ذلك، أنها كلما مدت يدها لتمسك بكتابٍ من هذه الكتب، كانت تجد نفسها تغرق في ذكرى أو حلم. وتجد نفسها بعد ذلك قد أُصيبت بالحوَل أو تشوُّش في الأفكار، وتهمس بشِعرٍ أو تؤلِّف قصة. أحيانًا كانت تستعيد حواسَّها بعد ذلك بدقائق أو ساعات أو بنصف يوم، فتهز رأسها لإنهاء حالة تشوش أفكارها وتتساءل ماذا بحق السماء كانت تفعل وكم استغرقت فيما كانت تفعله.

لم تخبر أي أحدٍ بشأن هذه النوبات. لم تخبر جدتها. ولم تخبر جليرك. وبالطبع لم تخبر فيريان. لم تكن تريد أن تقلقهم. هذه التغييرات كانت مُحرجة للغاية. وغريبة للغاية. لذا أبقتها طيَّ الكتمان. ومع ذلك كانوا أحيانًا يرمقونها بنظراتٍ غريبة. أو كانوا يعطونها إجاباتٍ غريبة على أسئلتها، وكأنهم كانوا يعلمون بالفعل أن خطبًا ما أَلَمَّ بها. وأن ذلك «الخطب» كان متشبثًا بها كصداع لا تستطيع أن تتخلص منه.

وحدث شيء آخر للونا بعدما بلغت الثانية عشرة: هو أنها بدأت ترسم. كانت ترسم طوال الوقت. كانت ترسم دون وعي منها وكانت ترسم وهي في كامل وعيها. كانت ترسم وجوهًا، وأماكن، وتفاصيل دقيقة لنباتات وحيوانات؛ سداة هُنا وبراثن هناك، وأسنانًا مخلخلة لعنزة مُسنَّة. رسمت خرائط للنجوم، وخرائط «المدن المستقلة» وخرائط لأماكن

لا وجود لها إلا في مخيلتها. رسمت برجًا من أحجار مُقلقلة وممرات متداخلة ومتقاطعة وسلالم داخلية، ويطلُّ على مدينة غارقة في الضباب. رسمت امرأة ذات شعرٍ أسود طويل. ورسمت رجلًا يرتدي عباءة.

فعلت الجدة كل ما بوسعها كي تُبقيها برفقة الريشة والألوان. شرع فيريان وجليرك يصنعان لها الأقلام الرصاص من الفحم والقصب الصلب. وكانت لونا مُستمتعة بالرسم جدًّا.

في وقت لاحق من ذلك العام، سارت لونا وجدتها إلى «المدن المستقلة» مرة أخرى. كان الطلب على جدتها يتزايد باستمرار. كانت تزور الحوامل وتعطي النصائح للقابلات والمعالجين والعطارين. ومع أن لونا كانت تحب زيارة المدن الموجودة على الجانب الآخر من الغابة، فهذه المرة أغضبتها الرحلة أيضًا.

كانت جدتها، التي بقيت صامدة كالصخر طوال حياة لونا، قد بدأت تضعف. كان قلق لونا المتزايد على جدتها يخِزُ جلدها كفستان مصنوع من الأشواك.

كانت زان تعرج طوال الطريق. وكان عرجها يسوء. قالت لونا، وهي ترى جدتها تنكص ألمًا مع كل خطوة: «جدتي. لماذا تَظلِّين تسيرين؟ لا بد أن تجلسي. أظن أن عليكِ الجلوس الآن. انظري إلى هناك، جذع شجرة مقطوعة. يمكن الجلوس عليها.»

قالت الجدة وهي تتكئ على عصاها وتنكص ألمًا مرةً أخرى: «أوه، هراء. كلما جلست، ستستغرق الرحلة وقتًا أطول.»

ردت لونا: «كلما مَشيتِ، ازداد ألمُكِ.»

كان يبدو أنه كل صباح كانت زان تعاني من وخزٍ جديد وألم جديد. تشوُّش في الرؤية أو تدلٍّ في الكتف. وكانت لونا تُغالب قلقها ومخاوفها.

سألت لونا زان: «هل تريدين مني الجلوس على قدميك يا جدتي؟ هل تريدين أن أروي لكِ قصة أو أُغني لكِ أغنية؟»

تنهَّدت الجدة: «ماذا أصابكِ أيتها الطفلة؟»

«ربما ينبغي أن تأكلي شيئًا. أو أن تشربي شيئًا. ربما ينبغي أن تشربي بعض الشاي. هل تريدين مني أن أُعِدَّ لك كوبًا من الشاي؟ ربما ينبغي أن تجلسي. لتشربي الشاي.»

«أنا على أحسن ما يُرام. لقد قمتُ بهذه الرحلة مرات عديدة لا يُمكنني إحصاؤها، ولم تحدُثْ لي أي مشكلة. أنت تُحدثين جلبة على لا شيء.» لكن لونا كانت تعرف أن شيئًا ما تغير في جدَّتها. كانت ثمة رعشة في صوتها ويديها. وكانت نحيلة جدًّا! اعتادت لونا أن تكون جدتُها بدينة ومنتفخة كالبصلة؛ واعتادت على العناق الناعم والأحضان الرقيقة. الآن أصبحت هشَّةً وواهنة وخفيفة، كحزمة من الأعشاب الجافة الملفوفة في ورقة مُجعدة يمكن أن تتفكَّك من هبَّة ريح.

عندما وصلَتا إلى مدينة تُسمى مدينة العذاب، ركضت لونا إلى منزل الأرملة الذي يقع على الحدود تمامًا.

قالت لونا للأرملة: «جدتي ليست بخير. لا تُخبريها بأنني قلتُ هذا.»

أرسلت الأرملة ابنها، الذي كاد أن يكون بالغًا (وهو من «أطفال النجوم»، كالكثيرين)، والذي ركض في طلب المُعالج، والذي بدوره ذهب للعطار، والذي بدوره ذهب للعمدة، الذي أخطر «رابطة السيدات»، التي أخطرت «جمعية النبلاء»، و«تحالف صانعي الساعات» و«صانعي الألحفة» و«الصفاحين» ومدرسة المدينة. بحلول الوقت الذي سارت فيه زان وهي تعرج إلى حديقة بيت الأرملة، كان نصف المدينة هناك بالفعل، ينصبون الموائد والخيام، مع استعدادِ جحافلَ من الفضوليين للحديث وإحداث ضجة بشأن العجوز.

تنشَّقَت زان، قائلةً: «حماقة»، على الرغم من أنها انكمشت على نفسها فوق الكرسي الذي وضعته إحدى الفتيات بجانب حديقة الأعشاب لأجلها.

قالت الأرملة: «ارتأينا أن هذا كان أفضل.»

قالت لونا، مُصححةً: «ارتأيتُ أن هذا كان أفضل.» داعب ما بدا أنه آلاف الأيدي خدَّيها وجبهتها وربَّتَت على كتفَيها. همْهَمَ أهل المدينة: «يا لها من فتاة طيبة. كنا نعرف أنها ستكون أفضل من أفضل الفتيات، وأفضل من أفضل الأطفال، ويومًا ما ستكون أفضل من أفضل النساء. نُحب حقًّا أن نكون على صواب.»

لم يكن هذا الاهتمام غير عادي. فأينما ذهبت لونا لزيارة «المدن المستقلة»، كانت تجد استقبالًا حارًّا وتودُّدًا إليها. لم تكن تعرف لماذا يُحبها أهل المدن هكذا، أو لماذا يُصغون بحرصٍ بالغٍ لكل كلمة تقولها، لكنها أُعجبت بمديحهم.

أبدوا ملاحظات على عينيها الجميلتين، السوداوين واللامعتين مثل سماء المساء، وعلى شعرها الفاحم ذي الخصلات الذهبية، وعلى الشامة في جبهتها التي على شكل هلال. كما

أبدوا ملاحظات على أصابعها البارعة وذراعَيها القويتَين وساقيها السريعتين. وامتدحوا الطريقة الدقيقة التي تتحدث بها وإيماءاتها الماهرة عندما ترقص وصوتها المغرد العذب.

تنهَّدت الممرضات، قائلات: «صوتها ساحر»، وعندئذٍ رمقتها زان بنظرةٍ منذرة، بدأ عندها الجميع يُغمغمون بحديثٍ حول الطقس.

تلك الكلمة جعلت لونا تتجهَّم. في تلك اللحظة، عرفت أنها لا بد أن تكون قد سمعت هذه الكلمة من قبل، لا بد أنها سمعتها. لكن بعد لحظة، طارت الكلمة من عقلها مثل طائر طنَّان. ثم تلاشت. وبقيت مكانها مساحةٌ فارغةٌ، كخاطرة عابرة على حافة حلم.

جلست لونا وسط مجموعة من أطفال النجوم، من أعمار مختلفة؛ فكان أحدهم رضيعًا وبعضهم يتعلم المشي، وهكذا حتى أكبرهم، الذي كان رجلًا مسنًّا للغاية.

(سألت لونا آلاف المرات: «لماذا يُسمَّون «أطفال النجوم»؟»

وكانت تُجيب زان بغموض: «أنا على يقينٍ من أنني لا أعرف ما تتحدَّثين عنه.»

ثم كانت تُغير الموضوع. ثم تنسى لونا الأمر. كل مرة.

فقط مؤخرًا، تمكنت من تذكُّر أنها كانت تنسى.)

كان أطفال النجوم يتحدَّثون عن ذكرياتهم الأولى. كانوا يفعلون هذا الأمر دائمًا، ليروا من منهم يُمكنه أن يقترب قدْر الإمكان من اللحظة التي أحضرتهم فيها زان العجوز إلى عائلاتهم وجعلتهم محبوبين. ونظرًا لأنهم في الواقِع لم يتمكَّنوا من تذكُّر ذلك — فقد كانوا صغارًا جدًّا عندئذٍ — كانوا يُحاولون الغَوص في ذكرياتهم لأعمق نقطةٍ ممكنة ليجدوا أول مشهدٍ يُمكنهم تذكُّره.

قال السيد، الذي يُعد أكبر «أطفال النجوم» عمرًا: «يمكنني أن أتذكر سِنَّة؛ وكيف صارت مُلخلخة وسقطت. يؤسفني القول إن كل شيء قبل هذا مشوش».

قالت فتاة: «يمكنني تذكُّر أغنية اعتادت أُمي أن تُغنيها لي. لكنها لا تزال تُغنيها لي، لذا لعلَّها في نهاية المطاف ليست ذكرى.»

قال صبي: «أتذكر عنزة. عنزة ذات عُرف مجعد.»

سألته فتاة، وهي تقهقه: «هل أنت متأكد من أن العنزة لم تكن زان العجوز؟» كانت من أصغر «أطفال النجوم» عمرًا.

قال الصبي: «أوه. ربما أنتِ مُحقة.»

قطبت لونا حاجبَيها. كانت ثمة صور تختبئ في غياهب عقلها. هل هي ذكريات أم أحلام؟ أم ذكريات لأحلام عن ذكريات. أم أنها تخلط بينها. كيف لها أن تعلم؟

تنحنحت.

وقالت: «كان ثمة رجل مُسن، يرتدي عباءة داكنة، تصدر حفيفًا مثل حفيف الريح، وكانت له رقبة مترهلة، وأنف كأنف طائر جارح. ولم يكن يُحبني كثيرًا.»

اشرأبت أعناق «أطفال النجوم».

قال أحد الصبيان: «حقًّا؟ هل أنتِ متأكدة؟» حدقوا فيها بعمق، وهم يزمُّون شفاههم ويعَضون عليها.

لوَّحت زان بيدها اليسرى باعتراض بينما تحوَّل لون خدَّيها من الوردي إلى القرمزي.

«لا تستمعوا إليها.» أدارت زان عينَيها في محجريهما استنكارًا. «هي لا تعرف ما تتحدث عنه. لا يُوجَد رجل كهذا. نحن نرى العديد من الأشياء السخيفة عندما نحلم.»

أغمضت لونا عينيها.

«وكان ثمة امرأة تعيش على السقف، شعرها مُموج مثل فروع أشجار الجميز في عاصفة.»

قالت جدتها ساخرة: «مستحيل. أنتِ لا تعرفين أي شخصٍ لم أقابله أنا أولًا. لقد كنتُ ملازمةً لكِ طوال حياتكِ.» وحدقت في لونا مُضيقةً عينيها.

«وصبي كانت تفوح منه رائحة نشارة الخشب. لماذا كانت تفوح منه رائحة نشارة الخشب؟»

قالت جدتها: «كثير من الناس تفوح منهم رائحة نشارة الخشب. الحطابون والنجارون والسيدة التي تنحت الملاعق. وغير ذلك كثير.»

كان هذا صحيحًا بالطبع. وتعين على لونا أن تهز رأسها موافقةً. كانت الذكرى قديمة وبعيدة، لكنها في الوقت نفسه، «واضحة». لم تكن لدى لونا ذكرى واضحة ومتماسكة مثل هذه؛ فعادةً ما كانت ذاكرتها متملِّصة ويصعب حصرها، لذا تشبَّثَت بهذه الذكرى. لم تكن هذه الصورة الذهنية «تعني» شيئًا. كانت «متأكدة» من ذلك.

وخطر لها حينئذٍ أن جدتها لم تكن مطلقًا تتحدث عن الذكريات. لم تفعل ذلك مطلقًا.

في اليوم التالي، بعد أن نامت زان في غرفة الضيوف في منزل الأرملة، تجولت في المدينة، وزارت النساء الحوامل ونصحتهنَّ بشأن مستوى الأعمال التي يَقمنَ بها واختيارات الطعام، ووضعت أذنها إلى بطونهن.

لازمتها لونا كظلها. قالت جدتها: «حتى تتعلمي شيئًا مفيدًا.» كانت كلماتها لاذعة، دون شك.

قالت لونا، وهي تخطو فوق الحصى وهما تسرعان إلى بيت المريضة الأولى على الطرف الآخر من المدينة: «أنا مفيدة.»

كان قد مضى على حمل المرأة وقتٌ طويل، وبدا من هيئتها أنها قد تلد في أي لحظة. حَيَّت السيدةُ الجدَّةَ والحفيدةَ بإعياءٍ هادئ. وقالت: «أودُّ أن أنهض، لكنني أخشى السقوط.» قبَّلَت لونا خدَّ السيدة، كما جرت العادة، وبسرعة لمست بطنَها المنتفخ، وشعرت بالطفل ينتفضُ بالداخل. فجأة شعرت بانتفاخٍ في حلقها.

قالت بسرعة، وهي تُشيح بوجهها: «لماذا لا أُعِدُّ بعض الشاي؟»

قالت لونا في نفسها: «يومًا ما، كان لي أم. لا بد أنه كان لي أم.» عبست. ولا بد أنها بالتأكيد سألت عن هذا أيضًا، ولكن يبدو أنها لم تستطع أن تتذكر أنها فعلت ذلك.

أعدت لونا قائمة في رأسها بالأشياء التي تعرفها.

(الحزن خطير.

الذكريات متملصة.

جدتي لا تقول الحقيقة دائمًا.

ولا أنا.)

دارت هذه الأفكار في دوامات في رأس لونا وهي تقلب أوراق الشاي في الماء المغلي.

سألت المرأة: «هل يمكن للفتاة أن تضع يدها على بطني قليلًا؟ أو ربما يمكنها أن تُغني للطفل. سأكون ممتنةً لبركاتها، نظرًا لأنها تحيا في حضرة السحر.»

لم تعرف لونا السبب الذي يجعل المرأة تريد بركاتها، بل لم تكن تعرف حتى معنى البركات. وتلك الكلمة الأخيرة ... بدت مألوفة. لكن لونا لم تستطع التذكُّر. وببساطة، لم يكن يمكنها تذكُّر الكلمة أصلًا، ولم تكن تدرك سوى شعورٍ بنبضٍ في رأسها، مثل دقات الساعة. على أي حال، أخرجتها جدتها من الغرفة، ثم تشوش تفكيرها، وبعد ذلك، عادت إلى الغرفة وأخذت تصبُّ الشاي من القِدر. لكن الشاي كان قد برد. كم ظلَّت في الخارج؟ ضربت جانب رأسها بضعَ مراتٍ بباطن يدِها كي توقِفَ تشوُّش عقلها. ولكن بدا أن لا شيء يُجدي نفعًا.

في المنزل التالي، أعدَّت لونا الأعشاب للعناية بالأم من أجل أن تكون مفيدة. وأعادت ترتيب الأثاث كي يُناسِب بطن السيدة الحامل الذي يكبر، وأعادت ترتيب معدات المطبخ حتى لا تُضطَر السيدة إلى أن تمدَّ يدَيها بعيدًا للوصول إلى الأشياء.

قالت الأم: «حسنًا، أنتِ رائعة. خدوم جدًّا!»

قالت لونا بخجل: «شكرًا لكِ.»

أضافت: «كما أنكِ ذكية وسريعة البديهة.»

قالت زان، موافقة: «بالطبع هي كذلك. إنها حفيدتي، أليس كذلك؟»

شعرت لونا بلفحة برد. ومجددًا، خطرت لها تلك الذكرى عن الشعر الأسود الموَّج، واليدَين القويتَين ورائحة اللبن والزعتر والفلفل الأسود، وصوت امرأة تصرخ: «إنها لي، إنها لي، إنها لي.»

كانت الصورة الذهنية واضحة جدًّا، وحاضرةً وفوريةً جدًّا، لدرجة أن لونا شعرت بأنفاسها تتلاحق وبقلبها يخفق بقوة. لم تلاحظ المرأةُ الحامل ذلك. ولم تُلاحظه زان. شعرت لونا بصراخ المرأة يتردَّد في أُذنَيها. شعرت بذلك الشعر الأسود يُلامس أنامِلَها. رفعت ناظرَيها وحدقت في العوارض الخشبية، لكن لم يكن هناك أحد.

مرَّت بقيةُ الزيارة دون حادثة تُذكَر، وقطعت لونا وزان رحلة طويلة إلى البيت. لم تتحدث أي منهما عن ذكرى الرجل الذي يرتدي العباءة. أو عن أي ذكريات أخرى. لم تتحدثا عن الحزن أو القلق أو المرأة ذات الشعر الأسود على السقف.

بدأت الأشياء التي «لم» تتحدثا عنها تفوق الأشياء التي تحدَّثَتا عنها. كل سر، كل شيء غير مُفصَح عنه كان مُستديرًا وصلبًا وثقيلًا وباردًا، كصخرةٍ تجثم فوق رقبة الجدة والفتاة.

وانحنى ظهراهما تحت وطأة الأسرار.

الفصل العشرون

لونا تروي قصة

«استمع أيُّها التنين السخيف. توقَّفْ عن التلوِّي في الحال وإلا فلن أروي لك أي قصة مُجددًا أبدًا ما حييتُ.

ما زِلتَ تتلوَّى.

نعم، لا بأس بالعناق. يُمكنك معانقتي.

كان يا ما كان، فتاة لم يكن لدَيها أي ذكرى.

كان يا ما كان، تنين لم يكن يكبر أبدًا.

كان يا ما كان، جدة لم تكن تقول الحقيقة.

كان يا ما كان، وحش مستنقع كان أكبر من العالم وأحب العالم وأحب الناس فيه، لكنه لم يكن يعلم دومًا ما يصح قوله.

كان يا ما كان، فتاة لم يكن لديها أي ذكرى. مهلًا. هل قلتُ هذا بالفعل؟

كان يا ما كان، فتاة لم تكن تتذكَّر أي شيء عن فقدان ذاكرتها.

كان يا ما كان، فتاة لها ذكريات كانت تُلاحقها كالظلال. وتهمس كالأشباح. لم يكن بوسعها أن تراها رأي العين.

كان يا ما كان، رجل يرتدي عباءة وله وجه مثل جوارح الطير.

كان يا ما كان، امرأة على السقف.

كان يا ما كان، شعر أسود وعينان سوداوان وعواء حقيقي. كان يا ما كان، امرأة بشعر مثل الثعابين تقول: «إنها لي»، وكانت تعني ما تقول. واختطفوها.

كان يا ما كان، برج مظلم يخترق السماء ويحول كل شيء رماديًّا.

نعم، هذه كلها قصة واحدة. هذه هي قصتي. لكنني لا أعرف كيف تنتهي.

كان يا ما كان، شيء مخيف يعيش في الغابات. أو ربما كانت الغابات هي المخيفة. أو ربما العالم كله موبوء بالشر والكذب، والأفضل معرفة هذا في الحال.

لا يا فيريان يا عزيزي، أنا لا أصدق هذا الجزء الأخير أيضًا.»

الفصل الحادي والعشرون

فيريان يتوصل إلى اكتشاف

غنى فيريان وهو يدور حول نفسه في الهواء: «لونا، لونا، لونا، لونا.»

كانت لونا قد وصلت إلى البيت منذ أسبوعين. ومع ذلك ظل فيريان مسرورًا.

«لونا، لونا، لونا، لونا.» أنهى رقصته بتأنق، إذ هبط على إصبعٍ واحد فوق منتصف راحة يد لونا. وانحنى. فابتسمت لونا رغمًا عنها. كانت جدتها مريضة ملازمة الفراش. وكانت لا تزال على نفس الحال. وكانت هي نفسها مريضة منذ عودتهما للبيت.

عندما حان وقت النوم، قَبَّلَتْ جليرك مُتمنيةً له ليلة طيبة وذهبت إلى المنزل برفقة فيريان، الذي لم يكن من المفترض أن ينام في سرير لونا، لكنه كان سيفعل بالتأكيد.

قالت لونا، وهي تميل على جدتها النائمة، وتُقبِّل خدها الضامر: «تُصبحين على خير يا جدتي.» أضافت، ملاحظةً غصةً في صوتها: «أحلامًا سعيدة.» لم تتحرك زان. استمرت في نومها الذي تفتح فيه فمها. حتى إنه لم يرمش لها جفن.

ونظرًا لأن زان لم تكن في حالة تسمح لها بالاعتراض، أخبرت لونا فيريان أنه يُمكنه أن ينام عند مؤخِّر سريرها، تمامًا مثل الأيام الخوالي.

تنهد فيريان، وهو يمسك قلبه بقائمتَيه الأماميتَين وهو يكاد يسقط مغشيًّا عليه: «يا لها من فرحة مبهجة!»

«لكن، يا فيريان، سأطردك إن أصدرتَ شخيرًا. كدتَ تحرق وسادتي المرة الماضية.»

وعدها فيريان: «لن أُصدر أي شخير. التنانين لا يُصدرون شخيرًا. أنا متأكد من ذلك. أو ربما التنانين الصغيرة فقط لا تصدر شخيرًا. أعطيكِ وعدًا بصفتي تنينًا ينتمي إلى عِرق «التنانين الهائلة»، عِرق عريق وقديم. والكلمة لدينا عقد.»

قالت لونا، وهي تعقص شعرها في ضفيرة كبيرة وتتوارى خلف ستارة كي ترتدي ثوب النوم: «أنت تخترع كل هذا».

قال بغضب: «لست أخترعه.» بعد ذلك تنهد. «حسنًا. ربما أخترعه. أحيانًا أتمنى لو أن أمي كانت هُنا. من الجيد أن يكون لديَّ تنين آخر أتحدث إليه.» اتسعت عيناه. وقال: «هذا لا يعني أنكِ لستِ كافية، يا لونا يا عزيزتي. وجليرك يُعلمني الكثير من الأشياء. والعمة زان تحبني بقدر ما تُحب الأم طفلها. لكن ...» تنهد ولم يقل المزيد. وإنما تشقلب داخل ثوب نوم لونا وكوَّر جسده الضئيل الساخن في هيئة كرة صغيرة. شعرت لونا وكأنها تضع صخرةً من الموقد في جيبها. ساخنة بشكل غير مُريح، لكنها مع ذلك مريحة.

تمتمت لونا، وهي تضع يدَها على التنين المتكور، وتثني أصابعها متلقيةً الحرارة: «أنت لغز يا فيريان. أنت لُغزي المفضل.» على الأقل كان فيريان يتذكر والدته. أما لونا، فكان كل ما لديها أحلام. ولم تكن تضمن مدى دقتها. صحيح أن فيريان رأى أمَّه وهي تموت، لكنه على الأقل «عرف» ذلك. وعلاوة على ذلك، استطاع أن يُحب عائلته الجديدة حبًّا تامًّا، دون أي أسئلة.

لونا أيضًا كانت تُحب عائلتها. تُحبها كثيرًا.

لكن كانت لديها تساؤلات.

وبرأس مليءٍ بالأسئلة، تدثرت بأغطيتها وراحت في نوم عميق.

لم يكد الجزء الهلالي من القمر يتجاوز حافة النافذة ويسطع في الغرفة، حتى كان فيريان يصدر شخيرًا. ولم يكد بريق القمر يدخل بكامله من النافذة، حتى بدأ فيريان يلسع ثوب نوم لونا. ولم يكد منحنى القمر يلامس إطار النافذة المقابلة حتى تركت أنفاس فيريان علامةً حمراء فاتحة على جانب خاصرة لونا، تاركة بثرةً مكانها.

سحبته من جيبها وأجلسته على طرف السرير.

بصوتٍ غير واضح وصياح أثناء نومها، قالت: «فيريان. اخرج من هُنا.»

وخرج فيريان.

نظرت لونا حولها.

همست: «حسنًا. هل طار من النافذة؟» لم تستطع أن تجزم. «كان هذا سريعًا.»

ضغطت براحة يدِها على الجرح، محاولةً أن تتخيل قطعة من الثلج تذوب فوق الحرق، وتُنهي الألم. بعد قليل، ذهب الألم بالفعل، ونامت لونا.

لم يستيقظ فيريان على صوت صراخ لونا. بل رأى ذلك الحلم مرةً أخرى. كانت أُمُّه في الحلم تحاول أن تُخبره شيئًا، لكنها كانت بعيدة جدًّا وكان صوت الهواء عاليًا جدًّا كما

كان معبأً بالدخان، لذا لم يستطع سماعها. لكنه كان سيتمكن من رؤيتها، إذا حدَّق فيها، تقف مع السحرة الآخرين من القلعة بينما كانت الجدران تتداعى من حولهم.

نادى فيريان في الحلم: «ماما!» لكن الدخان كان يبتلع كلماته. سمحت أُمُّه لرجل طاعن في السن جدًّا أن يتسلق مُمتطيًا ظهرها اللامع، وطارا إلى داخل البركان. أصدر البركان، الذي كان ثائرًا وعنيفًا، خوارًا وقرقرة ولفظَ نيرانَه، محاولًا أن يلفظهما.

نادى فيريان مرة أخرى: «ماما!» وأخذ ينتحب حتى استيقظ.

لم يكن متكورًا على نفسه بجوار لونا، حيث كان قد راح في النوم، ولم يكن نائمًا في كيسه المُعلق فوق المستنقع، حيث يهمس لجليرك مُتمنيًا له ليلة سعيدة مرارًا وتكرارًا. لم تكن لدى فيريان أي فكرة عن مكانه. كل ما كان يعرفه هو أنه شعر بشعورٍ غريب في جسده، وكأنه أصبح كتلةً منتفخة من عجين الخبز قبل أن تُضغط مرة أخرى لحجمها الطبيعي. شعر أنه حتى عينه كانت منتفخة.

سأل فيريان جهرًا: «ما الذي يحدث؟ أين جليرك؟ جليرك! لونا! عمتي زان!» لم يُجبْه أحد. كان وحده في الغابة.

قال في نفسه إنه لا بدَّ أنه طار إلى هناك وهو نائم، مع أنه لم يطِر وهو نائم من قبل. لسببٍ ما، شعر بأنه كان عاجزًا عن الطيران «في الوقت الحالي». حرك جناحيه لكن لم يحدث شيء. ضرب بجناحيه بشدة لدرجة أن الأشجار على الجانبين انثنت وفقدت أوراقها (قال في نفسه: «هل كان ذلك يحدث دائمًا؟ لا بد من ذلك»)، وتصاعدت الأوساخ الموجودة على الأرض في شكل دوَّامات عاتية عندما رفع جناحيه. شعر أن جناحَيه ثقيلان وأن جسمه ثقيل ولم يستطع الطيران.

قال فيريان لنفسه بثبات: «هذا يحدث دائمًا عندما أكون متعبًا»، لكن هذا أيضًا لم يكن صحيحًا. كان جناحاه يعملان دومًا، كما كانت عيناه تعملان دومًا وكما كانت مخالبه تعمل دومًا، وكان دومًا يستطيع السير أو الزحف أو تقشير ثمار جوجا ناضجة وتسلُّق الأشجار. كل ما تَقَدَّم كان يعمل بكفاءة. لذا لماذا لم يعمل جناحاه «الآن»؟

ترك حلمه ألمًا في قلبه. كانت أُمُّه تنينة جميلة. جمالًا لا يُوصَف. كانت جفونها محددة بجواهر صغيرة، وكل جوهرة بلون مختلف. كان بطنها بنفس لون بيضة وُضِعَت للتو. عندما أغمض فيريان عينيه، شعر وكأنه يستطيع لمس الحراشف الناعمة كالزبد على جلدها، وكل شوكة حادة الشفرة. شعر وكأنه يستطيع استنشاق الكبريت الحلو في أنفاسها.

كم سنة مرت على حدوث هذا؟ بالطبع ليس كثيرًا. فهو لا يزال تنينًا صغيرًا. (كلما فكر في الزمن، شعر أن رأسه يؤلمه.)

نادى: «مرحبًا؟ هل من أحدٍ هُنا؟»

هزَّ رأسه. بالطبع لم يكن يُوجَد أحدٌ هُنا. لم يكن أحدٌ يعيش في هذا المكان. كان وسط غابةٍ مُظلمة عميقة لم يكن مسموحًا له بالبقاء فيها، وعلى أغلب الظن سيموت فيها، وكل هذا كان بسبب خطأ غبي منه، مع أنه لم يكن متأكدًا تمامًا مما «فعله» كي يحدث هذا. يبدو أن خطأه كان الطيران نائمًا. على الرغم من أنه كان يظن أنه من اخترع ذلك المصطلح.

قالت له أُمُّه، قبل سنوات طويلة: «عندما تشعر بالخوف، تخلص من مخاوفك بالغناء. التنانين تُصدر أجمل موسيقى في العالم. الجميع يقولون هذا.» ومع أن جليرك أكد له أن هذا ليس صحيحًا، وأن التنانين، كانوا، عوضًا عن ذلك، ماهرون في خداع النفس، انتهز فيريان كل فرصة يُمكنه أن يستغلها كي ينخرط في الغناء. وبالفعل كان هذا يجعله يشعر بأنه في حالة أفضل.

غنى بصوتٍ مرتفع: «ها أنا ذا، وسط الغابة المرعبة. ترا لا لا!»

أحدث بقدمَيه الثقيلتَين طرقات متتالية على الأرض. هل كانت قدماه بهذا الثقل دومًا؟ لا بد أنهما كانتا كذلك.

وتابع: «ولست خائفًا. ولا حتى بأدنى قدر. ترا لا لا!»

لم يكن هذا صحيحًا. كان مرعوبًا.

سأل جهرًا: «أين أنا؟» خرج جسم من الضباب، وكأنه ظهر كي يُجيب عن سؤاله. قال فيريان في نفسه: «إنه وحش.» لم يكن ذلك يعني أنه كان يرى الوحوش مُخيفين. كان فيريان يُحب جليرك، وجليرك كان وحشًا. لكن، هذا الوحش كان أطول بكثيرٍ من جليرك. وكان متواريًا في الظل. تقدم فيريان خطوة للأمام. غاصت قوائمه أكثر في الطين. حاول أن يُرفرف بجناحَيه، لكنهما لم يرفعاه عن الأرض. لم يتحرك الوحش. اقترب فيريان أكثر. أصدرت الأشجار حفيفًا وأنينًا، وفروعها الضخمة تتحرك تحت وطأة الريح. حدَّق في ذهول.

«يا للهول، أنت لستَ وحشًا على الإطلاق. أنت مدخنة. مدخنة بلا منزل.»

كان هذا صحيحًا. كان مدخنةً منتصبةً على جانب أرض خالية من الشجر. يبدو أن المنزل احترق منذ سنواتٍ مضت. تفحَّص فيريان البناء. كانت النجوم المنحوتة تزين

الأحجار الموجودة بالأعلى والسناج يسوِّد المدفأة. أطلَّ فيريان داخل قمَّة المدخنة ورأى أنثى طائر باز غاضبة ترقُد فوق أفراخها الخائفة.

صرخ، قائلًا: «أعتذر»، بينما كانت أنثى الباز تقرص أنفه وتجعله ينزف. ابتعد عن المدخنة. وقال بتأمُّل: «يا له من باز صغير.» ولكن خطر له أنه كان بعيدًا عن أرض العمالقة، وأن كل شيء كان بحجمه الطبيعي هنا. وبالفعل لم يكن عليه إلا أن يقف على قائمتَيه الخلفيتَين ويشرئب بعنقه كي ينظر إلى داخل المدخنة.

تلفت حوله. كان واقفًا في قرية مدمَّرة، وسط أطلال منازل وبرج مركزي وجدار ربما كان مكانًا للعبادة. رأى صورًا لتنانين وبركان، وفتاةً صغيرةً بشعرٍ مثل ضوء النجوم.

ذات مرة قالت له أمُّه: «هذه زان. ستعتني بك عندما أرحل.» لقد أحب زان من اللحظة الأولى. كان لدَيها نمش على أنفها وسِن مكسورة وشعرها اللامع كضوء النجوم كان معقوصًا في ضفائر طويلة تنتهي بشرائط. لكن، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. كانت زان عجوزًا، وكان هو تنينًا صغيرًا، ولا يمكن أن يكون قد عرفها عندما كانت صغيرة، أليس كذلك؟

كانت زان قد ضمَّته إلى ذراعَيها. وكان خدها ملطخًا بالأوساخ. وكانا قد أخذا يهرِّبان الحلوى من مخزن المؤن في القلعة. قالت: «لكنني لا أعرف كيف.» ثم بكت. انتحبت مثل طفلة صغيرة.

لكن، يستحيل أنها كانت فتاةً صغيرة. أيُعقل هذا؟

قالت أمُّه بصوت التنانين الرقيق: «ستفعل. ستتعلم. أنا مؤمنة بك.»

شعر فيريان بغصَّةٍ في حلقه. واغرورقت عيناه بدمعتَين هائلتَين وسقطتا على الأرض وهو ما أدى إلى قتل رقعتَين من الطحالب. كم مرَّ على هذا؟ من يدري؟ الزمن مخادع؛ زلق كالطين.

وكانت زان قد حذَّرتْه من أن يضع الحزن نصب عينَيه. قالت له مرارًا وتكرارًا: «الحزن خطير»، لكنه لم يستطع أن يتذكر إن كانت أخبرته يومًا بالسبب.

مال البرج المركزي متزعزعًا على أحد جانبَيه. وانهار العديد من أحجار الأساس في الجانب المحجوب عن الريح، الأمر الذي أتاح لفيريان أن ينحني ويُمعن النظر في الداخل. كان ثمة شيء، شيئان في الواقع؛ تمكن من رؤيتهما من خلال بصيص الضوء عند الحواف. مد قائمتَيه الأماميتَين وجذبهما للخارج. وأمسك بهما في كفَّيه. كانا شيئين صغيرَين، بحيث كانا مُستقرَّين معًا في راحته.

قال: «حذاء عالي الرقبة». حذاء أسود عالي الرقبة بإبزيم فضي. كان قديمًا، لا بد أنه كان قديمًا. ومع ذلك، كان يلمع وكأنه كان قد لُمِّع للتو. قال: «يبدو هذا الحذاء مثل أحذية القلعة القديمة. لا يمكن أن يكون هو نفسه بالطبع. فهو أصغر بكثير. الأحذية الأخرى كانت عملاقة. وكان يرتديها عمالقة.»

منذ زمنٍ بعيد كان السحرة يفحصون أحذيةً مثل هذا تمامًا. كانوا يضعون الحذاء على الطاولة ويفحصونه بأدوات ونظارات مُخصصة ومساحيق وأقمشة وغيرها من الأدوات. في كل يوم كانوا يُجرون تجارب ويرصدون ويدوِّنون ملاحظات. كان هذا الحذاء يُعرف باسم «الحذاء الذي يقطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة». ولم يكن يُسمح لفيريان ولا لزان بلمسها.

قال السحرة الآخرون لزان عندما حاولت لمسها: «أنتِ صغيرة جدًّا على أن تلمسيها.»

هزَّ فيريان رأسه. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لم تكن زان صغيرة حينذاك، صحيح؟ لا يمكن أن يكون هذا قد حدث منذ تلك الفترة الطويلة.

تعالى صوت زمجرةٍ في الغابة. هَبَّ فيريان واقفًا. غنَّى وركبتاه تصطكَّان معًا وأنفاسه تخرج مضطربةً لاهثة: «لست خائفًا.» اقتربت خطواتُ أقدام ناعمة خفيفة. كان يعرف أنه تُوجَد نمور في الغابة. أو ربما كانت موجودة قبل زمنٍ طويل.

قال بصوت منخفض أشبه بالصرصرة: «أنا تنين شرس جدًّا!» أتى الصوت المزمجر من الظلام مرة أخرى. قال التنين الصغير بتوسُّل: «أرجوك لا تؤذِني.»

وعندئذٍ تذكَّر شيئًا. بُعَيد اختفاء أمِّه في البركان، قالت له زان: «سأعتني بك، يا فيريان. سأعتني بك دائمًا. أنت عائلتي، وأنا عائلتك. سأضع لك تعويذة تُبقيك آمنًا. عليك ألَّا تتجوَّل بعيدًا أبدًا. لكن إن فعلت، وإن خِفت، فقط قل: «عمتي زان» ثلاث مرات بسرعة، وستجذبك هذه التعويذة إليَّ في سرعة البرق.»

سأل فيريان: «كيف؟»

«حبل سحري.»

«لكنني لا أراه.»

«عدم رؤيتك للشيء لا يعني عدم وجوده. بعض الأشياء الأروع في العالَم غير مرئية. الوثوق في الأشياء غير المرئية يجعلها أقوى وأروع. سترى بنفسك.»

لم يكن فيريان قد جرَّب هذا من قبل.

اقترب الصوت المزمجر أكثر.

صاح فيريان: «عمتي زان عمتي زان عمتي زان.» وأغمض عينَيه. ثم فتحهما. لم يحدُث شيء. تسرَّب ذعرُه إلى حلقه.

«عمتي زان عمتي زان عمتي زان!»

أيضًا لم يحدُث شيء. اقترب الصوت المزمجِر أكثر. التمعت عينان صفراوان في الظلام. انحنى جسد ضخم في الظلام.

صرخ فيريان. وحاول الطيران. كان جسده كبيرًا جدًّا وجناحاه صغيرَين. كان كل شيء في غير محلِّه. لماذا كان كلُّ شيءٍ في غير محله؟ افتقد العمالقة الذين يعرفهم: عمته زان، وجليرك ولونا.

صاح: «لونا!» عندما بدأ الوحش بوخزِه. «لونا لونا لونا!»

وشعر بقوة تسحبُه.

صرخ فيريان: «لونا يا عزيزتي، لونا.»

سألت لونا: «لماذا تصرخ؟» فتحت جيبها وحملت فيريان، الذي كان يكوِّر جسمه الصغير.

ارتعش فيريان رغمًا عنه. كان في أمان. كاد يبكي في ارتياح. قال، وأسنانه تقبض على ثوب النوم: «كنتُ خائفًا.»

نفخت الفتاة قائلةً: «أوف. كنت تُصدر شخيرًا، ولسعتني.»

سأل فيريان، وهو مصدوم حقًّا: «أفعلتُ هذا؟ أين؟»

قالت: «هُنا. انتظر دقيقة.» اعتدلت في جلستها ونظرت عن كثب. اختفت علامة الحرق، كما اختفى الثقب في عباءة النوم، والحرق على خاصرتها. قالت ببطء: «كانت هُنا.»

فيريان: «كنتُ في مكان مُضحك. وكان يُوجَد وحش. وكان ثمة خطب في جسدي ولم أتمكن من الطيران. ووجدتُ حذاءً طويل الرقبة. ثم وجدت نفسي هُنا. أظن أنكِ أنقذتِني.» وقطَّب حاجبَيه. وأردف: «لكنني لا أعرف كيف.»

هزت لونا رأسها. «كيف يمكن أن أكون قد فعلت هذا؟ أظن أن كلينا رأى أحلامًا مزعجة. فأنا لم أحترق وأنت كنت في أمانٍ دومًا، لذا دعنا نعود للنوم.»

والتحفت الفتاة والتنين بالغطاء وراحا في النوم في الحال. لم يحلم فيريان ولم يصدر شخيرًا، كما أن لونا لم تتحرك مطلقًا.

عندما استيقظت لونا مرة أخرى، كان فيريان لا يزال نائمًا في ثنية ذراعها. خرج شريطان رقيقان من الدخان يتموجان من أنفه، وكانت شفتاه الشبيهتان بشفاه السحالي

منحنيتين في ابتسامةٍ ناعسة. قالت لونا في نفسها: «لم يوجد، ولا يوجد، مطلقًا تنين أسعد من هذا.» سحبت يدَها من تحت رأس التنين ونهضت. لم يتحرك فيريان بعد.

همست: «بسسست. أيها النعسان. استيقظ أيها النعسان.»

لم يتحرك فيريان بعد. تثاءبت لونا وتمطَّت وقبلت فيريان قبلةً خفيفة على أرنبة أنفه الصغير الدافئ. جعل الدخان لونا تسعل. ومع هذا لم يتحرك فيريان. أدارت لونا عينيها في محجريهما.

قالت موبِّخة، وهي تنهض من فوق السرير على الأرضية الباردة وتلتقط نعلها وشالها: «أيها الكسول.» كان اليوم باردًا لكنه سيكون لطيفًا قريبًا. القليل من المشي سيكون مفيدًا للونا. مدَّت يديها وأمسكت بحبال توجيه الحركة كي ترفع سريرها لأعلى السقف. لن يُعارض فيريان الاستيقاظ والسرير مطروح بعيدًا، بل من الأفضل له أن يبدأ اليوم والأَسرَّة معلقة لأعلى. ذلك ما كانت جدتها قد علمتها.

ولكن ما إن رُفع السرير، حتى لاحظت لونا شيئًا على الأرض.

حذاءً كبيرًا طويل الرقبة.

كان حذاءً جلديًّا أسود، وكان حتى أثقل مما كان يبدو عليه. تمكنت لونا من رفعه بمشقة بالغة. وكان للحذاء رائحة غريبة، رائحة بدت بطريقةٍ ما مألوفة للونا، لكنها لم تتمكن من تحديدها. كان النعل سميكًا، ومصنوعًا من مادةٍ لا يمكنها التعرف عليها في الحال. والأغرب من ذلك، أن كل كعبٍ كان مكتوبًا عليه كلمات.

كان مكتوبًا على الكعب الأيسر: «لا ترتديني.»

وكان مكتوبًا على الكعب الأيمن: «إلا إذا كنت تقصد ذلك.»

قالت لونا جهرًا: «بحق السماء ما هذا؟» رفعت إحدى فردتي الحذاء لأعلى وحاولت أن تتفحصها بتمعُّن أكثر. لكن قبل أن تتمكن من هذا، شعرت بصداعٍ حادٍّ مفاجئ، في منتصف جبهتها. أسقطها على ركبتَيها. ضغطت براحتَيها على جمجمتها ودفعت للداخل، وكأنها تمنع رأسها من أن تتطاير متبعثرة.

ظل فيريان بلا حراك.

جثمت على الأرض لبعض الوقت إلى أن خَفَّت حدة الصداع.

حملقت لونا في الجانب السفلي من السرير. قالت بسخرية: «كم أنتِ يقظة.» بعد أن نهضت على قدمَيها مرة أخرى، مضت إلى الصندوق الخشبي الصغير الموجود أسفل النافذة، وفتحته بقدمها. كانت تحتفظ فيه بتذكاراتها؛ ألعاب كانت فيما مضى تلعب

بها، وأغطية كانت تحبها، وصخور غريبة الشكل، وزهور مجففة، ودفاتر يوميات مغلفة بالجلد تعجُّ بأفكارها وأسئلتها ورسوم ومخططات.

والآن وضعت فيه حذاءً طويل الرقبة. حذاءً ضخمًا أسود. عليه عبارات غريبة وله رائحة غريبة أصابتها بصداع. أقفلت لونا الغطاء وتنهدت بارتياح. ومع إغلاق غطاء الصندوق، لم يعد رأسها يؤلمها. بل في الواقع، لم تعُد تتذكر الألم. والآن لتخبر جليرك.

استمر فيريان في إصدار الشخير.

شعرت لونا بالعطش. وشعرت بالجوع. وكانت قلقة على جدتها. وأرادت أن ترى جليرك. وكان لديها العديد من المهام التي يتعيَّن عليها إنجازها. كان عليها أن تحلب الماعز. وكان يلزم أن تجمع البيض. وكان ثمة أمر آخر.

توقفت أثناء سيرها نحو الرقعة التي ينبت فيها التوت.

كانت ستسأل عن شيءٍ ما. ماذا كان؟

ومع أنها بذلت قصارى جهدها، لم تستطع لونا أن تتذكَّر.

الفصل الثاني والعشرون

حكاية أخرى

«بالتأكيد سبق أن أخبرتكِ عن الحذاء الطويل الرقبة، أيتها الطفلة.

حسنًا. من بين كل الأدوات البشعة التي تملكها الساحرة وتستخدمها، كان «الحذاء الذي يقطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة» هو الأداة الأكثر فظاعة. الحذاء في ذاته يماثل أي أداة سحرية أخرى؛ لا هو بالجيد ولا بالسيئ. كان دوره يقتصر على جعل من ترتديه تقطع مسافاتٍ هائلة في لحظة، مضاعفًا مقدار حركاتها مع كل خطوة تخطوها.

هذا ما يتيح لها اختطاف أطفالنا.

هذا ما يتيح لها أن تجوب العالم، وتنشر شرَّها والحزن. هذا ما يتيح لها أن تفلت من الإمساك بها. لا نملك أي قوة. وحزننا بلا علاج.

منذ زمن بعيد، قبل أن تصبح الغابة خطيرة، كانت الساحرة مجرد كائنٍ صغير. تحديدًا كانت مجرد نملة. وكانت قواها محدودة. وكانت معرفتها ضئيلة. وكانت قدرتها على الأذى غير جديرة بالملاحظة. كانت طفلة، تائهة في الغابة. هذا ما كانت عليه قوتها بالضبط.

لكن في أحد الأيام، عثرت على حذاءٍ طويل الرقبة.

على أي حال، بمجرد أن ارتدت الحذاء في قدميها، أتاح لها الانتقال من طرف لآخر حول العالم في لحظة واحدة. ثم تمكنت من العثور على المزيد من السحر. سرقته من سحرة آخرين. وسرقته من الأرض. واختلسته من الهواء والأشجار والحقول المزهرة. يقال إنها حتى سرقته من القمر. ثم ألقت بتعويذة علينا جميعًا؛ غيمة هائلة من الحزن، تغطي العالم.

هي بالتأكيد تغطي العالم. لذلك يبدو العالم باهتًا ورماديًّا. ولذلك أملُنا الوحيد هو أصغر الأطفال. من الأفضل أن تعرفي ذلك الآن.»

الفصل الثالث والعشرون

لونا ترسم خريطة

تركت لونا ملاحظة لجدتها تقول فيها إنها خرجت لجمع التوت ورسم شروق الشمس. أغلب الظن ستظلُّ جدة لونا نائمة إلى أن تعود؛ فهي تنام كثيرًا في الآونة الأخيرة. ومع أن العجوز طمأنت الفتاة بأنها كانت تنام دائمًا بهذا القدر وأن شيئًا لم يتغير مطلقًا، كانت لونا تعرف أن هذه كذبة.

قالت لونا في نفسها شاعرة بوخز في قلبها: «كلتانا تكذب على الأخرى. وكلتانا لا تعرف كيف تتوقف عن هذا.» وضعت ورقة ملاحظتها على الطاولة الخشبية وأغلقت الباب بهدوء.

علقت لونا حقيبتها متقاطعة عبر كتفيها وارتدت حذاء السفر الطويل الرقبة وسلكت الطريق الطويل المتعرِّج عبر الجزء الخلفي من المستنقع قبل أن تتبع الدرب المائل الذي يفصل بين مخروطَي رمادٍ ينبعث منهما الدخان على الجانب الجنوبي من فوهة البركان. كان الجو دافئًا وشديد الرطوبة، وأدركت والرعب يتسلل إليها أنها بدأت تصدر منها رائحة كريهة. كان هذا الأمر قد بدأ يحدث كثيرًا مؤخرًا؛ روائح كريهة، بقع غريبة تظهر على وجهها. شعرت لونا وكأن كل جزءٍ في جسمها يتآمر عليها ليُغير من نفسه، حتى صوتها تحول إلى خائن.

لكن ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر.

كانت ثمة ... أنواع أخرى من الانقلابات التي حدثت لها. أشياء لم تستطع تفسيرها. أول مرة لاحظت فيها ذلك، كانت عندما حاولت القفز كي تتمكن من رؤية عش طائر على نحو أفضل، وفجأة وجدت نفسها على أعلى فرع في الشجرة، مُتشبثةً به بشدة كأن حياتها تعتمد على ذلك.

قالت لنفسها: «لا بد أن الريح هي السبب»، على الرغم من أن سخافة الفكرة كانت واضحة. فمن سمع يومًا بأن هبة ريح يمكنها أن تدفع شخصًا لأعلى شجرة؟ لكن نظرًا

لأن لونا لم يكن لديها حقًّا أي تفسير آخر، بدا لها تفسير «هبة الريح» حلًّا جيدًا. لم تكن قد أخبرت جدتها أو جليرك بهذا. لم ترد أن تثير قلقهما. كما أن الأمر بدا محرجًا لسببٍ غامض؛ وكأنه كان ثمة خطب بها.

أضف إلى ذلك أمرًا آخر. وهو أنها كانت الريح لا أكثر.

ثم، بعد مرور شهر، حينما كانت لونا وجدتها تجمعان فطر عيش الغراب في الغابة، لاحظت لونا كم كانت جدتها منهكة، وكم صارت نحيلة وهزيلة وكيف تتصاعد أنفاسها وتهبط بألم كالحشرجة.

قالت لونا جهرًا عندما كانت جدتها بعيدة عن نطاق السمع: «أنا قلقة بشأنها.» شعرت لونا بأن صوتها حبيس في حلقها.

أجاب سنجاب بُني بلون حبة البندق: «وأنا أيضًا.» كان واقفًا على أدنى فرع محدقًا لأسفل وعلى وجهه المدبب تعبير ينم عن المعرفة.

استغرقت لونا لحظةً طويلةً لتُدرك أن السناجب «ليس من المفترض أن تتحدث».

واستغرقت لحظة أخرى لتدرك أنها ليست المرة الأولى التي يتحدث فيها حيوان إليها. كان هذا قد حدث من قبل. كانت متأكدة من ذلك. كل ما في الأمر أنها لم تستطع أن تتذكر متى.

ولاحقًا، عندما حاولت أن تشرح لجليرك ما حدث، لم تُوَفَّق في ذلك. لم تستطع أن تتذكَّر ما حدث رغم أنها بذلت قصارى جهدها. كانت تعلم أن «شيئًا ما» كان قد حدث. كل ما في الأمر أنها لم تعرف «ما هو».

قال صوت في رأسها: «حدث هذا من قبل.

حدث هذا من قبل.

حدث هذا من قبل.»

كانت هذه المعرفة حقيقة وطيدة، وطيدة وثابتة مثل تروس ساعة.

تابعت لونا في الدرب الملتف حول الربوة الأولى، تاركة المستنقع خلفها. كانت شجرة تين تنشر فروعها فوق الطريق، وكأنها ترحب بكل من يتجول فيه. وكان غراب يقف على أدنى فرع. كان رفيقًا لطيفًا، ريشه يلمع كالزيت. نظر إلى لونا مباشرة في عينيها، وكأنه كان ينتظرها.

قالت في نفسها: «لقد حدث هذا من قبل.»

قالت لونا، وهي تثبت بصرها على عين الغراب اللامعة: «مرحبًا.»

قال الغراب: «كاو.» لكن لونا شعرت بأنها متيقنة من أنه كان يعني «مرحبًا».

وفجأة، تذكرت لونا.

في اليوم السابق، كانت لونا قد أخذت بيضة من قن الدجاج. كانت البيضة الوحيدة في كل الأعشاش، ولم يكن معها سلة، لذا حملتها ببساطة في يدها. وقبل أن تصل إلى المنزل، أدركت أن قشرة البيضة كانت تهتز، وأنها لم تعد ملساء ودافئة ومنتظمة، بل حادة ومدببة وحساسة للمس. بعد ذلك عضتها. ألقت البيضة وهي تصرخ. لكنها لم تكن بيضة على الإطلاق. كانت غرابًا كاملًا طار بطريقةٍ حلزونية فوق رأسها وحط على أقرب شجرة.

كان الغراب قد قال: «كاو.» أو هذا «ما كان ينبغي» عليه قوله. لكنه لم يقل هذا.

بدلًا من ذلك نعق الغراب قائلًا: «لونا.» ولم يطر بعيدًا، بل حط على أدنى فرع من فروع بيت شجرة لونا، وتبعها أينما ذهبت بقية اليوم. كانت لونا في حيرة من أمرها.

نعق الغراب: «كاو.» وكان يعني: «لونا لونا لونا.»

قالت لونا موبِّخةً: «صه. أحاول «التفكير».»

كان الغراب أسود ولامعًا، كما ينبغي لغراب أن يكون، لكن عندما حملقت فيه لونا ونظرت إليه نظرة جانبية، رأت لونًا آخر أيضًا. وهو اللون الأزرق. مع لمعة فضية عند الحواف. اختفت الألوان الإضافية عندما فتحت عينَيها على اتساعهما وحدقت فيه مباشرةً.

سألت لونا: «ماذا تكون؟»

قال الغراب: «كاو.» وكان الغراب يعني: «أنا أفضل الغربان على الإطلاق.»

قالت لونا: «مفهوم. تأكد من ألَّا تراك جدتي». وأضافت بعد تفكير: «ولا وحش المستنقع. أظن أنك ستزعجهما.»

قال الغراب: «كاو.» وكان يقصد: «أتفق معكِ.»

هزَّت لونا رأسها.

لم يكن وجود الغراب منطقيًّا. لم يكن أي شيء منطقيًّا. ومع هذا، كان الغراب «موجودًا». كان حقيقيًّا وكان «حيًّا».

قالت لونا في نفسها: «توجد كلمة تُفسِّر هذا. تُوجَد كلمة تفسِّر كل شيء لا أفهمه. لا بد أن تكون موجودة. كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أتذكر ما هي.»

كانت لونا قد أمرت الغراب بأن يبقى بمنأًى عن الأنظار حتى تتمكن من فهم الأمور، وقد امتثل الغراب لأوامرها. كان بحق غرابًا ممتازًا.

والآن، ها هو ذا مرة أخرى. على أدنى فرع من شجرة التين.

كان لا بد أن يقول الغراب: «كاو.» لكنه بدلًا من ذلك نادى: «لونا.»

قالت لونا: «اهدأ. قد يسمعك أحد.»

همس الغراب بخجل: «كاو.»

صفحت لونا عن الغراب، بالطبع. وبينما كانت تسير مشتتة الذهن، تعثرت بصخرة، وسقطت بقوة على الأرض على حقيبتها.

قالت الحقيبة: «أوه. ابتعدي عني.»

حدقت لونا فيها. لكن عند هذه المرحلة لم يكن أي شيء يُدهشها. حتى الحقائب التي تتكلم.

ثم برز أنف صغير أخضر من أسفل غطاء الحقيبة. سأل الأنف: «أهذا أنتِ يا لونا؟»

أدارت لونا عينَيها في محجريهما استغرابًا. وسألت بحدة: «ماذا تفعل في حقيبتي؟»

فتحت غطاء الحقيبة ونظرت إلى التنين الخجول يصعد خارجًا.

قال، دون أن ينظر في عينيها: «أنت تستمرين في الذهاب إلى أماكن. تذهبين بدوني. وهذا ليس عدلًا. أردتُ فقط أن آتي.» رفرف فيريان لأعلى وأخذ يحوم في مستوى النظر. «أريد فقط أن أكون جزءًا من «المجموعة».» ابتسم لها ابتسامة تنينية متفائلة. «ربما علينا أن نذهب ونحضر جليرك. والعمة زان. تلك مجموعة ممتعة!»

قالت لونا بحزم: «لا»، وواصلت صعودها لأعلى القمة الجبلية. ورفرف فيريان خلفها.

«إلى أين نحن ذاهبان؟ هل يمكنني المساعدة؟ أنا متعاون جدًّا. مرحبًا يا لونا! إلى أين نحن ذاهبان؟»

أدارت لونا عينَيها في مِحجريهما ضيقًا ودارت على عقبها وهي تنفُخُ من أنفها.

قال الغراب: «كاو.» لم يقل: «لونا» هذه المرة، لكن لونا شعرت به يفكر في هذا. طار الغراب في المقدمة، وكأنه يعلم إلى أين هم ذاهبون.

تابعوا المضيَّ في الطريق إلى أن وصلوا إلى مخروط الرماد الثالث، الذي يقع على الطرف القصي من فوهة البركان، وصعدوا بمشقة نحو القمة.

«لماذا نصعد إلى هُنا؟» أراد فيريان أن يعرف.

قالت لونا: «صه!»

سأل فيريان: «لِمَ علينا أن نصمت؟»

تنهدت لونا بعمق. «أريد منك أن تكون هادئًا جدًّا جدًّا يا فيريان. حتى أتمكن من التركيز في الرسم.»

زقزق فيريان، وهو لا يزال يحوم أمام وجهها، قائلًا: «يمكنني أن أكون هادئًا. يمكنني أن أكون هادئًا جدًّا. يمكن أن أكون أهدأ من الديدان، والديدان هادئة جدًّا، إلا إذا كانت تقنعكِ بألا تأكليها، عندئذٍ تُصبح أقلَّ هدوءًا، وأكثر إقناعًا، ومع هذا آكلها لأن طعمها لذيذ.»

قالت لونا: «أعني أن تهدأ الآن.»

«لكني هادئ يا لونا! أهدأ مخلوق ...»

أغلقت لونا فم التنين بسبابتها وإبهامها، وكي لا تجرح مشاعره رفعته لأعلى بذراعها الأخرى واحتضنته.

همست: «أُحبكَ كثيرًا. والآن صه.» ربَّتت على رأسه الأخضر بحنان وجعلته ينعم بالدفء على خصرها الدافئ.

جلست مُتربعة على صخرة مسطحة القمة. وبينما كانت تمسح بعينَيها حدود الأرض قبل أن تختفي عند الأفق، حاولت أن تتخيل كُنه الأشياء التي تقع في ما وراء ذلك. كل ما تمكنت من رؤيته هو الغابة. لكن من المؤكد أن الغابة لا تمتدُّ إلى ما لا نهاية. فعندما سارت لونا مع جدتها إلى الاتجاه المعاكس، باتت الأشجار ضئيلة في النهاية وأفضت إلى مزارع، والمزارع أفضت إلى مدن، والمدن أفضت إلى المزيد من المزارع. بعد ذلك، كانت تُوجَد صحارى ومزيدٌ من الغابات وسلاسل جبلية ومحيط، ويمكن الوصول إليها جميعًا من خلال شبكة ضخمة من الطرق التي تمتدُّ في شتى الاتجاهات مثل خيوط غزل عملاقة. بالتأكيد الأمر نفسه لا بد أن ينطبق على «هذا الاتجاه». لكنها لم تستطع أن تعرف يقينًا. فهي لم تكن قد ارتحلت في هذه الجهة مطلقًا. ما كانت جدتها لتسمح لها.

كما أنها لم تشرح لها السبب مطلقًا.

وضعت لونا دفترها فوق حجرها وفتحته على صفحة فارغة. أدخلت يدها في حقيبتها، وعثرت على أكثر قلم رصاص مسنون، وأمسكت به بيدها اليسرى ... برفق، وكأنه فراشة وقد تطير بعيدًا. أغمضت عينيها، وحاولت أن تجعل ذهنها رائقًا وصافيًا، كسماء زرقاء واسعة بلا سحب.

سأل فيريان: «هل عليَّ أن أغمض عينيَّ أيضًا؟»

قالت لونا: «صه يا فيريان.»

قال الغراب: «كاو.»

قال فيريان وهو يلتقط نفسًا مسموعًا من أنفه: «هذا الغراب مُزعج.»

تنهدت لونا: «ليس مزعجًا. إنه غراب. ونعم يا عزيزي فيريان أغمض عينيك.»

قرقر فيريان بسعادة واختبأ في داخل طيَّات تنُّورة لونا. سيصدر شخيرًا قريبًا. لا أحد يروح في النوم أسرع من فيريان.

حولت لونا انتباهها إلى نقطة التقاء الأرض بالسماء. تخيلت الصورة في عقلها بأوضح ما تستطيع، وكأن عقلها قد تحول إلى ورقة، وعليها أن ترسم عليها بحرص قدر الإمكان. تنفست بعمق كي يهدأ قلبها وكي تتخفف روحها من المخاوف والهموم والعُقد. كان ثمة شعور سيراودها عندما تفعل هذا. حرارة في عظامها. وطقطقة في أناملها. والأغرب من ذلك كله، إدراكها بأن الشامة الغريبة الموجودة على جبهتها تسطع مشرقة وصافية كالمصباح. ومن يدري؟ ربما كانت كذلك بالفعل.

في صفحة عقلها، تمكنت لونا من رؤية حافة الأفق. ووجدت أن طرف الأرض بدأ يمتد أبعد وأبعد، وكأن العالم التفت نحوها وينظر إليها بابتسامة.

دون أن تفتح لونا عينيها، بدأت ترسم. عندما جلست، صارت هادئة لدرجة أنها تقريبًا لم تكن تعي أي شيء؛ لا أنفاسها ولا حرارة فيريان التي تقترب من خاصرتها، ولا أنه بدأ يصدر شخيرًا، وكانت الصور تتدافع بكثافة وسرعة كالسيل لدرجة أنها كانت بالكاد تركز عليها، حتى مرت جميعًا وطُمست معالمها.

صدر صوتٌ من بعيد جدًّا: «لونا.»

قال آخر: «كاو.»

دوى صوت هادر في أذنها: «لونا!» فأفاقت مذعورة.

دوى صوتها: «ماذا؟» لكنها بعد ذلك رأت النظرة على وجه فيريان، وشعرت بالخجل. قالت: «كم ...». تلفَّتت حولها. كانت الشمس، التي لم تكن تكاد تدفئ العالم أسفلها عندما وصلوا إلى فوهة البركان، فوقهم مباشرة. «كم بقينا هُنا؟»

«نصف اليوم»، كانت تعلم بالفعل. فكرت: «إنه وقت الظهيرة».

حام فيريان بالقُرب من وجه لونا، وضغط بأنفه الأخضر على أنفها الذي يعلوه النمش. كان على وجهه تعبير قلِق. تنفَّس قائلًا: «لونا. هل أنتِ مريضة؟»

قالت بسخرية: «مريضة؟ بالطبع لا.»

قال بصوت خافت: «أظن أنكِ ربما تكونين مريضة. «حدث للتو شيء غريب جدًّا لمقلتي عينيكِ».»

قالت لونا، وهي تغلق دفترها وتربط الشريط الجلد بإحكام حول الغلاف الأملس: «ذلك سخيف.» ألقت بالدفتر في حقيبتِها ونهضت. كانت قدماها مَثنيَّتَين أسفلها بالفعل. «عيناي طبيعيَّتان.»

قال فيريان، وهو يَطِن منتقلًا من أُذن لونا اليُسرى إلى اليُمنى: «هذا ليس سخيفًا على الإطلاق. عيناك سوداوان ولامعتان. عادةً هما كذلك معظم الوقت. لكنهما كانتا للتو كقمرين باهتين. ذلك ليس عاديًّا. أو أنا متأكد من أن هذا ليس عاديًّا.»

قالت لونا، وهي تتعثَّر للأمام: «عيناي لم تكونا كذلك». حاولت أن تتماسك كي لا تسقط، فتعلقت بجلمود صخر كي تستعيد توازُنها. لكن الجلاميد لم تساعدها؛ إذ كانت قد أصبحت، تحت تأثير لمسة يدها، خفيفة كريشة. بدأ أحد الجلاميد يطفو. تمتمت لونا بإحباطٍ بكلماتٍ غير واضحة.

أشار فيريان، محاولًا أن يكون مفيدًا: «والآن، قدماكِ لا تتحركان. وما الذي يحدث لهذه الصخرة؟»

قالت لونا، مُستحضرةً قوَّتها كي تثب للأمام، وتحط بقوة على منحدر الجرانيت الأملس على الجانب الشرقي: «كفَّ عن التدخُّل.»

قال فيريان، وهو يُحدق مشدوهًا ناقلًا بصره من المكان الذي كانت لونا تقف فيه منذ لحظة إلى المكان الذي أصبحت فيه الآن: «تلك كانت قفزةً بعيدة. عادةً لا يمكنكِ القفز بعيدًا هكذا. أنا أعني ما أقول يا لونا. بدا الأمر أشبه بـ ...»

قال الغراب: «كاو.» أو لا بد أنه قال: «كاو». لكن للونا بدا وكأنه يقول: «اخرس.» قررت أنها تحب الغراب.

قال فيريان غاضبًا: «حسنًا. لا تستمعي إليَّ. لم يستمع إليَّ أحد «قط».» حلق وهو يطن لأسفل المنحدر مسرعًا فبدا ككتلةٍ ضبابية خضراء مشاكسة.

تنهَّدت لونا بعُمق وسارت مُتثاقلةً نحو البيت. ستُصالحه. وفيريان دائمًا يسامحها. دائمًا.

ألقت الشمس الساطعة بظلالٍ حادة على المنحدر بينما كانت لونا تسرع لأسفل. كانت مُتسخة ومتعرِّقة؛ هل بسبب المجهود أم وقت الرسم في عقلها؟ لم تكن تدري، لكنها وقفت بجوار جدول ماء لتغتسل. كانت البحيرة الموجودة داخل فوهة البركان ساخنة جدًّا لدرجة أنه لم يكن يُمكنها لمسُها، لكن جداول الماء التي كانت تتدفق منها، على الرغم من أنها كانت غير صالحة للشرب، فإنها كانت باردة بما يكفي لرشِّها على الوجه الملطخ بالطين، أو كي تنظف العرق من مؤخرة رقبتِها أو إبطَيها. جثت لونا على ركبتَيها وشرعت في أن تُحسن مظهرها قبل أن تُواجِهَ جدَّتَها وجليرك، اللذين من المرجح أن يطلب كلاهما ردودًا بشأن غيابها.

أصدر الجبل صوتًا مدويًا. كانت تعرف أنه صوت البركان، وكأنه تصدر عنه حازوقة وهو نائم. كانت لونا تعرف أن هذا كان أمرًا طبيعيًّا في حالة البراكين، فهي لا تهدأ حتى أثناء نومها، ولم تكن هذه الاضطرابات مشكلة. إلا إذا كانت اضطرابات غير معتادة. بدا البركان أكثر اضطرابًا مؤخرًا؛ وكان يسوء أكثر فأكثر كل يوم. أخبرتها جدتها ألا تقلق بشأنه، وهو ما جعل لونا تقلق أكثر.

دوَّى صوت جليرك من أسفل منحدر الفوهة: «لووونا!» صعد الدويُّ للسماء. ظللت لونا عينيها بيدِها ونظرت لأسفل المنحدر. كان جليرك بمفرده. لوَّح لها بثلاثة من أذرعه مُحييًا، ولوحت له لونا بدورها. أدركت لونا، وهي تشعر بضيق في صدرها: «جدتي ليست معه.» وقالت في نفسها، والخوف يعتصر معدتها: «لا يمكن أن تكون ما زالت نائمة. ليس لهذه الساعة المُتأخِّرة من اليوم.» لكن على الرغم من هذه المسافة البعيدة، تمكنت من رؤية غشاوة من القلق تُخيِّم على جليرك كغيمة.

عادت لونا أدراجها إلى منزلها ركضًا.

كانت زان لا تزال في فراشها. بعد الظهيرة. نائمة كالأموات. أيقظتها لونا، وهي تشعر بالدموع تترقرق في عينَيها. تساءلت لونا في نفسها: «هل هي مريضة؟»

غمغمت زان «عجبًا، أيتها الطفلة. بحق السماء لماذا تُزعجينني في هذه الساعة؟ بعضنا يحاول النوم.» تقلبت على جنبها وعادت إلى النوم.

لم تنهض إلا بعد ساعة أخرى. أكدت للونا أن هذا كان طبيعيًّا تمامًا.

قالت لونا، دون أن تنظر إلى عينَي جدتها: «بالتأكيد هو كذلك، يا جدتي. كل شيء طبيعي تمامًا.» وتبادلت الجدة والحفيدة ابتساماتٍ فاترة. كانت كل كذبة ينطقانها تخرج من شفتيهما وتتبعثر على الأرض، رنانة ولامعة كزجاجٍ مُهشَّم.

لاحقًا في ذلك اليوم، عندما أخبرتها جدتها بأنها ترغب في أن تكون بمفردها وغادرت ذاهبةً للورشة، سحبت لونا دفتر يومياتها من حقيبتها وقَلَّبَت صفحاته، وهي تنظر إلى الرسوم التي رسمتها وهي تحلم. كانت دائمًا تجد أنها تُنجز أفضل أعمالها عندما لا تتذكر أي شيء مما فعلته. كان الأمر مُزعجًا حقًّا.

كانت قد رسمت صورة لبرج حجري، كانت قد رسمته من قبل، بجدران عالية ومرصد يشير إلى السماء. ورسمت طائرًا ورقيًّا يحلق خارجًا من النافذة الموجودة في

أقصى الغرب. وهو شيء آخر كانت قد رسمته من قبل. رسمت أيضًا طفلة تحيط بها أشجار مُغضَّنة عتيقة. رسمت بدرًا مكتملًا يُلقي بنوره ووعوده على الأرض.

وكانت قد رسمت خريطة. بل خريطتَين في الواقع. على صفحتَين.

أخذت لونا تُقَلِّب فيما بين الورقتَين، وهي تُحدق في عملها اليدوي.

كانت كل خريطة من الاثنتَين مُعقدةً وتفصيلية، فكانت كل منهما تظهر التضاريس والدروب والمخاطر الخفية. ينبوع ماء حار هُنا. وبركة وحلٍ هناك. وحفرة غائرة يمكنها ابتلاع قطيع من الماعز ولا تزال تئن وتطلب المزيد.

كانت الخريطة الأولى تصميمًا دقيقًا للمناظر الطبيعية والدروب التي كانت تؤدي إلى «المدن المستقلة». تمكنت لونا من رؤية كلٍّ من تضاريس الأرض، وكل حفرة من حفر الطريق، وكل جدول وكل أرض مقطوعة الأشجار وكل شلال. تمكنت حتى من رؤية الأشجار الساقطة من رحلتهما الأخيرة.

كانت الخريطة الأخرى لجزءٍ آخر من الغابة مختلف تمامًا. كان الطريق يبدأ من عند بيت الشجرة في أحد الجوانب، وكان يتبع المنحدر الجبلي الذي يهبط نحو الشمال.

الجدير بالذكر أنها لم يسبق لها الذهاب لهناك قط.

كانت قد رسمت دربًا بكل تعرجاته ومنعطفاته والعلامات المميزة الواضحة فيه. أماكن يمكن التخييم فيها. حيث كانت تُوجَد جداول بها ماء صالح للشرب، وجداول لا بد من تجنبها.

وكانت تُوجَد حلقة من الأشجار. وفي منتصف الحلقة، كَتَبَتْ كلمة «طفل».

وكانت تُوجَد مدينة خلف الجدار المرتفع.

وفي المدينة، «برج».

وبجوار «البرج»، الكلمات: «إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.»

وببطء شديد، قَرَّبَت لونا الدفتر منها، وقرَّبت هذه الكلمات إلى قلبها.

الفصل الرابع والعشرون

أنتين يقدِّم حلًّا

وقف أنتين خارج مكتب خاله قرابة ساعة قبل أن تواتيه الشجاعة ليدق الباب. تنفس بعمق عدة مرات، وأخذ يُردد فقرات أمام انعكاسه على اللوح الزجاجي، وحاول أن يعرض حجته مستخدمًا كل طاقته. خطا، وتفصَّد عرقًا، وتلفظ بألفاظٍ بذيئة سرًّا. ومسح العرق من فوق جبهته بقطعة قماش طرزتها إيثين، كان اسمُه فيها محاطًا بمجموعة من العُقد الدقيقة. كانت زوجته تتمتَّع بمهارةٍ سحرية في استخدام الخيط والإبرة. أحبها كثيرًا، لدرجة أنه اعتقد أنه سيموت من جراء هذا الحب.

قالت له وهي تتبع الندوب الكثيرة الموجودة على وجهه برفقٍ بأصابعها الصغيرة الماهرة: «الأمل هو ما تُمثله تلك البراعم الصغيرة التي تتكون في نهاية الشتاء. كم تبدو جافة! وكم تبدو ميتة! وكم تكون باردة في أصابعنا! لكن هذا لا يدوم طويلًا. تكبر هذه البراعم، وتُصبح متماسكةً ثم تنتفخ، ثم يخضرُّ العالم بأسره.»

وفي ذهنه هذا التشبيه البليغ الذي ذكرته زوجته — بخدَّيها الوردِيَّين، وشعرها الأحمر الذي يشبه لون الخشخاش، وبطنها المنتفخ الذي يكاد ينفجر أسفل الفستان الذي صنعته بنفسها — طرق الباب أخيرًا.

دوى صوت خاله من الداخل: «أخيرًا! قرر المتثاقل التوقف عن تثاقله وإعلان وجوده.»

تمتم أنتين: «أنا آسف يا خالي ...»

بصوت هادر قال جيرلاند كبير الحكماء: «كف عن الاعتذار أيها الصبي» زمجر جيرلاند كبير الحكماء. «افتح الباب وانتهِ من الأمر.»

جرحته كلمة «صبي» قليلًا. لم يعُد أنتين صبيًّا منذ سنوات عديدة. كان حِرَفيًّا ماهرًا، ورجل أعمال شغوفًا ورجلًا متزوجًا، مخلصًا لزوجته. لم تعد كلمة «صبي» تليق به.

سار متعثرًا إلى المكتب وانحنى أمام خاله، كما كان يفعل دائمًا. عندما اعتدل، تمكن من رؤية خاله ينظر إلى وجهه ويجفل. لم يكن هذا بالأمر الجديد. فقد استمرت ندوب أنتين في إفزاع الآخرين. وكان مُعتادًا على هذا.

قال: «شكرًا لك على مقابلتي يا خالي.»

قال جيرلاند، وعيناه تدوران في مِحجريهما كي يتجنَّب النظر في وجه الشاب: «لا أظن أن لديَّ خيارًا آخر يا ابن أختي. تظلُّ العائلة هي أهم شيء في النهاية.»

تشكك أنتين في صحة ما يقوله خاله لكنه لم يفصح عن هذا.

«على أي حال ...»

وقف كبير الحكماء. «على أي حالٍ لا يُوجَد مجال لنقول شيئًا يا ابن أختي. لقد مكثتُ دهرًا في هذا المكتب أنتظر مجيئك، أما الآن فقد حان موعدي لمقابلة أعضاء المجلس. أنت تذكر المجلس، أليس كذلك؟»

قال أنتين، وقد أشرق وجهه فجأة: «نعم، بالتأكيد، يا خالي. هذا هو سبب مجيئي إلى هنا. أودُّ التحدُّث إلى المجلس. بصفتي عضوًا سابقًا. أودُّ ذلك الآن، إن سُمِح لي.»

فوجئ جيرلاند كبير الحكماء تمامًا بهذا. تلعثم قائلًا: «أنت ... أنت تود «ماذا»؟» لم يكن المواطنون العاديون يُخاطبون المجلس. لم يكن هذا يحدث.

«إن كان لا بأس في ذلك، يا خالي.»

بادر كبير الحكماء، قائلًا: «أنا ...»

«أعرف أن هذا مُخالف للتقاليد قليلًا، يا خالي، وأتفهم حقًّا إن كان هذا يضعك في موقفٍ مُحرج. لقد مرت ... سنوات عديدة منذ ارتديتُ العباءة. أود، بعد طول انتظار، أن أخاطب المجلس وأشرح موقفي وأشكرهم على إعطائي مكانًا بينهم. لم أفعل ذلك قط، وأشعر بأنني مدين بهذا.»

كانت هذه كذبة. ابتلع أنتين ريقه. وابتسم.

بدت ملامح وجه خالِهِ تلين. قرب كبير الحكماء أصابعه معًا وضغط بها على شفتيه المنتفختَين. نظر إلى عينَي أنتين مباشرةً. وقال: «تبًّا للتقاليد. سيُسر المجلس كثيرًا برؤيتك.»

نهض كبير الحكماء وعانق ابن أخته المشاكس، وبوجهٍ مُشرق، قاده إلى القاعة. وعندما اقتربا من ردهة المنزل الكبيرة، فتح خادمٌ صامت الباب وسار الخال وابن الأخت في الضوء الآخِذ في الخفوت.

شعر أنتين ببرعُمٍ صغيرٍ متماسك من براعم الأمل يزدهر فجأة في صدره.

وكما توقع جيرلاند، بدا أن أعضاء المجلس كانوا يشعرون بسعادة بالغة لرؤية أنتين، واستغلوا وجوده كي يرفعوا كئوسهم احتفالًا بمهارته وحسِّه التجاري الممتاز، وكذلك حظه المدهش الذي جعله يتزوج بأطيب وأمهر فتاة في «المحمية». لم تكن قد وُجِّهَت لهم دعوة لحضور الزفاف — وحتى لو كانت قد وُجِّهَت لهم، ما كانوا سيحضرون — ولكن بالطريقة التي ربَّتوا بها على ظهره وكتفَيه بدَوا كزمرة صغيرة من الأعمام المبتهجين الصالحين. كانوا فخورين به أشد الفخر، وأخبروه بذلك.

هتف أعضاء المجلس وصاحوا وضحكوا، قائلين: «فتًى صالح، فتًى صالح.» ووزعوا فيما بينهم حلوى، لم يُسمَع بها من قبل في «المحمية». وصبُّوا النبيذ والجعة وتناولوا اللحم المُقدَّد والأجبان المُعتقة والكعك المحشو الغني بالزبد والكريمة. حمل أنتين معظم الأطعمة التي حصل عليها كي يُعطيها لزوجته الحبيبة فيما بعد.

وعندما بدأ الخدم في إزالة الأطباق الكبيرة والأباريق والكئوس، تنحنح أنتين. وقال، بينما كان أعضاء المجلس يجلسون في مقاعدهم: «أيها السادة، لقد جئتُ إلى هنا بدافع آخر. سامحوني، من فضلكم. وخاصةً أنت يا خالي. أعترف بأن ما ذكرته بشأن دافع المجيء إلى هُنا خلاف نواياي الحقيقية.»

أصبحت الغرفة أكثر برودة. وبدأ أعضاء المجلس ينظرون إلى ندوب أنتين، التي تظاهروا بتجاهلها حتى هذه اللحظة، نظراتٍ قاسية، تكاد تنمُّ عن التقزُّز. عزَّز أنتين شجاعته، وتحمل. فكَّر في الرضيع الذي ينمو ويتحرك في بطن زوجته المنتفخ. فكَّر في المرأة المجنونة المحتجزة في «البرج». من بمقدوره أن يجزم بأنه، هو الآخر، لن يُصاب بالجنون إن أُجبِر على التخلي عن طفله — «طفله» — لأعضاء المجلس؟ من بمقدوره أن يجزم بأن حبيبته إيثين لن تُصاب بالجنون؟ لم يكن بمقدوره تحمل فكرة أن يفترق عنها ولو لساعةٍ واحدة، في حين أنَّ المرأة المجنونة كانت محتجزة في «البرج» لسنوات. «سنوات». بالتأكيد سيموت.

قال كبير الحكماء، وهو يُضيِّق عينيه كالثعبان: «من فضلك، أكمل أيها الصبي.»

مرة أخرى، تابع أنتين محاولًا ألا تجرحه كلمة «صبي».

استهل حديثه قائلًا: «كما تعلمون»، وبذل أقصى جهدٍ كي يتحلى بالشجاعة ويتغلب على مخاوفه. فلم يكن بحاجة للتدمير. بل جاء إلى هنا من أجل الإصلاح. «كما تعلمون، محبوبتي إيثين حامل ...»

قال الحكماء، وقد تهللت وجوههم في آنٍ واحد: «رائع. يا له من خبر رائع جدًّا.»

تابع أنتين، محاولًا ألا يهتز صوته: «ومن المتوقع أن يولد طفلنا بعد انتهاء السنة، وليس من المتوقع أن يولد أطفال بين هذا الوقت و«يوم التضحية». ومن ثَم، فإن طفلنا العزيز سيكون أصغر طفلٍ في «المحمية».»

توقفت الضحكات المرحة فجأة، كشعلة أُخمِدَت. وتنحنح حكيمان.

قال الحكيم جينوت بصوته الرفيع الخافت: «يا للحظ العاثر.»

وافقه أنتين، قائلًا: «بالفعل. لكن ليس من اللازم أن يكون كذلك. أعتقد أنني وجدت طريقة لإيقاف هذا الهول. أعتقد أنني أعرف طريقة إيقاف طغيان الساحرة للأبد.»

اكْفَهَرَّ وجه جيرلاند كبير الحكماء. ودمدم قائلًا: «لا تشغل نفسك بالخيالات أيها الصبي. بالتأكيد أنت لا تظن ...»

قال أنتين: «لقد رأيت الساحرة.» كان قد احتفظ بهذه المعلومة زمنًا طويلًا جدًّا. وها هي الآن تنفجر بداخله.

قال جيرلاند، والرذاذ يتطاير من فمه: «مستحيل!» حدَّق بقية الحكماء في الشاب الصغير بأفواهٍ مفتوحة، وكأنه مجلس من الثعابين.

«ليس مستحيلًا على الإطلاق. رأيتها. تبِعْتُ الموكب. أعلم أن هذا ممنوع، وأنا آسف على هذا. لكنني فعلته على أي حال. تبعتُ الموكب وانتظرتُ مع الطفل المُضحَّى به و«رأيت الساحرة».»

صرخ جيرلاند، وهو يهبُّ واقفًا: «لم ترَ شيئًا من هذا القبيل!» لا تُوجَد ساحرة، ولم يكن ثمة وجود لساحرة مطلقًا. وجميع الحكماء كانوا يعلمون بهذا. نهضوا جميعًا، وعلى وجوههم أمارات الاتهام.

«رأيتها تنتظر في الظلال. رأيتها تحوم حول الرضيع، وتُقرقر جائعة. رأيتُ تألق عينيها الشريرتين. رأتني وحولت نفسها لطائر. صَرَخَتْ بألَمٍ بينما كانت تفعل ذلك. ««صَرَخَتْ بألم»، أيها السادة.»

قال أحد الحكماء: «جنون. هذا جنون.»

«ليس كذلك. الساحرة موجودة. بالطبع موجودة. لقد كنا جميعنا نعرف ذلك. لكن ما لم نعرفه أنها «مسنة». وأنها تشعر بالألم. وليس هذا فحسب، بل نعرف أين هي.»

جذب أنتين خريطة المرأة المجنونة من طرف حقيبته. ووضعها على الطاولة، متتبعًا الطريق بأصابعه.

«الغابة خطيرة بالطبع.» حدق الحكماء في الخريطة، وأخذ الشحوب يعلو وجوههم. لمح أنتين نظرة خاله وركز عليها.

بدا أن نظرات جيرلاند تقول لأنتين: «أدرك ما تُحاول فعله أيها الصبي.»

بادله أنتين النظرات. وكأنه يقول: «هكذا أُغير العالم يا خالي. فلتراقبني.»

جهرًا، قال أنتين: ««الطريق» الواقع تحت سيطرة الحكماء هو أكثر دربٍ مباشر عبر الغابة، وهو بالتأكيد الأكثر أمانًا، نظرًا لعرضه واتساعه ووضوحه. ومع ذلك، يوجد العديد من الطرق الأخرى التي يمكن المرور منها بأمان أيضًا، على الرغم من أنها ملتوية ومعقدة نوعًا ما.»

تتبع أنتين بأصابعه العديد من المُنفِّسات الحرارية، مُتجنبًا الحيود العميقة التي تُلقي بشظايا من الصخور الحادة كلما تنهَّد الجبل، ووجد طرقًا بديلة مرورًا بالمنحدرات الصخرية أو الينابيع الحارة أو المسطحات الطينية الرخوة. كانت الغابة تغطي سفوح جبل ضخم وعريض جدًّا، تلتف طياته العميقة ومُنحدراته القليلة الانحدار حول قمة ذات فوهة مركزية، ويُحيط بهذه القمة مرجٌ مسطحٌ ومستنقعٌ صغير. ورُسِمت في المستنقع شجرةٌ مُغضَّنة. وعلى الشجرة، نقش محفور هلالي الشكل.

كانت الخريطة تقول: «إنها هُنا. إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.»

قال الحكيم جينوت بصوت لاهث: «لكن من أين حصلت على هذه؟»

قال أنتين: «لا يهم. أنا مؤمن بأنها دقيقة. وأنا على أتم استعدادٍ لأن أُخاطر بحياتي بناءً على هذا الإيمان.» طوى أنتين الخريطة ووضعها في الحقيبة. «لهذا أنا هُنا، أيها الآباء الصالحون.»

شعر جيرلاند بأنفاسه تتلاحق لاهثة. وقال في نفسه: «ماذا لو كان هذا صحيحًا؟ ماذا بعد؟»

قال، وهو يستجمع ذاته الجشعة الوحشية وهو ينهض منتصبًا: «لا أعرف لماذا نزعج أنفسنا بهذا ...»

لم يتركه أنتين ينتهي من كلامه.

«أعرف، يا خالي، أن ما أطلبه خارج عن المألوف قليلًا. وربما تكون محقًّا. قد تكون هذه مهمة حمقاء. لكنني حقًّا لا أطلب الكثير على الإطلاق. لا أطلب سوى مباركتكم. لا أحتاج إلى أدوات ولا معدات ولا مؤن. زوجتي تعلم نواياي وتُساندني. في «يوم التضحية»، سيصل الحكماء إلى منزلنا، وستتخلى عن طفلنا الغالي طواعية. ستحزن «المحمية» كلها أثناء مروركم؛ بحر هائل من الأحزان. وستذهبون إلى تلك الأشجار الكريهة؛ التي تُعتبر خادمات الساحرة. وستضعون ذلك الرضيع فوق العشب وستظنون أنكم لن ترَوا هذا

الوجه مرة أخرى.» شعر أنتين بصوته يتهدج. أغمض عينَيه بقوة وحاول تمالك نفسه. «وربما يكون هذا صحيحًا. ربما أستسلم لمخاطر الغابة، وتكون الساحرة هي من يأتي لأخذ طفلي.»

كانت الغرفة هادئة وباردة. لم يجرؤ الحكماء على التحدُّث. بدا أنتين أطول منهم جميعًا. وكان وجهه منيرًا من الداخل، مثل مشكاة.

تابع أنتين: «أو ربما لا أستسلم. ربما أكون أنا من ينتظر عند تلك الأشجار. ربما أكون أنا من يأخذ الطفل من حلقة أشجار الجميز. ربما أكون أنا من يُحضر الطفل سالمًا إلى البيت.»

استطاع جينوت أخيرًا أن يستجمع صوته اللاهث. وقال: «ولكن ... ولكن، كيف أيها الصبي؟»

«إنها خطة بسيطة، أيها الأب الطيب. سوف أتبع الخريطة. وسأعثر على الساحرة.» كانت عينا أنتين سوداوين كقطعتي فحم. «وسأقتلها.»

الفصل الخامس والعشرون

لونا تَتَعَلَّمُ كلمةً جديدة

استيقظت لونا في الظلام بصداع مؤلِم. كان الصداع ينبع من نقطة صغيرة لا تتجاوز حجم حبةِ الرمل تقع خلف جبينها. لكنها شعرت وكأن العالم بأسره ينفجر خلف بصرها، جاعلًا ما أمام عينَيها يُضيء تارةً ويظلم تارة، ثم يضيء ثم يظلم. سقطت من فوق سريرها وارتطمت بالأرضية. كانت جدتها تُصدر شخيرًا فوق سريرها المتأرجح على الجانب الآخر من الغرفة، وكانت تستنشق كل نفس وكأنه يُصَفَّى من خلال حفنة من الوحل.

ضغطت لونا بيديها على جبينها، محاولة أن تمنع رأسها من أن ينفلق. شعرت بالحر، ثم شعرت بالبرد، ثم شعرت بالحر مرة أخرى. هل كانت يداها تتوهَّجان حقًّا، أم أنها كانت تتخيل ذلك؟ قدماها أيضًا.

قالت لاهثة: «ما الذي يحدث؟»

كانت «كاو» هي ما ينبغي على الغراب قوله من مكان جلوسه على النافذة. لكنه نعق: «لونا.»

همست: «أنا بخير.» لكنها كانت تعلم أنها ليست بخير. كانت تشعر وكأن كل عظمة من عظامها مصنوعة من الضوء. كانت عيناها ساخنتَين. وكان جلدها زلقًا ورطبًا. حاولت النهوض على قدمَيها وتعثرت أثناء خروجها من الباب، وهي تستنشق جرعات هائلة من هواء المساء أثناء خروجها.

كان القمر المتزايد قد سطع لتوِّه، وتلألأت السماء بالنجوم. دون أي تفكير في الأمر، رفعت لونا يديها إلى السماء، وتركت ضوء النجوم يتجمع على أصابعها. قربت لونا أصابعها، واحدة تلو الأخرى، من فمها، وتركت ضوء النجوم ينزلق في حلقها. هل فعلت هذا من قبل؟ لا يمكنها أن تتذكَّر. على أي حال، خفف هذا من صداعها وهدأ عقلها.

قال الغراب: «كاو.»

قالت لونا: «تعالَ»، وسارت في الدرب.

لم تكن لونا تنوي أن تسير نحو الصخرة القائمة في الحشائش الطويلة. لكنها فعلت ذلك. وسارت في هذا الاتجاه. أخذت تُحدق في هذه الكلمات المضاءة الآن بضوء النجوم.

قالت الصخرة: «لا تنسي.»

قالت جهرًا: «لا أنسى ماذا؟» خَطَت خطوة للأمام ووضعت يدها على الصخرة. على الرغم من تأخر الوقت والرطوبة، كانت الصخرة دافئة بغرابة. كانت تهتز وتُصدر نقرًا. حدقت في الكلمات.

قالت مرة أخرى: «لا أنسى ماذا؟» تأرجحت الصخرة وانفتحت كالباب.

قالت في نفسها، بعدما أدركت: «لا. ليس كالباب. بل كانت بابًا بالفعل.» بابًا مُعلَّقًا في الهواء. بابًا انفتح على ممرٍّ صخري مُضاء بالشموع، له سُلَّم يُفضي إلى ظلامٍ دامس.

شهقت لونا، قائلةً «كيف ...»، لكنها لم تتمكن من المتابعة.

قال الغراب: «كاو»، على الرغم من أنه بدا وكأنه يقول: «لا أظن أنه ينبغي عليكِ النزول إلى هناك.»

قالت لونا: «اصمت.» وتحركت إلى مدخل الصخرة وهبطت درجات السُّلَّم.

أفضت الدرجات إلى ورشة، تحتوي على مساحات عملٍ نظيفة ومُجهزة ورزَم كثيرة من الأوراق. وكتب مفتوحة. ودفتر تستقر على صفحاته ريشة كتابة على سنِّها الحاد بقعة من الحبر الأسود، وكأن شخصًا كان قد توقف في منتصف جملةٍ قبل أن يُقرر بعد تدبُّرٍ ألا يكتبها وينصرف على عجل.

نادت لونا: «مرحبًا. هل من أحدٍ هنا؟»

لم يُجب أحدٌ. لم يُجب سوى الغراب.

قال الغراب: «كاو.» لكنه بدا أشبه بقوله: «بحق السماء، يا لونا، دعينا نذهب من هُنا.»

حدقت لونا في الكتب والأوراق. بدت وكأنها كتابات لشخص مجنون؛ مجموعة متشابكة من الحلقات والبقع والكلمات التي لا تعني شيئًا.

تساءلت متعجبةً: «لِماذا يُزعِج شخصٌ نفسه بعمل كتاب مليء بالهراء؟»

سارت لونا عبر مُحيط الحجرة، وهي تُمرِّر يدَها فوق المنضدة الواسعة والطاولات الضيقة الملساء. لم تكن تُوجَد أتربة في أي مكان. ولا حتى بصمات أصابع. لم يكن الهواء فاسدًا، لكنها لم تستطع أن ترصد أي دليل على وجود حياة.

نادت مرة أخرى: «مرحبًا!» لم يتردَّد صدًى لصوتها، ولم ينتقل. بدا وكأنه سقط من فمها ببساطة واصطدم بالأرض بطرقةٍ خفيفة. كانت تُوجَد نافذة، وهو ما كان غريبًا، لأنها بالتأكيد كانت تحت الأرض، أليس كذلك؟ كانت قد نزلت درجات سُلَّم. ولكن الأغرب من ذلك، أن المشهد في الخارج كان لمنتصف النهار. والأغرب من هذا كله، أنه كان مشهدًا طبيعيًّا لم تتعرف عليه لونا. في الموضع الذي كان ينبغي أن توجد فيه فوهة بركان، كانت تُوجَد قمة جبلية. قمة جبلية يخرج الدخان من أعلاها، كمرجلٍ وُضِع ليغلي فترةً أطول من اللازم.

قال الغراب مرة أخرى: «كاو.»

همست لونا: «ثمَّة خطبٌ ما في هذا المكان.» انتصبت الشعرات في ذراعها، وبدأ أسفل ظهرها بالتعرُّق. وطارت ورقةٌ من رزمة الأوراق وحطَّت على يدها.

تمكنت من قراءة ما كان مكتوبًا عليها. كان مكتوبًا: «لا تنسَي.»

تساءلت: «كيف أنسى ما لا أعرفه من الأساس؟» لكن من الذي كان يسأل.

قال الطائر: «كاو.»

صرخت لونا: «لم يُخبرني أحدٌ بأي شيء!» لكن ذلك لم يكن صحيحًا. كانت تعرف أنه لم يكن صحيحًا. أحيانًا كانت جدَّتُها تُخبرها بأشياء، وأحيانًا كان جليرك يخبرها بأشياء، لكن كلماتهما كانت تطير من عقلها بمجرد أن تُنطَق. حتى في هذه اللحظة، كان بوسع لونا أن تتذكر أنها رأت كلماتٍ تُشبِهُ قصاصات الورق إذ ترتفع من قلبها وتحلق أمام عينَيها ثم تتبعثر بعيدًا، وكأنها عالقة في مهبِّ الريح. نادى قلبها بيأس: «عودي.»

هزَّت رأسها. وقالت جهرًا: «أنا أتصرف بسخافة. هذا لم يحدث قط.»

آلَمَها رأسها. كانت حبة الرمل الخفية تلك، التي كانت ضئيلة وغير محدودة، تنكمش وتتمدَّد في نفس الوقت. شعرت بأن رأسها يكاد ينفجر.

سقطت ورقة أخرى من رزمة الأوراق وحطت على يديها.

لم تكن أول كلمة في الجملة واضحة، أو لم تبدُ واضحة لها. وإنما بدت كبقعة ملطخة. بعد هذه الكلمة، كانت الجملة واضحة: «... الأكثر جوهرية، وعلى الرغم من ذلك، أقل مُكوِّن مفهوم في الكون المعلوم.»

حدقت فيها.

تساءلت: «ما هو الأكثر جوهرية؟» قربت لونا الورقة من وجهها. «أظهري نفسكِ!»

وفجأة، بدأت حبة الرمل الموجودة خلف جبينها تلين وتهدأ، قليلًا فقط. حدقت في الكلمة، وشاهدت الحروف تخرج من التشابك، وأخذت تقرأ كلَّ حرفٍ أثناء ظهوره.

نطقت: «سين. – حاء – راء.» هزت رأسها. «ما هذا بحق السماء؟»

هدر صوت في أُذنَيها. التمعت دفقات ضوء خاطفة من مؤخرة عينيها. سين، حاء، راء. هذه الكلمة تعني شيئًا. كانت متأكدة من أنها تعني شيئًا. والأكثر من هذا، أنها كانت متأكدة من أنها سمِعَتها من قبل؛ مع أنها، رغم جهودها الحثيثة، لم تتذكَّر أين. في الواقع، استطاعت بصعوبةٍ شديدة أن تعرف كيف تنطقها.

بدأت تنطقها، ولسانها يُصبح ثقيلًا جدًّا: «سسسسس».

قال الغراب مشجعًا: «كاو.»

قالت مرة أخرى: «سسسسس.»

نعق الغراب بسعادة غامرة: «كاو، كاو، كاو.» أي: «لونا، لونا، لونا.»

لفظت لونا: «سسسسسِحر.»

الفصل السادس والعشرون

المرأة المجنونة تتعلم مهارةً وتستخدمها

عندما كانت المرأة المجنونة فتاةً صغيرة، كانت ترسم صورًا. وكانت أمها تحكي لها حكايات عن الساحرة التي تعيش في الغابة؛ حكايات لم تكن متأكدة على الإطلاق من صحتها. وفقًا لما روَتْه أمُّها، كانت الساحرة تقتات على الحزن، أو الأرواح، أو البراكين، أو الأطفال، أو السحرة الشجعان الصغار. ووفقًا لما روتْه أمها، كانت الساحرة تمتلك حذاءً أسود كبيرًا طويل الرقبة يُمكِّن مُرتديه من قطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة. ووفقًا لما روتْه أمها، كانت الساحرة تمتطي ظهر تنين وتعيش في برجٍ عالٍ جدًّا لدرجة أنه يكاد يخترق السماء.

لكن أم المرأة المجنونة قد ماتت. أما الساحرة، فلم تمُت.

وفي سكون «البرج»، عاليًا فوق الضباب القاتم المُخيِّم على المدينة، شعرت المرأة المجنونة بأشياء لم تستطع أن تشعر بها مطلقًا قبل سنواتها هناك. وعندما كانت تشعر بأشياء، كانت ترسُمها. كانت ترسُمها مرارًا وتكرارًا.

كل يوم، تأتي «الأخوات» إلى زنزانتها دون سابق إنذار ويُطقطِقن بألسنتهن استنكارًا لدى رؤيتهن لكمية الأوراق المهولة في الغرفة. كان بعض الأوراق مطويًّا على هيئة طيور. وكان بعضها مطويًّا على هيئة أبراج. وبعضها طُويَ على هيئة أشكالٍ شبيهة بالأخت إجنيشا، ثم داست عليه المرأة المجنونة بقدمَيها العاريتَين. كانت الأوراق مغطاة بشخبطة. وبصور. وبخرائط. كل يوم، كانت «الأخوات» ينقلنَ إلى خارج الزنزانة حِمل ذراعٍ من الأوراق، كي تُسحق وتُنقع ويُعاد تحويلها إلى أوراقٍ مرة أخرى في ورش التجليد في البدروم.

تساءلت الأخوات: «لكن، من أين يأتي هذا الورق أصلًا؟»

أرادت المرأة المجنونة أن تقول لهن: «هذا سهل جدًّا. ليس عليكن إلا أن تُصَبْن بالجنون. فالجنون والسحر متصلان، في نهاية الأمر. أو أظن أنهما كذلك. كل يوم، يُعاد ترتيب العالم وتشكيله. كل يوم أجد شيئًا لامعًا في الأنقاض. أوراقًا لامعة. حقيقة لامعة، سحرًا لامعًا. لامعًا، لامعًا، لامعًا.» كانت تعلم بكل أسًى أنها مجنونة. وقد لا تُشفى أبدًا.

في أحد الأيام بينما كانت جالسةً على الأرضية مُتربعةً في منتصف الزنزانة، كانت قد عثرت على حفنة من الريش تركتها أنثى سنونو كانت قد قرَّرت أن تبني عشَّها على عتبة نافذة الزنزانة الضيقة، وذلك قبل أن يُقرِّر أحد الصقور أن يتخذ السنونو وجبةً خفيفة. انجرف الريش ودخل عبر نافذة المرأة المجنونة وسقط على الأرضية.

شاهدت المرأة المجنونة الريش وهو يتساقط. حطت الريشات على الأرضية أمامها مباشرةً. حدقت فيها؛ في النصل والجزء المُدبب والزغب. ثم تمكنت من رؤية التراكيب الأصغر؛ الذرَّ والقصيبات والخلايا. راحت ترى التفاصيل الأصغر فالأصغر، حتى تمكنت من رؤية كل جسيم، يدور حول نفسه مثل مجرةٍ ضئيلة. في نهاية المطاف، كان جنونها بقدْر دِقة التفاصيل التي تراها. حرَّكت الجسيمات عبر الفراغ الواسع بينها، في هذا الطريق وذاك، حتى انبثق شيءٌ جديد بالكامل. لم يعُد الريش ريشًا. صار ورقًا.

تحول الغبار إلى ورق.

تحول المطر إلى ورق.

أحيانًا كان عشاؤها يتحول، هو الآخر، إلى ورق.

وكل مرة، كانت ترسم خريطة. وتكتب «إنها هُنا» مرارًا وتكرارًا.

لم تقرأ أي من «الأخوات» خرائطها. ولم تقرأ أي منهن كلماتها. في نهاية المطاف، لم تُزعج أيٌّ منهن نفسها بكلمات المجنونة. كن يسحقنَ أوراقها ويصنعنَ منها عجينًا يبعنَه في السوق مقابل مبلغٍ معتبَر من المال.

وما إن أتقنت فنَّ تشكيل الورق، حتى وجدت أن من السهل للغاية تحويل أشياء «أخرى» أيضًا. صار سريرها قاربًا لفترةٍ قصيرة. وصارت قضبان نوافذها شرائط. وصار الكرسي الوحيد في الزنزانة قطعةً من الحرير، لفَّتها حول نفسها مثل شال، لمجرد أن تستمتع بملمسها. وأخيرًا وجدت أنه يمكنها تحويل نفسها أيضًا، إلا أنها لم تتمكن من تحويل نفسها إلا إلى أشياء صغيرةٍ جدًّا، وللحظات قليلة فحسب. كانت تحولاتها مُجهِدة للغاية لدرجة أنها جعلتها تُلازم الفراش لأيام.

جُدجُد.

عنكبوت.

نملة.

كان يتعين عليها توخي الحذر كي لا تتعرض للدهس. أو للسحق.

حشرة ماء.

صرصور.

نحلة.

كما كان يتعين عليها أن تتأكد من أن تعود إلى زنزانتها عندما تشعر أن روابط ذراتها تبدو على وشك التفجر والتفكُّك. وبمرور الوقت، أصبح بإمكانها أن تتخذ شكلًا معينًا لفترات تتزايد ببطء. كانت تأمُل أن تتمكن يومًا ما من الاحتفاظ بهيئتها على صورة طائر لمدةٍ تكفي للعثور على طريق يوصلها إلى وسط الغابة.

يومًا ما.

لم يحِن ذلك اليوم بعد.

بدلًا من ذلك، تحوَّلت إلى خنفساء. صلبة. ولامعة. ركضت فرارًا مباشرةً من تحت أقدام «الأخوات» اللاتي يحملنَ القوس والنشاب، وأسرعت تنزل درجات السُّلَّم. تسلَّقت على أصابع أقدام فتًى جبان يؤدي مهام «الأخوات» اليومية؛ يا له من فتًى مسكين. كان يخاف من خياله.

سَمِعَتْ «رئيسةَ الأخوات» تصيح من آخِر الردهة: «يا ولد! كم من الوقت علينا انتظار الشاي؟»

تذمَّر الصبي، وجمَّع الأطباق والمخبوزات فوق صينية مُحدثًا ضجة هائلة، وأسرع يمضي في الردهة. كل ما تمكنت المرأة المجنونة من فعله كان التشبث بأربطة حذائه طويل الرقبة.

قالت «رئيسة الأخوات»: «أخيرًا.»

وضع الفتى الصينيةَ على المنضدة مُحدثًا صوت ارتطام هائل.

قالت «رئيسة الأخوات» بصوتٍ مدوٍّ: «اخرج! قبل أن تُدمِّر شيئًا آخر.»

أسرعت المرأة المجنونة أسفل المنضدة، مُمتنة لوجود الظلال. تعاطفت مع الصبي المسكين وهو يخرج متعثرًا ويُطبِق يدَيه معًا كأنهما احترقتا. أخذت «الأخت» نفَسًا عميقًا عبر أنفها. ودققت النظر. حاولت المرأة المجنونة أن تُصغِّر حجمَها بقدر الإمكان.

سألت «الأختُ» الرجل الجالس في الكرسي المقابل: «هل تَشَم شيئًا؟»

كانت المرأة المجنونة تعرف هذا الرجل. لم يكن يرتدي عباءته. وإنما كان يرتدي قميصًا أنيقًا من قماشٍ رائع ومعطفًا من أخفِّ أنواع الصوف. فاحت من ملابسه رائحة النقود. ازداد جلده تغضُّنًا عن آخر مرة رأته فيها. كان وجهه متعبًا وبدت عليه علامات التقدم في العمر. تساءلت المرأة المجنونة عما إذا كانت تبدو مثله. كان قد مر وقتٌ طويلٌ جدًّا، طويل جدًّا جدًّا، منذ آخر مرة رأت فيها وجهها.

قال كبير الحكماء: «لا أشَم أي رائحة يا سيدتي. باستثناء الشاي والكعك. وعطرك الممتاز، بالطبع.»

قالت المرأة: «لا داعي لإطرائي، أيها الشاب»، رغم أن كبير الحكماء كان أكبر سنًّا منها بكثير. أو هكذا كان يبدو.

عندما رأتها المرأة المجنونة تجلس بجوار كبير الحكماء، أدركت أنه لم يبدُ على الأخت إجنيشا أي تقدمٍ في العمر على الإطلاق.

تنحنح الرجل المسن. «وهذا يأخذنا إلى سبب مجيئي إلى هُنا، يا سيدتي العزيزة. لقد فعلت ما أمرتِني به. وعرفت ما يُمكنني أن أعرفه، وفعل الحكماء الآخرون الأمر نفسه. وفعلت كل ما بوسعي لأُثنيه، لكن هذا لم يُجدِ نفعًا. لا يزال أنتين ينوي اصطياد «الساحرة».»

«هل اتبع نصيحتك، على الأقل؟ هل احتفظ بخططه طيَّ الكتمان؟» كان صوت الأخت القائدة ينطوي على شيءٍ أدركتْه المرأة المجنونة. إنه الأسى. كان يمكنها أن تتبيَّن ذلك الصوت في أي مكان.

«بكل أسف، لا. الناس يعرفون. لا أعرف من أخبرهم؛ هو أم زوجته السخيفة. إنه يؤمن بإمكانية تحقيق مسعاه، ويبدو أنها تؤمن بذلك أيضًا. وآخرون الآن يؤمنون بالأمر نفسه. جميعهم ... «يأملون».» قال الكلمة وكأنها أكثر الأقراص الطبية مرارة. وارتجف كبير الحكماء.

تنهدت «الأخت». نهضت وأخذت تذرع الغرفة. «أحقًّا لا تشَم تلك الرائحة؟» ارتجف كبير الحكماء، وهزت «الأخت» رأسها. «لا يهم. على الأرجح، ستقضي عليه الغابة. لم يسبق له أن حاول الذهاب في رحلةٍ كهذه. وليست لدَيه مهارات. وليست لدَيه أي فكرة عما يفعله. ووفاته ستحُول دون طرح المزيد من الأسئلة «المزعجة». ومع ذلك، من المُحتمل «أن يعود». وهذا ما يقلقني.»

تخطت المرأة المجنونة الظلال بقدْر ما سمحت لها شجاعتها. رأت حركات الأخت تصبح أكثر حدةً واضطرابًا. ورأت بقعةً من الدموع تلتمِع عند جفنَيها السُّفليين.

«هذه مجازفة كبيرة جدًّا.» تنفست كي تتمالك نفسها. «ولا تغلق الباب في وجه التساؤلات. حتى وإن عاد بخُفَّي حُنين، فهذا لا يعني أنه لا يُوجد «شيء» يمكن أن يعثر عليه مواطن آخر طائش لدرجة تجعله يقصد الغابة. وإذا لم يعثر «ذلك» الشخص على شيء، فربما يحاول شخص «آخر» أيضًا. وسرعان ما تتحول تلك الأخبار عن «عدم وجود شيء» إلى أخبار عن «وجود شيء». وسرعان ما تبدأ «المحمية» في استنباط أفكار.»

لاحظت المرأة المجنونة أن وجه الأخت إجنيشا كان شاحبًا. شاحبًا ومجهدًا. كما لو كانت تموت جوعًا ببطء.

صمت كبير الحكماء للحظةٍ طويلة. ثم تنحنح. وقال: «أظن يا سيدتي العزيزة ...». وخمد صوته. وصمت مرةً أخرى. ثم تابع: «أظن أن واحدة من «الأخوات» يمكنها قتله. حسنًا. إن كان يمكنها.» ابتلع ريقَه. كان صوته ضعيفًا.

«هذا ليس سهلًا على أيٍّ مِنا. يُمكنني ملاحظة أنك تُكنُّ بعض المشاعر للصبي. بالفعل، حزنك ...» انقطع صوت «الأخت»، وخرج لسانها بسرعة ثم عاد يختفي داخل فمها. أغمضت عينيها وتورَّد خدَّاها. وكأنها كانت قد تذوَّقت للتو ألذَّ نكهة في العالم. «حزنك حقيقي جدًّا. لكن لا يمكن فعل شيءٍ حيال ذلك. لا يمكن للصبيِّ أن يعود. ولا بد أن يبدوَ واضحًا للجميع أن «الساحرة» هي من قتلته.»

اتَّكأ كبير الحكماء بتثاقل على أريكةٍ في مكتب «الأخت». كان وجهه شاحبًا ومجهدًا. رفع عينَيه للسقف. على الرغم من أن المرأة المجنونة كانت ترصد المشهد من زاوية محدودة، تمكنت من ملاحظة أن عينَيه كانتا مُبتلَّتَين.

سأل بصوت أجشَّ: «أيُّهنَّ؟ أيهن ستفعلها؟»

سألت «الأخت»: «هل هذا يهم؟»

«مُهم لي.»

نهضت الأخت إجنيشا، وهُرعت نحو النافذة، وأطلَّت للخارج. انتظرت للحظة طويلة. وأخيرًا قالت: «كما تعلم، جميع «الأخوات» مدربات جيدًا ومُتمكنات. ليس ... من «المعتاد» أن تتغلب المشاعر على أيٍّ منهنَّ وتؤثر فيها. ولكن هذا لا يعني أن المهمة سهلة. فجميعهن اهتمَمْنَ بأمر أنتين أكثرَ من أيٍّ من صبيان «البرج» الآخرين. لو كان أي شخص آخر، كنتُ سأرسِل أيَّ أختٍ وكانت ستنتهي من الأمر. في هذه الحالة ... — تنهدت والتفتت مواجِهةً كبير الحكماء — «... سأفعلها بنفسي».»

فرك جيرلاند عينَيه كي يتخلَّص من الدموع وثبَّت ناظريه على «الأخت».

«هل أنتِ متأكدة؟»

«أجل. ويمكنك أن تطمئن: سأجعلها ميتة سريعة. سيكون موته بدون أَلَم. لن يعلم بمقدمي. ولن يعلم بما أصابه.»

الفصل السابع والعشرون

لونا تعرف أكثر مما تمنَّت

كانت الجدران الصخرية قديمة ورطبة بشكلٍ لا يُصدَّق. ارتعشت لونا. مدت أصابعها ثم ثنتْها وقبضَتْها، وأخذت تقبض يدَيها وتبسطهما، محاوِلةً أن تجعل الدم يتدفق فيهما. شعرت بأن أطراف أصابعها كالثلج. وظنَّت أنها لن تشعر بالدفء أبدًا.

دارت الأوراق في حركةٍ دوَّاميةٍ حول قدمَيها. وزحفت دفاتر كاملة لأعلى الجدران المتداعية. تحررت الكلمات المكتوبة بالحبر من الصفحات وزحفت على الأرض مثل البق قبل أن تعود أدراجها إلى الأوراق، وهي تثرثر جميعها في نفس الوقت. اتضح أنه كان لدى كل كتابٍ وكل ورقةٍ ما تقوله. تمتمت الكتب والأوراق وثرثرت؛ كانت تتحدث مقاطعةً الباقِين، وتداخلت أصواتها معًا.

صاحت لونا، وهي تضغط بيدَيها على أُذنيها: «صمتًا.»

تمتمت الأوراق: «نعتذر.» تبعثرت وتجمعت، ودارت في دوَّامات هائلة، وتحركت كالموج في أرجاء الغرفة.

أمرت لونا: «كلٌّ في دوره.»

قال الغراب، موافِقًا: «كاو.» وكانت تعني: «وبدون حماقة.» امتثلت الأوراق.

أكدت الأوراق أن السحر جدير بالدراسة.

وجدير بالمعرفة.

وعلمت لونا أنه من أجل ذلك، أنشأت مجموعة من السحرة والساحرات والباحثين، الذين كرسوا جميعهم حياتهم من أجل الحفاظ على السحر واستمراره وفهمه، مقرًّا للتعلم والدراسة في القلعة القديمة المُحيطة بالبرج الأقدم في وسط الغابة.

علمت لونا أن واحدةً من الباحثات، وهي امرأة طويلة على قدْرٍ لا بأس به من القوة (وأحيانًا كانت الطرق التي تستخدمها مُثيرة للدهشة) كانت قد أحضرت طفلةً من

الغابة. كانت الطفلة صغيرة ومريضة ومصابة. تُوفِّي والداها، أو هذا ما قالته المرأة، ولماذا ستكذب؟ كان قلب الطفلة مفطورًا؛ كانت تنتحب دون توقف. كانت مثل نافورة من الأحزان. قرَّر الباحثون ملء تلك الطفلة بالسحر إلى حدِّ الانفجار. دمجوا السحر في جلدها وعظامها ودمها وحتى شعرها. أرادوا معرفة ما إذا كان «بإمكانهم» فعل هذا. أرادوا معرفة إذا كان هذا «ممكنًا». افترضت نظريةٌ أن البالِغ هو فقط من يمكنه استخدام السحر، أما الطفل فيمكن أن «يُصبح» هو نفسه السحر. لكن هذه العملية لم تكن قد اختُبِرَت من قبل أو رُصِدَت، من الناحية العلمية. لم يكتب أحدٌ نتائج أو يستخلص استنتاجات. كل الأدلة المعروفة كانت لا يُعتَمَد عليها في أفضل الأحوال. كان الباحثون مُتعطِّشين للفهم، لكن بعضهم احتجَّ على ذلك، بحجَّةٍ أنه قد يقتُل الطفلة. البعض الآخر رأى أنه لو لم يكونوا قد وجدوا الطفلة، لكانت قد ماتت على أي حال. إذن ما الضرر في ذلك؟

لكن الطفلة لم تمُت. وإنما اندمج السحر في كل خليةٍ من خلايا الطفلة، وأخذ ينمو. نما أكثر فأكثر. كانوا يشعرون به عندما يلمسونها. كان يطنطن تحت جلدها. كان يملأ الفجوات بين أنسجتها. وكان يعيش في المساحات الفارغة في ذرَّاتها. وكان يطنُّ في انسجامٍ في كل خيطٍ ضئيل من خيوط المادة. كان سِحرها هو الجُسيم والموجة والحركة. الأرجحية والاحتمال. انثنى السحر وتموَّج وانطوى على نفسه. واندمج فيها بكاملها.

لكن باحثًا واحدًا، وهو ساحر كهل اسمه زوسيموس، عارضَ بشدة سِحر الطفلة وعارض أكثرَ استمرارَ العملِ على هذا. كان هو نفسه قد حُوِّل إلى ساحرٍ وهو ولدٌ صغير، وكان يعرف عواقب هذا الفعل، بما في ذلك حالات هياج غريبة، واضطرابات في التفكير، والامتداد الشنيع لمدى العمر. سمع الطفلة تنشج في الليل، وكان يعرف ما يمكن أن يفعله البعض بذلك الحزن. كان يعلم أنه ليس جميع من كانوا يعيشون في القلعة صالحين.

لذا وضع حدًّا للأمر.

أعلن نفسه وصيًّا على الفتاة وربط مصيره بمصيرها. وكان لهذا تَبِعاته أيضًا.

حذر زوسيموس الباحثين الآخرين من مُخطط زميلتهم، «آكلة الحزن». كل يوم، كانت قوتها تزداد. وكل يوم، كان نفوذها يتَّسِع. كانت تحذيرات زوسيموس المُسن تُصَب في آذانٍ صمَّاء. كتب الرجل المُسنُّ اسمها برعشةٍ نابعة من خوف.

(وكذلك، ارتعشت لونا، التي وقفت في تلك الغرفة تقرأ القصة مُحاطة بتلك الأوراق.)

وكبرت الفتاة. وتزايدت قواها. وكانت مُندفعةً وأحيانًا أنانية، كحالِ الأطفال عادةً. ولم تلاحظ عندما بدأ زوسيموس الذي أحبَّها، زوسيموس العزيز، في الذبول تدريجيًّا. أخذ يشيخ. ويضعف. ولم يلحظ أحد ذلك. إلا بعد فوات الأوان.

همست الأوراق في أذن لونا: «إننا فقط نأمُل في أنه عندما تُقابل الفتاةُ «آكلةَ الحزن» مرةً أخرى، تكون قد أصبحت أكبر وأكثر ثقةً في نفسها. نأمل في أنها، بعد تضحيتنا، ستعرف ما عليها فعله.»

سألت لونا الأوراق: «لكن من هي؟ من كانت هذه الفتاة؟ هل يمكنني تحذيرها؟»

قالت الأوراق وهي تهتز في الهواء: «أوه. ظننا أننا أخبرناكِ بالفعل. اسمها زان.»

الفصل الثامن والعشرون

أشخاص عديدون يذهبون إلى الغابة

جلست زان بجوار المدفأة، وهي تبرم مريولها من هنا لهناك إلى أن تحول بالكامل إلى عُقد.

كان ثمة شيء في الجو. كان يمكنها الشعور بذلك. وكان ثمة شيء غاضب تحت الأرض، يَطِنُّ ويُدَمدِم. كان يمكنها الشعور بذلك أيضًا.

كان ظهرها يؤلِمها. وكانت يداها تؤلمانها. وكانت ركبتاها وفخذاها وكوعاها وكاحلاها وكل عظمة من عظام قدمَيها المنتفختَين تؤلمها ألمًا مُمِضًّا. وإذ أخذت كل دقة، وكل نبضة، وكل ثانية تنتج عن حركة تروس ساعة عمر لونا تُقربها جميعًا من النقطة التي يشير فيها كل عقرب إلى العدد ١٣، كان بوسع زان أن تشعر بأنها تنحف وتتضاءل وتتلاشى. كانت خفيفة وهشَّة كورقة.

قالت في نفسها: «ورق. حياتي مصنوعة من الورق. طيور ورقية. خرائط ورقية. كتب ورقية. دفاتر ورقية. كلمات وأفكار ورقية. كل شيء يتلاشى ويتمزق ويزول ويصبح عدمًا.» تمكنت من تذكُّر زوسيموس — العزيز زوسيموس! كم كان يبدو قريبًا منها الآن! — وهو ينحني على رزَم أوراقه بست شمعات تحترق لتضيء حول مُحيط مكتبه، مُدَوِّنًا معرفته على الحيز الخشن الخالي.

قالت زان في نفسها: «حياتي كُتِبت على الورق وحُفظت على الورق؛ كل أولئك الباحثين الدمويين كتبوا تعليقاتهم وأفكارهم وملاحظاتهم. لو كنتُ قد توفيتُ، كانوا سيدوِّنون نهايتي على الورق دون أن يذرفوا دمعةً واحدة. وها هي لونا، حالها نفس الحال الذي كنتُ عليه. وها أنا أتمسك بالكلمة الوحيدة التي يمكنها تفسير كل شيء، ولا يمكن للفتاة أن تقرأها أو حتى تسمعها.»

لم يكن هذا عدلًا. ما فعله رجال القلعة ونساؤها مع زان لم يكن عدلًا. وما فعلته زان مع لونا لم يكن عدلًا. وما فعله مواطنو «المحمية» مع أطفالهم الرُّضَّع لم يكن عدلًا. لم يكن أي من هذا عدلًا.

نهضت زان وأطلت من النافذة. لم تكن لونا قد عادت بعد. لعل ذلك كان خيرًا. ستترك لها رسالةً قصيرة. فمن الأسهل قول بعض الأشياء على الورق على أي حال.

لم يسبق أن غادرت زان مبكرًا لأخذ طفل «المحمية». لكنها لم تستطع أن تجازف بأن تتأخر. لا سيما بعد ما حدث آخِر مرة. وكذلك لم تستطع أن تجازف بأن يراها أحد. كانت عمليات التحول صعبة، وتعيَّن عليها أن تقاوم احتمال أنها قد لا تمتلك القوة لإبطال هذا التحول. وقد ينتج عن هذا مزيدٌ من التبعات.

زرَّرت زان معطفها الفضفاض وأدخلت قدميها في حذاء متين طويل الرقبة وحزمت حقيبتها المتلئة بزجاجات الحليب وملابس ملساء جافة وقليل من الطعام لنفسها. همست بتعويذة كي تمنع اللبن من أن يفسد وحاولت تجاهل القدر الذي كانت التعويذة تستنزف به طاقتها وحيويتها.

تمتمت في نفسها: «أي طائر؟ أي طائر، أي طائر؟» فكرت في تحويل نفسها إلى غراب والاستفادة من براعته، أو إلى عُقاب والاستفادة من قدرته على القتال. كذلك بدا تحويل نفسها إلى طائر القطرس، بما له من قدرة على التحليق بدون مجهود، فكرةً جيدةً، عدا أن نقص الماء قد يعيق قدرتها على الإقلاع والهبوط. في النهاية اختارت طائر السنونو؛ فمع صغر حجمه وضعفه، إلا أنه بارع في الطيران وله عينان ثاقبتان. سيتعين عليها أن تتوقف لأخذ فترات استراحة، وطائر السنونو صغير الحجم وبُني ويكاد ألا يكون مرئيًّا للحيوانات المفترسة.

أغمضت زان عينيها وضغطت بقدميها على الأرض وشعرت بالسحر يتدفق في عظامها الهشة. شعرت بأنها أصبحت خفيفة وصغيرة الحجم وثاقبة الرؤية. أصبح لها عينان لامعتان، وأصابع أقدام رشيقة، ومنقار حادٌّ جدًّا. حركت جناحَيها، شاعرة في أعماق نفسها بحاجتها الملحة إلى الطيران التي ظنت أنها ستموت بسببها، وبصرخة مدوية حزينة نابعة من الوحدة وافتقادها للونا، رفرفت وطارت في الهواء وعبرت فوق قمم الأشجار.

كانت خفيفة كالورقة.

انتظر أنتين ميلاد طفلهما قبل أن يبدأ رحلته. كان «يوم التضحية» لا يزال بعد أسابيع، لكن لن يولد المزيد من المواليد في الفترة التالية. كان زهاء أربعة وعشرين امرأة حاملًا في «المحمية»، لكن بطون جميعهن كانت بالكاد قد بدأت تبرز. ومن ثَم كُنَّ سيلدنَ بعد شهور، وليس أسابيع.

كانت الولادة سهلة. أو هكذا زعمت إيثين. لكن في كل مرة كانت تصرخ، كان أنتين يشعر بأنه يموت في داخله. كانت الولادة صاخبة وفوضوية ومخيفة، وشعر أنتين أنها استغرقت عمرًا كاملًا أو يزيد، على الرغم من أنها في الحقيقة لم تستغرق سوى معظم ساعات النهار. وخرج المولود للعالم يصرخ وقت الغداء. قالت القابلة: «سيد نبيل بحق. خرج إلى العالم في أكثر ساعة مقبولة من اليوم.»

أطلقا عليه اسم لوكين واندهشا من أصابع قدمَيه الدقيقة ويدَيه الضعيفتَين وعينَيه المثبَّتتين على وجهيهما. قبَّلا ثغرَه الصغير، الباحث، الذي لم يتوقف عن العواء.

لم يسبق لأنتين أن كان واثقًا مما عليه فعله كما كان الآن.

غادر صبيحة اليوم التالي، قبل شروق الشمس بوقتٍ كافٍ، عندما كانت زوجته وطفله لا يزالان نائمين في السرير. لم يستطع أن يتحمل الوداع.

وقفت المرأة المجنونة في نافذتها، وهي تسند وجهها على القضبان. رأت الشاب يتسلل خارجًا من المنزل الهادئ. كانت قد ظلَّت تنتظره لساعات. لم تعلم ما الذي جعلها تنتظره، كل ما تعرفه أنها انتظرته. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وكانت النجوم متَّقدة وواضحة، تلمع عبر السماء مثل زجاج مكسور. رأته يتسلَّل خارجًا من الباب الأمامي لمنزله ويغلقه بهدوء خلفه. رأته وهو يضع يدَه على الباب وضغط براحته على الخشب. للحظة، ظنَّت أنه قد يُغير رأيه ويعود للداخل، لأسرته التي تنام في الظلام. لكنه لم يفعل. أغمض عينَيه بإحكام، وأطلق تنهيدةً عميقةً، واستدار على عقبَيه، مسرعًا في الدرب المظلم نحو الموضع الذي يكون فيه تسلق جدار المدينة أقل صعوبة.

أرسلت له المرأة المجنونة قبلةً مُتمنيةً له حسن الطالع. رأته يتوقف ويرتعش عندما أصابته القبلة. ثم تابع طريقه، بخطوات أخفَّ بشكلٍ ملحوظ. ابتسمت المرأة المجنونة.

كانت تُوجَد حياة كانت تعرفها فيما مضى. وكان يُوجَد عالَم اعتادت أن تعيش فيه، لكن لم يعد بوسعها أن تتذكره. كانت حياتها من قبل لا قيمة لها مثل دخان. عاشت، بدلًا من هذه الحياة، في هذا العالم المصنوع من الورق. الطيور الورقية والخرائط الورقية والأشخاص المصنوعين من الورق، والأتربة والحبر ولباب الخشب والزمن.

سار الشاب في الظلال، يتفحص هذا الطريق وذاك ليرى إن كان أحد تَبِعَه. كان يحمل على ظهره حقيبة وفراشًا يُلفُّ للحمل. وعباءة من شأنها أن تكون حملًا ثقيلًا للغاية خلال ساعات النهار ولن تبعث ما يكفي من الدفء في الليل. ويتأرجح عند خاصرته، سكين طويل حاد.

همست المرأة المجنونة: «يجب ألَّا تذهب بمفردك. ثمة أخطار في الغابة. وثمة أخطار هُنا ستتبعك إلى الغابة. ويُوجَد شخص أخطر مما يمكنك أن تتخيل.»

عندما كانت فتاة صغيرة، سمعت قصصًا عن الساحرة. قيل لها إن الساحرة تعيش في الغابة، وتمتلك قلب نمر. لكن القصص كانت خاطئة، وحُرفت الحقيقة التي كانت لديهم. فالساحرة كانت هُنا، في «البرج». وعلى الرغم من أنها لم تكن تمتلك قلب نمر، كان يمكنها أن تمزقك إلى أشلاء إن سنحت لها الفرصة.

حدقت المرأة المجنونة في القضبان الحديدية للنافذة حتى لم تعد تُوجَد قضبان حديدية على الإطلاق، وإنما قضبان ورقية. مزقتها إلى قصاصات. ولم تعُد الصخور المحيطة بفتحة النافذة صخورًا، بل صارت مجرد كُتَلٍ من اللباب. أزاحتها بيديها عن الطريق.

تمتمت الطيور الورقية حولها ورفرفت ونعقت. فتحت أجنحتها. بدأت أعينها تلمع وتفتش. ارتفعت معًا وكأنها طائر واحد وتدفقت من خلال النافذة، حاملةً المرأة المجنونة على ظهورها المجتمعة، وطارت في سكون نحو السماء.

اكتشفت الأخوات هروب المرأة المجنونة بعد الفجر بساعة. كانت تُوجَد فِرَق لتوجيه الاتهامات ووضع تفسيراتٍ وفرق تفتيش وبحث جنائي وفرق مُحقِّقين. عوقب المسئولون عن ذلك. كانت عملية التمشيط مهمة طويلة وكريهة. لكنها كانت صامتة بالتأكيد. لم تستطع «الأخوات» تحمُّل تبعات ترك خبر الهروب يتسرب إلى «المحمية». كان آخر شيء يُرِدنه أن يُسمح للعامة بأن تخطُر لهم أفكار. فالأفكار، في نهاية المطاف، خطيرة.

أمر جيرلاند كبير الحكماء بعقد اجتماعٍ مع الأخت إجنيشا قبل الغداء مباشرةً، على الرغم من ادعاءاتها بالصعوبة البالغة لإجرائه اليوم.

دوَّى صوت كبير الحكماء وهو يسير إلى مكتبها: «لا تُهمُّني تعقيداتك النسائية.» هرولت الأخوات الأخريات مُبتعدات، وهن يرمقنَ كبير الحكماء بنظراتٍ قاتلة، لحسن الحظ أنه لم يُلاحظها.

شعرت الأخت إجنيشا أنه من الأفضل ألا تذكر هروب السجينة. بدلًا من ذلك، طلبت الشاي والبسكويت واستقبلت كبير الحكماء، الذي كان يستشيط غضبًا، بحسن ضيافة.

قالت: «من فضلك، قل لي، يا عزيزي جيرلاند. ما الأمر؟» ورمقته بعينَيها الضاريتَين المتواريتَين تحت قلنسوتها.

قال جيرلاند بإرهاق: «لقد وقع الأمر.»

دون وعي منها ألقت الأخت إجنيشا نظرةً سريعةً في اتجاه الزنزانة التي أصبحت فارغةً الآن. وسألت: «أي أمر؟»

«ابن أختي. غادر هذا الصباح. وزوجته ورضيعه يحتميان في منزل أختي.»

بدأت الأفكار تتسارع في عقل الأخت إجنيشا. لا يمكن أن يكون ثمة رابط بين هذين الاختفاءين. لا يمكن هذا. كانت ستعرف ... أليس كذلك؟ لقد كان يُوجد، بالتأكيد، انخفاض ملحوظ في الحزن المتاح من المرأة المجنونة. لكن الأخت إجنيشا لم تفكر في هذا كثيرًا. فمع أنه من المُزعج أن يُصبح المرء جائعًا في بيته، كانت تُوجَد دومًا وفرة من الحزن في أنحاء «المحمية»، يُخيِّم على المدينة كغيمة.

أو أنه عادةً ما كان موجودًا. لكن هذا «الأمل» العاصف الذي أثاره أنتين كان ينتشر في أنحاء المدينة، مُعطلًا الحزن. شعرت إجنيشا بمعدتها تقرقر.

ابتسمت ونهضت واقفة. وضعت يدَها برفقٍ على ذراع كبير الحكماء، وضغطت عليه بحنو. اخترقت أظافرها الطويلة الحادة عباءته كمخالب النمر، وهو ما جعله يصرخ من الألم. ابتسمت وقبَّلت خدَّيه. قالت: «لا تخف يا صغيري. دع أنتين لي. الغابة مليئة بالمخاطر.» جذبت قلنسوتها لتُغطي رأسها وخطت نحو الباب. قالت: «سمعتُ أنه تُوجَد ساحرة في الغابات. هل علمتَ بذلك؟» واختفت في الردهة.

قالت لونا: «لا. لا، لا، لا، لا.» أمسكت بالرسالة القصيرة من جدَّتِها في يدَيها لبرهة قبل أن تُمزقها إلى قصاصات. حتى إنها لم تقرأ ما بعد الجملة الأولى. «لا، لا، لا، لا.»

قال الغراب: «كاو»، على الرغم من أنه بدا أشبه بقوله: «لا تُقدمي على أي تصرف أحمق.»

سرى الغضب في جسد لونا، من قمة رأسها لأخمص قدَمَيها. قالت في نفسها: «لا بد أن هذا ما تشعر به الشجرة عندما يضربها البرق.» حملقت في الرسالة القصيرة الممزقة، متمنيةً أن تتجمع من تلقاء نفسها حتى يمكنها تمزيقها ثانيةً.

(التفتت قبل أن تتمكن من ملاحظة أن القصاصات بدأت تهتزُّ قليلًا، آخِذةً في التحرك، بعضها نحو بعض.)

نظرت لونا إلى الغراب نظرةً مُتحدِّية.

«سأذهب خلفها.»

قال الغراب: «كاو»، إلا أن لونا كانت تعرف ما يَعنيه: «تلك فكرة غبية جدًّا. أنتِ لا تعرفين حتى إلى أين أنتِ ذاهبة.»

قالت لونا: «أنا أعرف أيضًا»، وهي تُظهر العزيمة والإصرار وتجذب دفترها من حقيبتها. «أترى؟»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «لقد اختلقتِ ذلك. ذات مرة حلمتُ بأنني يُمكنني التنفس تحت الماء مثل سمكة. لكنَّك لا تَرَيْني أُحاول فعل «ذلك»، والآن هل تستطيعين ذلك؟»

قالت لونا، وهي تشعر بأن صوتها بدأ يتهدج: «إنها ليست قوية بما يكفي.» ماذا لو أصيبت جدتها في الغابة؟ ماذا لو مرضت؟ أو تاهت؟ ماذا لو لم ترَها لونا مجددًا أبدًا؟ فكرت لونا: «يلزمني أن أساعدها. أنا بحاجة إليها.»

(طارت القصاصتان اللتان تحتويان على «عزيزتي» و«لونا» والتصقت حوافهما معًا لدرجة أنه لم يعُد يُوجَد دليل على انفصالهما. وكذلك فعلت القصاصة التي تحتوي على «في الوقت الذي ستقرئين فيه هذه الرسالة» والقصاصة التي تحتوي على «ثمة أشياء يتعين عليَّ تفسيرها» بالأسفل. وتحتها كانت تُوجَد قصاصة مكتوب عليها «أنتِ أعظم بكثير مما تدركين.»)

وضعت لونا قدمَيها في حذائها الطويل الرقبة، وحزمت حقيبة ظهر وضعت فيها كل ما استطاعت أن تفكر في أنه قد يكون مفيدًا في الرحلة. جبنًا جافًّا. وتوتًا مجففًا. وبطانية. وقنينة ماء. وبوصلة بها مرآة. وخريطة النجوم الخاصة بجدتها. وسكينًا حادًّا جدًّا.»

قال الغراب: «كاو» لكنه كان أشبه بقوله: «ألن تُخبري جليرك وفيريان؟»

«بالطبع لن أفعل. لن يفعلا شيئًا سوى أن يُحاولا إيقافي.»

تنهدت لونا. (انطلقت قصاصة صغيرة من الورق في طريقها بخفةٍ تُضاهي خفة أي فأر. لم تلحظ لونا. لم تلحظها وهي تتسلل لأعلى ساقها وعلى ظهر معطفها الفضفاض. ولم تلحظها عندما شقت طريقها إلى جيبها.) قالت أخيرًا: «لا. سيخمنان إلى أين أنا

ذاهبة. وأي شيء أقوله سيخرج من فمي بطريقة خاطئة. كل ما أقوله يخرج من فمي بطريقة خاطئة.»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «لا أظن ذلك صحيحًا.»

لكن لم يكن ما يظنه الغراب مُهمًّا. فقد عقدت لونا العزم. وضعت قلنسوتها ورَبَطَتْها وتفحصت الخريطة التي كانت قد رسمتها. بدت مفصلةً بما يكفي. وبالطبع كان الغراب على حق، وبالطبع كانت لونا تعرف أن الغابة خطيرة جدًّا. لكنها كانت تعرف الطريق. كانت «متأكدة» من ذلك.

قالت للغراب وهي تغادر بيتها وتمضي إلى الخضرة: «هل أنت قادم معي أم ماذا؟»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «معكِ حتى أقصى الأرض يا عزيزتي لونا. حتى أقصى الأرض.»

قال جليرك وهو ينظر إلى الفوضى في المنزل: «حسنًا. هذا ليس جيدًا على الإطلاق.»

انتحب فيريان، قائلًا: «أين العمة زان؟» دفن وجهه في منديل، فكان تارةً يشعل النيران في المنديل وتارةً يخمدها بدموعه. «لماذا لم تودِّعنا؟»

قال جليرك: «تستطيع زان أن تعتني بنفسها. من يُقلقني هو لونا.»

قال هذا لأنه بدا صحيحًا حقًّا. لكنه لم يكن كذلك. كان قلقُه على زان يُربكه ويشوِّش تفكيره. تنهد جليرك وهو يقول في نفسه: «فيمَ كانت تفكر؟ وكيف يُمكنني أن أعيدها سالمة؟»

جلس جليرك متثاقلًا على الأرض، وقد لفَّ ذيله الضخم حول جسده، وأخذ يقرأ الرسالة القصيرة التي كانت زان قد تركتها للونا.

قالت: «عزيزتي لونا. في الوقت الذي ستقرئين فيه هذه الرسالة، سأكون مسافرةً بسرعة عبر الغابة.»

تمتم جليرك: «بسرعة؟ آه. لقد تَحَوَّلَتْ.» هز رأسه. كان جليرك يعلم أفضل من أي أحدٍ كم كان سِحر زان قد استُنزِف. ما الذي سيحدث لو عَلِقَتْ زانُ في تحولها؟ ماذا لو عَلِقَتْ للأبد في صورة سنجاب أو طائرٍ أو أيل؟ أو يمكن أن يحدث ما هو أسوأ، وهو ما إن تمكنَتْ من التخلص من نصف التحول فقط.

«الأشياء تتغير بداخلكِ يا عزيزتي. من الداخل والخارج. أعرف أنه يمكنكِ الشعور بهذا، لكنكِ ليس لديكِ الكلمات المناسبة لوصفِه. وهذا خطئي. ليست

لديكِ أي فكرة عمن تكونين، وهذا خطئي، أيضًا. ثمة أشياء أخفيتُها عنكِ بسبب الظروف، وأشياء أخفيتُها عنكِ كي لا أُحطم قلبَكِ. لكن هذا لا يُغير الحقائق: أنتِ أعظم بكثير مما تُدركين.»

قال فيريان، وهو يُحلِّق ويطنُّ من ناحيةٍ لأخرى حول رأس جليرك كنحلةٍ طنانة مزعجة لا تكف عن الطنين: «ماذا فيها يا جليرك؟»

تمتم جليرك: «هلَّا تمهلتَ قليلًا يا صديقي؟»

وصف جليرك لفيريان بكلمة «صديقي» جعله ينتفض من السعادة. رفع لسانه نحو سقف حلقه مُزغردًا وتشقلب للخلف ودار دورة مزدوجة في الهواء، فاصطدمت رأسُه بطريق الخطأ بالسقف.

قال فيريان، متجاهلًا التورُّم في رأسه: «بالتأكيد سأُمهلك لحظة، يا جليرك، يا «صديقي». سأُعطيك كل اللحظات في العالم.» رفرف لأسفل نحو مسند ذراع الكرسي الهزَّاز والتزم الهدوء والثبات قدر وسعِه.

تفحص جليرك الورقة بتمعُّن أكبر؛ ليس الكلمات بل الورقة نفسها. كان بوسعه أن يرى أنها كانت قد مُزقت، والتحمت قصاصاتها مرة أخرى، وما كانت معظم الأعين ستلاحظ هذا التغيير. كانت زان ستلاحظه. نظر جليرك بتمعُّن أكثر من ذي قبل، إلى خيوط السحر؛ إلى كل شريط على حدة. أزرق. وثمة لمعة فضية عند الحواف. كان يُوجَد الملايين منها. ولا واحدة منها كان مصدرها زان.

همس: «إنها لونا. يا إلهي، إنها لونا.»

لقد بدأ مبكرًا. سِحرُها. كل تلك القوة — هذا المحيط الهائج الهائل — كانت تتسرب نحو الخارج. لم يكن يملك طريقةً ليعرف ما إذا كانت الفتاة تقصد فعل هذا أم لا، أو حتى ما إذا كانت لاحظت حدوث هذا من الأساس. تذكَّر عندما كانت زان صغيرة، كيف كانت تجعل الفاكهة الناضجة تنفجر وتمطر وابلًا من النجوم بمجرد وقوفها قريبة منها أكثر من اللازم. كانت وقتئذٍ خطيرة، على نفسها وعلى الآخرين. كما كانت لونا عندما كانت صغيرة. وكما كان من المرجح أن تكون الآن.

«عندما كنتِ رضيعة، أنقذتكِ من مصير مُريع. ثم منحتكِ عن طريق الخطأ ضوءَ القمر كي تشربي منه، وشربتِ منه، وهو ما عَرَّضَكِ لمصيرٍ مُريع آخر. أنا آسفة. ستعيشين طويلًا وستنسَين الكثير وسيموت الأشخاص الذين تُحبِّينهم وستمضين في حياتكِ. كان هذا قدري. وهو الآن قدَرُكِ. يوجَد سبب وحيد لهذا.»

كان جليرك يعرف السبب بالطبع، لكنه لم يكن في الرسالة. بدلًا من ذلك، كانت تُوجَد فجوة مقطوعة قطعًا تامًّا في الموضع الذي كانت فيه كلمة «سحر». نظر حوله على الأرض، لكنه لم يجِدها في أي مكان. كان هذا من الأشياء التي لم يستطع أن يستوعِبها في السحر بشكلٍ عام. السحر شيء مُحير. شيء أحمق. وله منطق خاص به.

«إنه الكلمة التي لا يمكن أن تعلَق في ذهنكِ، لكنها الكلمة التي تُحدد حياتكِ. كما حدَّدَتْ حياتي. أتمنى أن يكون لديَّ وقتٌ كافٍ كي أشرح لكِ كلَّ شيء قبل أن أتركَكِ مرةً أخرى، لآخِر مرة. لا أملك كلماتٍ تُعبر عن مدى حُبي لكِ.

جدتكِ المحبة»

طوى جليرك الرسالة ووضعها أسفل الشمعدان. نظر في أنحاء الغرفة بحسرة. صحيح أن أيام زان كانت تتضاءل، وصحيح أنه مقارنةً بعمره المديد للغاية، لم يكن عُمْر زان أكثر من نفَسٍ عميق، أو ابتلاع ريق، أو رمشة عين. وعما قريب سترحل للأبد. شعر جليرك بغصَّةٍ في حلقه وكأن قلبه قفز وعلَق في حلقه ككتلةٍ صلبة حادة.

تجرأ فيريان وقال: «جليرك؟» حلَّق بطنينٍ نحو وجه وحشِ المستنقع القديم، وتطلع إلى عينَيه الكبيرتَين الرطبتَين. طرفت عينا جليرك وحدَّق فيه بدَوره. كان عليه أن يُقرَّ بأن التنين الصغير كائن لطيفٌ صغير. وذو قلبٍ كبير. وصغير السن. لكنَّ صِغرَ سنِّهِ كان غيرَ طبيعي. وقد آن الأوان كي يكبُر.

هذا ما كان يجب حدوثه في الماضي، حقًّا.

تمالك جليرك نفسه واستوى على أقدامه وعلى أول مجموعة أذرع لدَيه، منحنيًا للخلف قليلًا لتخفيف الالتواءات في عموده الفقري. أحب مُستنقعه الصغير، بالطبع أحبه، وأحبَّ حياته الصغيرة في فوهة البركان. كان قد اختارها دون أي ندم. لكنه أحبَّ العالم الواسع أيضًا. كانت ثمَّة أجزاء من حياته كان قد تخلَّى عنها كي يعيش مع زان. لم يعُد بوسع جليرك أن يتذكَّرها. لكنه كان يعرف أنها كانت غزيرةً ومُفعمة بالحياة و«شاسعة». «المستنقع» الكبير. العالم بأسره. جميع الكائنات الحية. كان قد نسِيَ كم أحبَّ هذا كله. قفز قلبه بداخله عندما خطا الخطوة الأولى.

قال وهو يمدُّ يدَه اليسرى العُليا ويسمح للتنين بأن يحطَّ على راحة يده: «تعالَ يا فيريان. سنذهب في رحلة.»

قال فيريان: «رحلة حقيقية؟ أتقصد «بعيدًا عن هُنا»؟»

«ذلك هو النوع الوحيد من الرحلات، يا رفيقي الصغير. والإجابة نعم. سنذهب بعيدًا عن هُنا. ذلك النوع من الرحلات.»

قال فيريان: «ولكن ...». رفرف مُبتعدًا عن يدِه وحلق وهو يطنُّ إلى الجانب الآخر من رأس وحش المُستنقع الضخم. «ماذا لو تُهنا؟»

قال جليرك: «أنا لا أتوه مطلقًا.» وكان هذا صحيحًا. في قديم الزمان، من «أزمنة» بعيدة، سافر حول العالم مرات لا يُمكنه إحصاؤها. وفي هذا العالَم. وأعلاه وأدناه. ثمة قصيدة. ثمة «مستنقع». ثمة حنين عميق. لم يعد يمكنه تذكر هذا الآن، بالطبع؛ وهذا أحد أضرار الحياة الطويلة جدًّا.

قال فيريان، وهو يسرع من أحد جانبَي وجه جليرك إلى الجانب الآخر ثم يعود مرة أخرى: «ولكن ... ماذا إذا أخفتُ الناس؟ بحجمي المدهش. ماذا لو هربوا مذعورين؟»

دارت عينا جليرك في محجريهما في نفاد صبر. وقال: «مع أنه صحيح، يا صديقي الصغير، أن حجمك «مدهش»، أظن أن تفسيرًا بسيطًا من جانبي سيُهدئ من روعهم. كما تعلم، أنا أتمتع بمهارة فائقة في تفسير الأمور.»

هبط فيريان على ظهر جليرك. وتمتم: «هذا صحيح. لا أحد يُفسر الأمور أفضل منك، يا جليرك.» ثم ألقى بجسدِه الصغير على ظهر وحش المُستنقع الضخم الرطب، ومدَّ جناحَيه على اتساعهما محاولًا أن يُعانقه.

قال جليرك: «لا حاجة لذلك»، وتحرك فيريان للخلف وارتفع في الهواء محلقًا فوق صديقه. تابع جليرك: «انظر. هل ترى؟ إنها آثار قدمَي لونا.»

وهكذا تبعها وحشُ المستنقع القديم و«التنينُ الصغير للغاية» إلى الغابة.

ومع كل أثر لقدمَي لونا، كان جليرك يُدرك أكثر أن السحر الذي كان يتسرب من قدمَي الفتاة آخِذ في الازدياد. كان يتسرب، ثم يلمع، ثم يتجمَّع على الأرض ثم ينسكب من الحواف. بهذا المعدل، كم سيتبقى من الوقت كي يفيض هذا السحر كالماء ويتحرك كالجداول والأنهار والمحيطات؟ كم تبقى قبل أن يكتسح العالم؟

كم تبقى، حقًّا؟

الفصل التاسع والعشرون

حكايةٌ فيها بركان

«إنه ليس بركانًا عاديًّا، كما تعلمين. فقد صنعته ساحرة منذ آلافٍ وآلاف من السنين.

أي ساحرة؟ أوه، لا أعلم. بالتأكيد ليست «الساحرة» التي لدينا. فهي كبيرة في العمر، لكنها ليست كبيرة لتلك الدرجة. بالطبع لا أعرف عمرها. لا أحد يعرف. ولم يرَها أحد. سمعتُ أنها أحيانًا تبدو مثل فتاة صغيرة وأحيانًا تبدو امرأة عجوزًا وفي أحيان أخرى تبدو سيدةً بالغة. الأمر يعتمد على الظرف.

يحتوي البركان على تنانين بداخله. أو كذلك كان. فيما مضى كانت التنانين في سائر أنحاء المعمورة، لكن الآن لم يرَها أحدٌ منذ دهر. أو ربما أكثر من ذلك.

كيف يُمكنني معرفة ما حدث لها؟ ربما استولت عليها «الساحرة». ربما أكلتها. فهي جائعة دائمًا، كما تعلمين. أقصد الساحرة. آمُل أن يجعلكِ هذا تلزمين سريركِ في الليل.

في كل مرة يثور فيها البركان، يُصبح أكبر وأكثر غضبًا وشدة. فيما مضى، لم يكن أكبر من تلٍّ نمل. ثم أصبح بحجم منزل. والآن هو أكبر من الغابة. وفي يومٍ من الأيام، سيُطَوِّق العالم بأسرِه، إن لم يحدُث هذا فستعرفين.

آخِر مرة اندلع فيها البركان، كانت «الساحرة» هي المُتسببة في ذلك. ألا تُصدقينني؟ أوه، إنه حق مثلما أنتِ واقفة هُنا. في تلك الأيام، كانت الغابة آمنة. لم يكن يُوجَد شِراك أو فوهات سامَّة. لم يكن شيءٌ يحترق. وكانت تُوجَد قرًى تتناثر في جميع أنحاء الغابة. قرى كانت تجمع عيش الغراب. وقرى كانت تتاجِر في العسل. وقرى كانت تصنع منحوتات جميلة من الطين وتقويها بالنار. وكانت هذه القرى جميعها متصلة عن طريق دروب وطرق صغيرة تتفرع وتتقاطع في الغابة مثل شبكة عنكبوت.

لكن «الساحرة» لم يُعجبها ذلك. فهي تكره السعادة. تكرهها تمامًا. لذا جلبت جيشًا من التنانين إلى بطن الجبل.

صاحت في التنانين: «تقيئي». فتقيأت نارًا في قلب البركان. صاحت مجددًا: «تقيئي!» كانت التنانين خائفة. التنانين، إذا كان لا بدَّ أن تعرفي، كائنات شريرة مُفعمة بالعنف والرياء والخداع. لكن خداع التنين لم يكن يُساوي أي شيءٍ أمام شر «الساحرة».

صرخت التنانين، وهي ترتجف وسط الحرارة: «رجاءً. رجاءً أوقفي هذا. ستُدمرين العالم.»

«ولِماذا أعبأ بالعالم؟» وضحكت «الساحرة». «لم يعبأ بي العالَم قط. إن أردتُ إحراقه، فسيحترق.»

ولم يكن لدى التنانين أي خيار. تقيأت وتقيأت إلى أن صارت مجرد رمادٍ وجمرات ودخان. ظلت تتقيأ النيران حتى ثار البركان واندلع نحو السماء، مُمطرًا كلَّ غابة وكل مزرعةٍ وكل مرجٍ بوابل من الدمار. حتى «المستنقع» دُمِّر.

وكان الانفجار البركاني سيُدمر كل شيء، لولا وجود الساحر الشجاع الضئيل الحجم. سار ودخل إلى البركان و... حسنًا، ليس واضحًا لي تمامًا ما فعله، لكنه أوقفه فورًا، وأنقذ العالم. ومات المسكين وهو يفعل ذلك. من المؤسف أنه لم يقتُل الساحرة، لكن لا أحد مثالي. على الرغم من كل شيء، علينا أن نشكُره على ما فعله.

لكن البركان لم يخمد تمامًا قط. لقد أوقفه الساحر، لكنه مضى تحت الأرض. ويُسرِّب غضبه إلى بِرك المياه وأحواض الطين والفوهات السامة. سمَّم «المستنقع». ولوَّث الماء. هذا هو السبب في أن أطفالنا يجوعون وجدَّاتنا تتغضنَّ وفي أن مآل محاصيلنا كثيرًا ما يكون الفشل. هذا هو السبب في أننا لا نستطيع ترك هذا المكان أبدًا ولا نفع من المحاولة.

لكن مهما يكن. يومًا ما سيثور مرة أخرى. وعندئذٍ سنتخلَّص من هذه المعاناة.»

الفصل الثلاثون

الأمور أصعب مما كان مخططًا له

لم تكن لونا قد سارت طويلًا حين شعرت بأنها تائهة جدًّا جدًّا، وخائفة جدًّا جدًّا. كانت معها خريطتها وكان يُمكنها أن ترى الطريق الذي عليها أن تسلكه مُستخدمةً مخيلتها، لكنها كانت قد تاهت بالفعل.

بدت الظلال ذئابًا.

طقطقت الأشجار وأصدرت صريرًا مع هبوب الريح. وانثنت أغصانها كمخالب حادة تخدش السماء. وتعالى وَطْءُ الخفافيش ونعْقُ البوم ردًّا عليها.

قرقعت الصخور تحت قدمَيها، وتحت الصخور، كان بوسعها أن تشعر برجرجة الجبل المستمرة. كانت الأرض ساخنة، ثم أصبحت باردة، ثم أصبحت ساخنةً مرة أخرى.

زَلَّت قدما لونا في الظلام وتعثَّرت، وسقطت رأسًا على عقب، في وادٍ طيني.

جُرحت يدُها، والْتوى كاحلها، واصطدم رأسها بفرعٍ منخفض مُتدلٍّ ولُسِعَت ساقها في ينبوع ماء يغلي. كانت متأكدة من أنه يُوجَد دمٌ في شعرها.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «قلتُ لكِ إنها فكرة سيئة.»

تمتمت لونا: «اصمت. أنت أسوأ من فيريان.»

قال الغراب: «كاو»، لكن ما كان يَعنيه كان كلامًا لا يصحُّ تكراره.

قالت لونا محذرةً: «انتبه لألفاظك! وعلى أي حال، لا أعتقد أن نبرتك تعجبني.»

وفي الوقت نفسه، استمر يحدُث داخل لونا شيء لم تستطع تفسيره. كانت دقات التروس التي شعرت بها طوال حياتها تقريبًا قد أصبحت الآن كقرع ناقوس. كلمة «سِحر» موجودة. أصبحت تعرف ذلك الآن. لكن ظلَّت ماهية هذه الكلمة وما تَعنيه لغزًا.

كان ثمة شيء يحكُّ في جيبها. شيء صغير ورقي تجعَّد وخشخش وتلوَّى. بذلت لونا قصارى جهدها كي تتجاهله. كانت لدَيها مشكلات أكبر في الوقت الراهن.

كانت الغابة كثيفةَ الأشجار والأعشاب. حجبت الظلال الكثيفة الضوء. مع كل خطوة كانت تخطوها، كانت تتوقَّف وتتحسَّس بحذرٍ شديدٍ الأرضَ أمامها بقدمَيها بحثًا عن أرض صلبة. كانت قد ظلت تسير طوال الليل، وكان القمر، الذي كان بدرًا تقريبًا، قد توارى واحتجب بين الأشجار، آخِذًا معه الضوء.

بدا وكأن الظلال تُتمتِم لها في امتعاض: «فيمَ أقحمتِ نفسكِ؟»

لم يكن يوجد ضوء يكفي حتى كي ترى الخريطة التي رسمتها. إلا أن الخريطة ما كانت ستجدي نفعًا بعدما كانت قد شردت بعيدًا جدًّا عن دربها المقصود.

تمتمت لونا، وهي تخطو خطوةً أخرى بحذر: «تبًّا، هذا مزعج.» كان الطريق خدَّاعًا هنا؛ فقد تضمن منعطفات حادة، وتكوينات صخرية إِبْرِيَّة الشَّكْل. كان بوسع لونا أن تشعر باهتزاز البركان تحت قدمَيها. لم يَفْتُر، ولو للحظة. قالت لونا في نفسها وكأنها تتحدَّث إلى البركان: «فلتخمد. من المفترض أن تكون خامدًا.» لم يبدُ أن البركان كان يعلم هذا.

قال الغراب: «كاو.» وكان يقصد: «انسَي أمر البركان. لا بد أن تنامي.» كان هذا صحيحًا. فنظرًا لكونها تائهة، لم تكن لونا تُحرز أي تقدُّم. كان ينبغي أن تتوقَّف، وتستريح، وتنتظر حتى الصباح.

لكن جدتها كانت في مكانٍ ما هُنا.

ماذا لو كانت مصابة؟

ماذا لو كانت مريضة؟

ماذا لو لم تعُد؟

كانت لونا تعرف أن كل كائن حي سيموت حتمًا يومًا ما؛ كانت قد رأت هذا بعينَيها عندما كانت تساعد جدَّتها. الناس يموتون. وبينما يُصيب الموت أحباء الميت بسهام الحزن، لم يبدُ أنه كان يُزعج الميت ولو قليلًا. فهو ميت، على أي حال. كان قد مَضى قُدمًا إلى شئون أخرى.

ذات مرة سألت جليرك عما يحدث للناس بعد موتهم.

حينئذٍ أغمض جليرك عينَيه وقال: «المستنقع.» كانت ثمة ابتسامة حالمة على وجهه. «المستنقع»، «المستنقع»، «المستنقع.» كان أكثر قول غير شعري تفوَّه به في حياته. اندهشت لونا، لكن هذا لم يُجب بالضبط عن سؤالها.

لم تتحدث جدة لونا قطُّ عن حقيقة أنها ستموت يومًا ما. ولكن كان واضحًا أنها «ستموت» وأنه من المُحتمَل أنها كانت «تُحتضَر»؛ هذا الضمور، وهذا الضعف، وهذه

المراوغة. كان ثمة أسئلة لها إجابة واحدة مفزعة، وقد رفضت جدتها أن تعطيها هذه الإجابة.

اندفعت لونا إلى الأمام وهي تشعر بألم في قلبها.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «احذري.»

قالت لونا بغيظ: «أنا ألتزم الحذر.»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «ثمة شيء غريب جدًّا يحدث للأشجار.»

قالت لونا: «ليست لديَّ أي فكرة عما تتحدث.»

شهق الغراب «كاو!» وكان يقصد: «انتبهي لموطئ قدميكِ!»

«ماذا تظن أنني أحاول ...»

لكن لونا لم تقُل المزيد. ارتجَّت الأرض، وانحسرت الصخور تحت قدمَيها، وسقطت وهي تدور حول نفسها نحو الظلام بالأسفل.

الفصل الحادي والثلاثون

المرأة المجنونة تعثر على بيت الشجرة

الطيران فوق ظهر سرب من الطيور الورقية ليس مريحًا كما قد تظن. ومع أن المرأة المجنونة كانت معتادة على القليل من عدم الراحة، فإن حركة الأجنحة الورقية كان لها أثرها على جلدها. كانت تجرحها حتى تنزف.

قالت: «فقط مسافة قليلة أخرى.» كان بوسعها أن تتخيل المكان في عقلها. مُستنقع. مجموعة فوهات. شجرة ضخمة جدًّا، فيها باب. ومرصد صغير يُمكن للمرء من خلاله رؤية النجوم.

«إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.» طوال كل هذه السنوات. كانت قد رسمت صورتها بقلبها. طفلتها؛ لم تكن محضَ صورةٍ من نسج خيالها، بل طفلتها في العالم. الصورة التي رسمتها بقلبها كانت «حقيقية». وكانت تعلم هذا الآن.

قبل أن تُولَد المرأة المجنونة، كانت أمُّها قد قدَّمت رضيعًا للساحرة. كان ذكرًا. أو هكذا قيل لها. لكنها كانت تعلم أن أمَّها كانت تُعاين رؤًى للطفل وهو يكبر. وظلت هذه الرؤى تراودها حتى ماتت. وكان بوسع المرأة المجنونة هي الأخرى، تمكنت أن ترى طفلتها الحبيبة، التي أصبحت فتاةً كبيرة الآن. الشعر الفاحم والعينين السوداوين والبشرة التي بلون الكهرمان المصقول. إنها جوهرة. ذات أصابع ماهرة. ونظرة متشككة. قالت لها «الأخوات» إن كلامها هذا كان محضَ جنون. ومع هذا، تمكنت من رسم خريطة. خريطة تقودها إلى ابنتها. كانت مؤمنةً بصحة كلامها إلى حدِّ اليقين.

تنهَّدت المرأة المجنونة مشيرةً لأسفل: «هناك.»

رأت مُستنقعًا. بالضبط كما رأته من قبل في مخيلتها. كان حقيقيًّا.

الفوهات السبع، التي كانت بمثابة علامات على الحدود. بالضبط كما رأتها في مخيلتها. كانت هي أيضًا حقيقية.

رأت أيضًا ورشةً مبنيةً من الحجارة، ومرصدًا. كان هذا أيضًا حقيقيًّا.

وهناك، بجوار حديقة صغيرة وإصطبل وكُرسيين خشبِيَّين في سقيفةٍ مزهرة، تستقر شجرة عملاقة. لها باب. ونوافذ.

شعرت المرأة المجنونة بأن قلبَها يكاد يثِب من صدرها.

«إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.»

ارتفعت الطيور لأعلى قبل أن تهبط ببطءٍ إلى الأرض، حاملة المرأة المجنونة معها، ووضعتها أرضًا برفق كما تضع الأم طفلها في سريره.

«إنها هُنا.»

تعثرت المرأة المجنونة. وفغرت فاها. شعرت بأن قلبها يكاد يتوقف داخل صدرها. من المؤكد أنها كانت قد منحت الطفلة اسمًا. لا بد أنها فعلت ذلك.

اعتادت «الأخوات» أن تهمسن لها: «أي طفلة؟ لا أحد يعلم عمَّ تتحدثين.»

وأخبرنها: «لم يأخذ أحدٌ رضيعتكِ. أنت فقدتِ رضيعتكِ. أنتِ وضعتِها في الغابة وفقدتِها. أيتها الفتاة السخيفة.

رضيعتكِ ماتت. ألا تتذكَّرين؟

عجيبة هي الأشياء التي تخترعينها. جنونكِ يزداد سوءًا.

رضيعتكِ كانت خطيرة.

وأنت خطيرة.

لم يكن لديك رضيعة قط.

الحياة التي تتذكَّرينها محضُ خيال من عقلك المُعتل.

لقد كنتِ مجنونة دائمًا.

حزنك هو الشيء الحقيقي الوحيد. الحزن ثم الحزن ثم الحزن.»

كانت تعلم أن الرضيعة حقيقية. وكذلك المنزل الذي كانت تعيش فيه وزوجها الذي أحبها. والذي أصبح لدَيه الآن زوجة جديدة وأسرة جديدة. ورضيع جديد.

«لم تُوجَد رضيعة قط.

لا أحد يعرف من أنتِ.

لا أحد يتذكركِ.

لا أحد يفتقدكِ.

أنتِ بلا وجود.»

كانت «الأخوات» يطلقن سمومهن ويتلوين كالثعابين ويطلقن فحيحًا. كانت أصواتهن تزحف لأعلى عمودها الفقري وتلتفُّ حول رقبتها. كانت أكاذيبهن تُحكم قبضتها عليها. لكنهن كنَّ يفعلنَ فقط ما كان يُطلب منهن. لم يكن يُوجَد سوى كاذبة وحيدة في «البرج»، والمرأة المجنونة كانت تعرف من تكون.

هزت المرأة المجنونة رأسها. قالت جهرًا: «كذب. ما قالته لي كذب.» كانت ذات يوم فتاةً وقعت في الحب. ثم زوجة ماهرة. ثم حاملًا. ثم أمًّا غاضبة. ثم أمًّا يعتصرها الألم. وجعلها حزنها تفقد صوابها، أجل. بالطبع فعل ذلك. لكنَّهُ جعلها أيضًا ترى الحقيقة.

هَمَسَت: «كم مضى من الوقت على ذلك؟» التوى عمودها الفقري وأحاطت بطنَها بذراعَيها، وكأنها تُخبئ الحزن بداخلها. وهي حيلة غير فعالة، للأسف. استغرقت سنوات لتتعلم طرقًا أفضل كي تُحبط عمل «آكلة الحزن».

حامت الطيور الورقية فوق رأسها، مُصدرةً حفيفًا هادئًا. كانت الطيور تنتظر الأوامر. وستنتظر طوال اليوم. كانت تعرف ذلك. لكنها لم تكن تدري كيف عرفت.

«هل ...» تهدج صوتها. كان صوتها غليظًا ومتهدجًا من قلة الكلام. تنحنحت مرة أخرى. «هل يُوجد أحدٌ هُنا.»

لم يُجب أحد.

حاولت مرة أخرى.

«لا أتذكر اسمي.» كانت هذه حقيقة. وقد جزمت أن الحقيقة هي الشيء الوحيد الذي تمتلكه. «لكن كان لديَّ اسم فيما مضى. وأنا أبحث عن طفلتي. لا أتذكر اسمها أيضًا. لكنها موجودة. واسمي موجود أيضًا. كنتُ أعيش مع ابنتي وزوجي قبل أن يتَّخِذ كل شيءٍ منحًى خاطئًا. أخذوا ابنتي. أخذها رجال أشرار. ونساء شريرات. وربما أيضًا أخذتها ساحرة. لكنني لستُ متأكدة بشأن «الساحرة».»

لم يجب أحد أيضًا.

تلفتت المرأة المجنونة حولها. كانت الأصوات الوحيدة آتية من فقاعات المستنقع أو حفيف الأجنحة الورقية. كان الباب الواقع في بطن الشجرة الهائلة مواربًا. عبرت الفناء. آلمتها قدماها. كانتا حافيتَين وكانتا لا تزالان ناعمتَين غضتَين. متى كانت آخر مرة لامستا فيها الأرض؟ لم تستطع أن تتذكَّر. كانت زنزانتها ضيقة. وكانت الحجارة ناعمة. كان بوسعها أن تنتقل من جانبٍ إلى جانب في ستِّ خطوات قصيرة. عندما كانت فتاة صغيرة، كانت تركض حافية القدمَين كلما استطاعت. لكن ذلك كان منذ زمنٍ طويل جدًّا. ربما حدث هذا لشخص آخر غيرها.

بدأت عنزة في الثغاء. ثم تبِعَتها أخرى. كانت إحداهما بلون الخبز المحمص والأخرى بلون الفحم. نظرتا إلى المرأة المجنونة بأعين كبيرة رطبة. كانتا جائعتَين. وكان ضرعاهما مُنتفخَين. كانتا بحاجة إلى الحلب.

سبق أن حلبت ماعزًا، أدركت ذلك فجأة. كان ذلك منذ زمن طويل.

قاقت الدجاجات في قنِّها، وضغطت بمناقيرها على جدران الصفصاف التي تُبقيها في الداخل. ورفرفت بأجنحتها رفرفةً يائسة.

كانت جائعة أيضًا.

سألت المرأة المجنونة: «من يهتم بكم؟ وأين هو الآن؟»

تجاهلت الصيحات المُثيرة للشفقة التي كانت تُصدرها الحيوانات ودخلت من الباب.

في الداخل، كان يُوجَد بيت؛ مُرتَّب ومنظم وجميل. سجاجيد على الأرضية. وألحفة على الكراسي. كان يُوجَد سريران معلقان في السقف باستخدام تركيب مُمتاز من الأحبال والبكرات. كانت تُوجَد فساتين معلقة على شماعات، وعباءات مُعلقة على حاملات. وكان لواحدٍ من السريرين مجموعة من العصوات تتكئ على الجدار أسفله. كانت تُوجَد مُربى وحِزم من الأعشاب ولحوم مُجففة مُغطاة بتوابل وملح مطحون. كما كان يُوجَد قرص من الجبن المُعتق على المنضدة. على الجدران، عُلِّقَت صور مرسومة باليد على خشب أو ورق أو لحاء غير مُستوٍ. تضمنت هذه الصور تنينًا جالسًا على رأس امرأة عجوز. ووحشًا غريب الشكل. وجبلًا فوقه قمر، كقلادة تتدلى من عنق. وبرجًا به امرأة فاحمة الشعر تنحني للخارج، وهي تمد يدَها إلى طائر. وكان مكتوبًا على أسفل الصورة: «إنها هُنا.»

كانت كل صورة موقعة بخط طفولي. كان التوقيع هو «لونا».

همست المرأة المجنونة: «لونا. لونا، لونا، لونا.»

وفي كل مرة كانت تنطق فيها بالاسم، كانت تشعر بداخلها بأن الأمور تتَّضح. شعرت بأن قلبها يخفق. ويخفق. ويخفق. وشهقت.

همست: «ابنتي اسمُها لونا.» كانت تعرف في صميم قلبها بأن هذا صحيح.

كانت الأسرَّة باردة. والمدفأة باردة. لم تكن تُوجَد أحذية على السجادة بجوار الباب. لم يكن أحدٌ هنا. وهو ما يعني أن لونا وأيًّا من كانوا يعيشون معها في هذا البيت ليسوا هنا. كانوا في الغابة. وكانت ثمة ساحرة في الغابة.

الفصل الثاني والثلاثون

لونا تعثر على طائر ورقي

العديد من الطيور الورقية في الواقع

عندما عادت لونا إلى وعيها، كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء. كانت مستلقية على شيء أملس جدًّا لدرجة جعلتها تظن لأول وهلة أنها في سريرها. فتحت عينيها ورأت السماء، تقطعها فروع الأشجار. حدقت وارتجفت، وتحاملت على نفسها ونهضت. وحاولت التعرف على محيطها.

تنهد الغراب، قائلًا: «كاو.» وكان يقصد: «حمدًا للرب.»

في البداية تحسست جسدها. كان لديها خدش في خدها، لكنه لم يبدُ عميقًا جدًّا، كما كان لديها تورم على رأسها يؤلمها عند لمسه. وكان ثمة دم جاف في شعرها. كان فستانها ممزقًا من الأسفل وعند مرفقيها. بخلاف هذا، لم يبدُ أن أيَّ شيءٍ آخر كان «مكسورًا»، وهو ما كان في حد ذاته مدهشًا.

وما كان مدهشًا أكثر، أنها كانت مستلقية فوق مجموعة من فطر عيش الغراب الذي كان قد نما على حافة قاع مجرًى مائي إلى أن أصبح حجمه هائلًا. لم تكن لونا قد رأت فطر عيش غراب ضخمًا لها الحد. ولا مريحًا هكذا. لم يَحُل عيش الغراب دون سقوطها فحسب، بل منعها من التدحرج مباشرة إلى قاع المجرى والغرق المحتمل.

قال الغراب: «كاو.» وكان يقصد: «لنذهب إلى البيت.»

قالت لونا بنزق: «انتظر دقيقة.» مدَّت يدَها داخل حقيبتها وأخرجت منها دفترها، وفتحته على الخريطة. رأت أمامها بيتها مميزًا بعلامة. ورأت جداول وتلالًا صغيرة ومنحدرات صخرية مميزة بعلامات أيضًا. كما رأت الأماكن الخطيرة. والبلدات القديمة

التي باتت أطلالًا. ورأت مرتفعات. ومنفسات حرارية. وشلالات. ينابيع حارة. وأماكن لا يمكنها المرور عبرها. وهذا الموضع هنا، في الركن السفلي.

كان مكتوبًا على الخريطة: «عيش الغراب.»

قالت لونا جهرًا: «عيش الغراب؟»

قال الغرابُ: «كاو.» وكان يعني: «عمَّ تتحدثين؟»

كان فطر عيش الغراب على خريطتها بجوار قاع مجرًى مائي. ولم يكن يؤدي إلى الطريق الذي ستسلكه، بل إلى مكان يُمكنها فيه أن تجتاز أرضًا مستقرةً في الأغلب. ربما.

أنَّ الغرابُ: «كاو.» وكان يعني: ««من فضلكِ» هيَّا نذهب إلى البيت.»

هزت لونا رأسها نفيًا. وقالت: «لا. جدتي تحتاج إليَّ. أنا متيقنة من ذلك. ولن نغادر هذه الغابة بدونها.»

نهضت مترنحةً وهي تتألم، وأعادت الدفتر إلى حقيبتها، وبذلت أقصى جهدها كي تسير دون أن تعرج.

مع كل خطوة، كان ألم جروحها يقلُّ تدريجيًّا ويصفو ذهنها أكثر قليلًا. مع كل خطوة، كانت تشعر بأن عظامها أقوى وكدماتها أخف، وشعرت بأنه حتى الدم الجاف في شعرها صار أخف وأقل تيبسًا وأرق سُمكًا. بعد قليل، مرَّرَتْ يدَها في شعرها، وكان الدم قد اختفى. وكان التورُّم قد اختفى أيضًا. وبدا أنه حتى الخدش على وجهها والتمزُّق في فستانها قد شُفِيا من تلقاء نفسيهما.

قالت لونا في نفسها: «غريب.» لم تستدر على عقبَيها، لذا لم تلاحظ آثار الأقدام التي خلفتها وراءها، إذ صارت كل خطوة حينئذٍ حديقة يانعة الأزهار، وكل زهرة تتمايل مع النسيم، والأزهار الضخمة الغريبة تُوَلِّي وجهها شطر الفتاة التي كانت تبتعِد.

طائر السنونو في طيرانه رشيق وخفيف الحركة ودقيق. فهو ينطلق بسرعةٍ خاطفة ويهبط منقضًّا ويتمايل ويدور ويتحرك جيئةً وذهابًا. فهو في حركته أشبه براقص وموسيقيٍّ وسهم مُنطلق.

عادةً ما يكون كذلك.

أما هذا السنونو، فكان يترنح من شجرة لأخرى. بلا حركات بهلوانية. ولا سرعة متزايدة. فقدَ صدرُه المنقط ريشًا بحجم قبضة اليد. كانت عيناه باهتتين. اصطدم بجذع شجرة «جار الماء» وتعثَّر فوق أغصان شجرة صنوبر. ورقد هناك للحظات، كي يلتقط أنفاسه، وفتح جناحَيه وبسطهما نحو السماء.

ثمة شيءٌ كان يجب عليه فعله. «ماذا كان؟»

تحامل السنونو على نفسه ونهض على قدمَيه وتشبَّث بأغصان الصنوبر. نفش ريشه فصار ككرةٍ وفعل ما بوسعه لتفحُّص الغابة.

كان العالم ضبابيًّا. «هل كان ضبابيًّا دائمًا؟» نظر السنونو بتمعُّن إلى مخالبه المتجعدة.

قال السنونو في نفسه: «هل كانت هذه قدميَّ دومًا؟» لا بد أنهما كانتا كذلك. لكن السنونو لم يتمكن من التخلُّص من الشعور الغامض الذي راوده بأن قدميه ربما لم تكونا كذلك دومًا. وشعر بأنهما في مرحلة ما كان عليهما أن تصبحا بهذا الشكل لأجل شيء معين. شيء عليه فعله. شيء مُهم. كان بوسعه أن يشعر بقلبه يخفق بسرعة، ثم يتباطأ على نحو خطير، ثم يتسارع مرة أخرى كالزلزال.

قال السنونو في نفسه: «أنا أُحتضَر»، وهو يعلم يقينًا أن هذا صحيح. «ليس في هذه اللحظة بالطبع، لكن يبدو بالفعل أنني أُحتضَر.» كان بوسعه أن يشعر بمخزون طاقة الحياة الموجود عميقًا بداخله. وشعر بأن هذا المخزون بدأ يتضاءل. «حسنًا. لا يُهم. أنا واثق من أنني عشت حياةً جميلة. كل ما أتمنَّاه أن أتذكرها.»

أغلق منقاره بإحكامٍ وحكَّ رأسه بجناحَيه، محاولًا استعادة ذكرى. قال في نفسه: «لا ينبغي أن يكون من الصعب على المرء تذكُّر من يكون.» حتى الأحمق يُمكنه فعل هذا. وبينما كان السنونو يعتصر ذهنه، سمع صوتًا يأتي من الطريق بالأسفل.

قال الصوت: «عزيزي فيريان. حسب آخِر إحصاء أجريتُه، قضيتَ أكثر من ساعة تتكلم دون توقف. أنا مصدوم بالفعل من أنك لم تشعر حتى بالحاجة إلى التقاط أنفاسك.»

قال الصوت الآخر: «يمكنني حبس أنفاسي لمدة طويلة، كما تعلم. هذا جزء من كوني «تنينًا هائلًا».»

صمت الصوت الأول للحظة. وقال: «هل أنت متأكد؟» حل الصمت من جديد. «لأن هذه المهارات لم تُذكر في أي نصٍّ من النصوص التي تتناول فِسْيُولُوجِيَّة التنانين. ولهذا من المُحتمَل أن أحدهم أخبرك بهذا كي يخدعك.»

قال الصوت الثاني متسائلًا بعينَين واسعتَين وأنفاس لاهثة: «من ذا الذي يجرؤ على خداعي؟ لم يسبق أن أخبرني أي شخصٍ إلا بالحقيقة. طوال حياتي، أليس هذا صحيحًا؟»

أطلق صاحب الصوت الأول زمجرةً قصيرة، وخيم الصمتُ من جديد.

كان السنونو يعرف هذَين الصوتَين. رفرف مقتربًا كي يرى بشكلٍ أفضل.

طار صاحب الصوت الثاني بعيدًا ثم عاد منزلقًا على ظهر صاحب الصوت الأول. كان جسد صاحب الصوت الأول يضمُّ العديد من الأذرع وذيلًا طويلًا، ورأسًا ضخمًا. كان يتحرك ببطء بجسده، مثل شجرة جميز عملاقة. شجرة تتحرك. اقترب السنونو أكثر. توقف الكائن الضخم الشبيه بالشجرة ذو الأذرع العديدة والذيل. تلفت حوله. قطَّب حاجبيه.

قال: «زان؟»

تسمَّر السنونو في مكانه. كان يعرف هذا الاسم. كان يعرف الصوت. «لكن كيف؟» لم يستطع أن يتذكر.

عاود الصوت الثاني.

«توجد أشياء في الغابة يا جليرك. وجدتُ مدخنةً. وحائطًا. ومنزلًا صغيرًا. أو كان منزلًا صغيرًا، لكنه الآن يحتوي على شجرة بداخله.»

لم يرد الصوت الأول على الفور. حرَّك رأسه ببطءٍ شديد من جهةٍ لأخرى. كان السنونو خلف أجمة كثيفة. وكاد يتوقف عن التنفُّس تمامًا.

أخيرًا تنهد صاحب الصوت الأول. «ربما كنت ترى واحدة من القرى المهجورة. يوجد كثير منها على هذا الطرف من الغابة. بعد الثوران الأخير للبركان، هرب الناس، ولاقوا الترحيب في «المحمية». هذا هو المكان الذي جمعهم فيه السحرة. من تبقى منهم، على أي حال. لا أعرف ما حدث لهم بعد ذلك. لم يتمكنوا من العودة إلى الغابات بالتأكيد. كان ذلك في غاية الخطورة.»

حرَّك المخلوق رأسه الضخم من جهة لأخرى.

قال: «كانت زان هنا. منذ وقتٍ قريب جدًّا.»

قال الصوت الثاني: «هل لونا معها؟ هذا سيكون أكثر أمانًا. لونا لا تستطع الطيران كما تعلم. وهي غير محصنة ضد ألسنة اللهب مثل «الديناصورات الهائلة». هذا أمر معروف.»

زمجر الصوت الأول.

وفجأة، عرفت زان نفسها.

قالت في نفسها: «جليرك. في الغابة. بعيدًا عن المستنقع.

لونا. وحيدةً تمامًا.

وكان ثمة طفل. على وشك أن يُترك في الغابة. ويجب عليَّ إنقاذه، وبحق السماء ما الذي أفعله هُنا مضيَّعةً الوقت؟

بحق السماء، ما الذي فعلته؟»

وابتعدت زان عن الأجمة الكثيفة وارتفعت فوق الأشجار وهي تضرب بجناحَيها العتيقَين بأقصى ما في وسعها.

كان القلق يسيطر على الغراب. بدا هذا واضحًا للونا.

قال الغراب: «كاو»، وكان يعني: «أظن أن علينا العودة.»

قال مرة أخرى: «كاو»، وفهِمَت لونا من هذا أنه يقول: «احترسي. أيضًا، هل أنتِ على دراية بأن الصخور مشتعلة؟» وقد كان هذا صحيحًا. بالفعل، كانت تُوجَد طبقة من الصخور، تشكل انحناءً في المستنقع والغابة الشديدة الخضرة، وكانت هذه الصخور تتوهج مثل نهر من الجمرات. أو ربما كانت «بالفعل» نهرًا من الجمرات. راجعت لونا خريطتها. كان مكتوبًا على الخريطة: «نهر الجمرات».

قالت لونا «أوه.» وحاولَت أن تجد مهربًا.

كان هذا الجانب من الغابة ثائرًا أكثر بكثيرٍ من الجانب الذي كانت ترتحِل فيه عادةً.

قال الغراب: «كاو.» لكن لونا لم تفهم مقصده.

قالت: «تحدث بطريقة أوضح.»

لكن الغراب لم يفعل. رفرف لأعلى، وجثم لفترة قصيرة على أعلى فروع شجرة صنوبر. ثم نعق. وطار لولبيًّا لأسفل. ظلَّ يطير من أعلى لأسفل ومن أسفل لأعلى. شعرت لونا بالدوار.

قالت: «ماذا ترى؟» لكن الغراب لم يقُل شيئًا.

قال الغراب: «كاو»، وهو يحطُّ عائدًا إلى أعالي الأشجار.

سألت لونا: «ماذا أصابك؟» لكن الغراب لم يقل.

أشارت الخريطة إلى «قرية» كان من المُفترَض أن تكون واضحةً للعيان أعلى الحافة التالية. كيف يمكن لأي شخصٍ أن يعيش في هذه الغابة.

عبرت لونا المنحدر، وهي تُحاذر وتنظر إلى موطئ قدَمِها قبل أن تضعها، كما نصحتها الغابة.

«خريطتها.

هي من رسمتها.

كيف رسمتها؟

ليست لديها أي فكرة.»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «شيء ما يقترب». قالت لونا وهي تطلُّ على المساحات الخضراء: «ما الذي يمكن أن يكون آتيًا؟»

كان بوسعها أن ترى القرية القابعة في حضن الوادي. كانت حطامًا. لم يعُد يُوجَد سوى أطلال مبنًى مركزي وبئر والأساسات البارزة من الأرض للعديد من المنازل، مثل أسنان محطمة، في صورة مربعات منظمة ومرتبة. نمت أشجار حيثما كان يعيش البشر فيما مضى، وكذلك نباتات منخفضة.

انعطفت لونا حول الينبوع الحمضي الحار وتتبعت الصخور إلى المكان الذي كانت القرية تُوجَد فيه. كان المبنى المركزي عبارة عن برج قصير دائري يحتوي على نوافذ مقوسة تطلُّ نحو الخارج كالأعين. كان الجزء الخلفي قد تداعى وانهار السقف. ولكن كانت تُوجَد نقوش في الصخور. اقتربت لونا منها ووضعت يدَها على أقرب لوح.

تنانين. كانت تُوجَد تنانين منقوشة في الصخور. تنانين عملاقة وتنانين صغيرة وتنانين متوسطة الحجم. وكان أشخاص يحملون ريشات في أيديهم وأشخاص يحملون نجومًا في أيديهم، وأشخاص لديهم شامات على جبينهم على شكل أَهِلَّة. ضغطت لونا على جبينها بأصابعها. كانت لديها الشامة نفسها.

كان يُوجَد نقش لجبل، ونقش آخر لجبل أزيلت قمَّتُه وهبَّت منها للخارج سحابةٌ من الدخان، ونقش لجبل يسد تنينٌ فوهته.

ماذا يعني هذا؟

قال الغراب: «كاو.» وكان يقصد: «كاد أن يصل.»

قالت لونا: «أعطني دقيقة.»

سمعت صوتًا يُشبه حفيف ورقة.

وعويلًا عاليًا ورفيعًا.

رفعت ناظريها. اندفع الغراب نحوها بسرعة، يطير بالتفافة محكمة وسريعة بريشه الأسود ومنقاره الأسود ونعيقه المضطرب. تراجع للخلف، مرفرفًا بجناحَيه للوراء، ثم رفرف وحَطَّ على ذراعَيها وأراح رأسه عند ثنية مرفقها.

فجأة أصبحت السماء مليئة بطيور من كل الأحجام والأوصاف. وقد احتشدت جميعًا مرددة همهماتٍ عظيمة، وتفرقت الطيور ثم تجمعت منكمشة على نفسها وانعطفت في العديد من الاتجاهات. صرخت ونعقت ودارت في دوامات عظيمة قبل أن تحط على أطلال القرية وتغرد وتُحدث جلبةً وتطير بالقُرب في دوائر.

لكنها لم تكن طيورًا على الإطلاق. كانت مصنوعةً من الورق. وكانت تتَّجِه بوجوهها الخالية من الأعين نحو الفتاة الواقفة على الأرض. همست لونا: «إنه السحر. هذا ما يفعله السحر.»

ولأول مرة فهمت.

الفصل الثالث والثلاثون

الساحرة تلتقي بأحد المعارف القدامى

عندما كانت زان فتاةً صغيرة، كانت تعيش في قرية في الغابة. كان والدها، بحسب ما تتذكر، نحَّاتًا. كان بالأساس ينحت الملاعق. وكان ينحت الحيوانات أيضًا. كانت أمها تجمع زهور بعض الكروم المتسلقة وتُجففها من الرحيق ثم تخلطها بالعسل الذي جمعته من خلايا النحل البرية الموجودة في أعلى الأشجار. كانت تتسلَّق إلى القِمَم بخفَّة مثل عنكبوت، ثم تُنزِل أقراص العسل في سلالٍ مربوطةٍ بحبال كي تلتقطها زان. لم يكن مسموحًا لزان بالتذوُّق. كان هذا من ناحية المبدأ. لكنها كانت ستفعل على أي حال. وكان من شأن أُمِّها أن تهبط وتُقبل شفتَي ابنتها الصغيرة بما عليهما من عسل.

كان أمرًا جعلها تَذكُّره تشعر بطعنةٍ في قلبها. كان والداها دءوبَين. وجسورين. لم تستطع تذكُّر وجهيهما، لكنها تذكرت الشعور الذي كانت تشعر به حين تكون بجانبهما. تذكرت رائحتهما التي تفوح بالرحيق ونشارة الخشب وحبوب اللقاح. تذكرت انحناءة الأصابع الكبيرة وهي تربت على كتفها الصغيرة وأنفاس أمها وهي تطبع بشفتيها قبلةً على رأس زان. بعد ذلك، ماتا. أو اختفيا. أو أنهما لم يُحباها وغادرا. لم يكن لدى زان أي عِلم بما جرى.

قال الباحثون إنهم وجدوها في الغابة وحيدةً تمامًا.

أو وجدتها إحداهم. وهي امرأة صوتها حاد دقيق. ولها قلب مِثل النمر. كانت هي من أحضرت زان للقلعة، منذ تلك السنوات البعيدة.

أراحت زان جناحَيها في ركن مُقعر من شجرة طويلة. بهذا المعدل، سيستغرق وصولها إلى «المحمية» دهرًا. فيمَ كانت «تفكر»؟ كان القطرس سيصبح خيارًا أفضل بكثير. فكل ما كان سيتعيَّن عليها فعله هو أن تثبت جناحَيها وتترك الباقي للريح.

زقزقت: «لا يهم الآن. سأصل إلى هناك بأسرع ما أستطيع. بعد ذلك سأعود إلى عزيزتي لونا. سأكون هناك عندما يبدأ سحرها. سأريها كيف تستخدِمه. ومن يعلم؟ ربما كنتُ مخطئة. ربما لن يأتي سحرها أبدًا. ربما لن أموت. ربما يحدث العديد من الأشياء.»

أكلت مجموعة من النمل الذي كان يحتشد في اللحاء الخارجي من الشجرة، بحثًا عن شيء حلو. لم يكن كثيرًا لكنه سدَّ رمقها قليلًا. وبعدما نفشت زان ريشها كي تنعم بالدفء، أغمضت عينَيها وراحت في النوم.

بزغ القمر فوق أعالي الأشجار، مُستديرًا وثقيلًا كيقطينة ناضجة. سقط ضوءُه على زان فأيقظها.

همست: «شكرًا لك»، شاعرةً بأن ضوء القمر يغوص مخترقًا عظامها، مُليِّنًا مفاصلها ومُخففًا ألَمها.

قال صوت: «من هناك؟ أحذرك! أنا مسلح!»

لم تستطع زان أن تكبح نفسها. بدا الصوت خائفًا جدًّا. وتائهًا جدًّا. وكان بوسعها أن تساعد. وعندئذٍ أصبح ضوء القمر يُغطيها بالكامل. في الواقع، لو توقفت للحظة فقط، فستتمكن من جمع هذا الضوء بجناحيها وشُربه إلى حد الامتلاء. لن تظل على هذه الحالة من الامتلاء بالطبع. فقد كانت مسامية للغاية كالإسفنج. لكنها كانت ستشعر بشيءٍ رائعٍ في الوقت الراهن. وبالأسفل تحتها، كان شخص يتحرك بسرعةٍ من جهة لأخرى؛ كان يحني كتفَيه، وينظر يمينًا ويسارًا. كان مذعورًا. وزاد ضوء القمر زان انتفاخًا وحجمًا. كما زادها عطفًا. رفرفت خارجةً من مخبئها وحامت فوق الشخص. كان شابًّا. صرخ، وأطلق الحجر الذي كان في يده، فأصاب زان في جناحها الأيسر. سقطت على الأرض دون أدنى صوت.

عندما أدرك أنتين أن ما حام فوق رأسه لم يكن ساحرةً مُخيفةً تنقض عليه (تمتطي تنينًا وتحمل عصا مشتعلة)، كما ظن، بل طائر بُني صغير ربما كان في حاجة إلى القليل من الطعام، شعر في الحال بالخزي. بمجرد أن انطلق الحجر من يدَيه، تمنَّى لو كان بإمكانه استرداده مرةً أخرى. فمع كل الجرأة التي كان عليها أمام المجلس، لم يسبق له مطلقًا أن لوى حتى عنق دجاجة للحصول على عشاءٍ لذيذ. لم يكن واثقًا تمامًا مما إذا كان بوسعه أن يقتل «الساحرة».

(قال لنفسه محذرًا: «ستختطف «الساحرة» ابني.» لكنه بدأ يتردد. لم يكن إزهاق روح بالأمر السهل. مع كل دقيقة كانت تمر، كان يشعر بأن عزيمته بدأت تضعف.)

حطَّ الطائر أمام قدمَيه مباشرةً. لم يصدر صوتًا. ولم يكن يتنفس. اعتقد أنتين متيقنًا أنه مات. كتم صرخةً بداخله.

ثم ... حدثت معجزة! علا صدر الطائر ثم هبط، ثم علا ثم هبط. انحرف جناحه بزاوية نحو الخارج بشكلٍ مقزز. لقد كُسر. كان ذلك مؤكدًا.

جثا أنتين على ركبتَيه. تنهَّد قائلًا: «أنا آسف. آسف جدًّا.» رفع الطائرَ وحمله في يدَيه. لم يبدُ بصحةٍ جيدة. وكيف يمكن أن يكون كذلك، في هذه الغابة الملعونة؟ نصف الماء مسمم. إنها «الساحرة». كل هذا بسبب «الساحرة». اللعنة عليها إلى الأبد! قرَّب الطائر من صدره، محاولًا أن يُدفئه بحرارة جسده. قال مُجددًا: «أنا آسِف جدًّا جدًّا.»

فتح الطائر عينَيه. إنه سنونو، أمكنه أن يرى هذا. إيثين تحب طيور السنونو. مجرد التفكير فيها جعل قلبه ينفطر. كم كان يشتاق إليها! كم كان يشتاق إلى ابنهما! وكان مستعدًّا لفعل أي شيءٍ من أجل أن يراهما مرةً أخرى!

رمقه الطائر بنظرة حادة. وعطس. لا يُمكنه أن يلومه.

«استمع إليَّ، أنا آسف بشأن جناحك. وللأسف، لا أملك المهارات اللازمة لعلاجه. لكن زوجتي. إيثين ...» تهدج صوته وهو ينطق باسمها. «إنها ماهرة وحنونة. يُحضر لها الناسُ حيواناتِهم المصابة طوال الوقت. يمكنها مساعدتك. أعرف هذا.»

ربط الجزء العلوي من سُترته الضيقة وصنع كيسًا صغيرًا ووضع الطائر بأمان بداخله. أطلق الطائر تغريدة. قال أنتين لنفسه: «ليس سعيدًا معي.» ولكي يؤكد الطائر هذه النقطة، عض سبابته عندما قرَّبها منه. فظهر الدم في طرف إصبعه.

طارت عثة ليلية نحو وجه أنتين، ربما انجذبت لضوء القمر الذي يلمع فوق جلده. بعد تفكير سريع، أمسك أنتين بالعثة، وقدَّمها للطائر.

قال: «خذ. لكي أريك أنني لا أقصد أي ضرر.»

رمقه الطائر بنظرة حادَّة أخرى. ثم انتزع الفراشة على مضض من أصابعه وابتلعها بعدما مضغها ثلاث مرات.

«هناك. هل ترى؟» رفع ناظرَيه إلى القمر، ثم نظر إلى الخريطة. «تعالَ. أريد فقط أن أصل لأعلى هذا المرتفع، وبعد ذلك يمكننا الحصول على قسطٍ من الراحة.»

وتوغل أنتين و«الساحرة» في الغابة.

شعرت الأخت إجنيشا بأن قواها تضعف بسرعة كبيرة. كانت قد بذلت أقصى ما في وسعها كي تمتص كل الحزن الذي يُمكنها امتصاصه، لم تصدق كمَّ الحزن الذي رأته يُخيم على

المدينة! سُحب عظيمة ولذيذة منه، مستمرة كالضباب. كانت حقًّا قد تفوقت على نفسها، وأدركت حينئذٍ أنها كانت قد حرمت نفسها من هذا التقدير الذي كانت تستحقه. تحولت مدينة كاملة إلى بئر حقيقية من الحزن. كانت بمثابة كأس لا يفرغ أبدًا. كله من أجلها. لم يكن أحد في تاريخ «الأزمنة السبعة» قد تمكن من تحقيق مثل هذا الإنجاز. لا بد أن تُكتب عنها أغنيات. أو على الأقل كُتُب.

أما الآن، فقد مرَّ يومان دون أن تحصل على أي حزن، وكانت بالفعل ضعيفة ومنهكة. ومرتعشة. كانت ينابيع السحر لديها تُستنزَف بسرعة هائلة. سيتعين عليها إيجاد ذلك الصبي. وبسرعة.

توقفت وركعت بجوار جدول صغير، وهي تمسح بعينَيها الغابة المجاورة بحثًا على أي علامات على وجود حياة. كانت تُوجد أسماك في الجدول، لكن الأسماك مُعتادة على نصيبها في الحياة وكقاعدة عامة لا تشعر بالحزن. كان يُوجَد عش من طيور الزرزور بالأعلى، وكان عمر الفراخ الصغيرة لا يتجاوز يومَين. يُمكنها سحق الطيور الصغيرة الواحد تلو الآخر، والتغذِّي على حزن الأم، بالطبع يُمكنها فعل ذلك. لكن حزن الطيور ليس بكفاءة حزن الثدييات. لم تكن تُوجَد أي ثدييات على مدى أميال. تنهدت الأخت إجنيشا. جمعت ما احتاجت إليه من أجل صُنع جهاز رصد مؤقت؛ قطعةً من زجاج بركاني من جيبها، وعظام أرنب مقتول حديثًا، ورباط حذاء إضافي؛ لأنه كان من المفيد استخدام أكثر شيءٍ نافع في متناول اليد. ولم يكن يُوجَد ما هو أهم من رباط الحذاء. صحيح أنه لا يُمكنها صنعه بنفس الدرجة من التفصيل التي تتميز بها أجهزة الرصد الكبيرة الموجودة في «البرج»، لكنها لم تكن تتطلَّع للكثير.

لم يكن يمكنها رؤية أنتين. كانت لديها فكرة عن المكان الذي يمكن أن يكون فيه. كانت شبه متأكدةٍ من أنها ستجد غشاوةً في المكان الذي تظن أنه قد يكون موجودًا فيه. لكن شيئًا ما كان يحجب عنها الرؤية.

تمتمت: «سِحر؟ بالتأكيد لا.» فجميع السحرة على الأرض — على الأقل الذين كانوا يعرفون ما يفعلون — كانوا قد هلكوا منذ خمسمائة سنة مضت عندما ثار البركان. أو تقريبًا ثار. يا لهم من حمقى! أرسلوها بـ «الحذاء الذي يقطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة» كي تُنقذ الناس في قرى الغابة. وقد فعلت بالطبع. كانت قد جمعتهم جميعًا سالمين في «المحمية». واحتشدت جميع أحزانهم غير المُنتهية معًا على مكانٍ واحد. كان كل ذلك وفقًا لخطة.

لعقت شفتَيها. كانت «جائعةً» جدًّا. كانت بحاجة إلى أن تمسح محيطها بعينيها.

رفعت «كبيرة الأخوات» جهاز الرصد الخاص بها إلى عينها اليُمنى ومسحت بقية الغابة. غشاوة أخرى. تساءلت: «ما خطب هذا الجهاز؟» ضيَّقت العُقَد. لا تزال تُوجَد غشاوة. جزمت أن هذا بسبب الجوع. حتى التعويذات البدائية تكون صعبةً عندما لا يعمل المرء بكامل قوته.

رمقت كبيرة الأخوات عش الزرزور.

مسحت الجبل بعينَيها. ثم شهقت.

صرخت: «لا!» نظرت مرةً أخرى. «كيف لا تزال على قيد الحياة، أيها المخلوق القبيح؟»

فركت عينَيها ونظرت للمرة الثالثة. همست: «ظننتُ أنني قتلتك، يا جليرك. حسنًا، أظن أن عليَّ المحاولة مرةً أخرى. كائن مُزعج. لقد كدتَ تُحبط عملي ذات مرة، لكنك فشلت. ولا بد أن تفشل مرةً أخرى.»

قالت في نفسها: «أولًا، عليَّ أن أحصل على وجبة خفيفة.» وضعت الأخت إجنيشا جهاز الرصد في جيبها، وتسلقت إلى الفرع الذي به عش الزرزور. مدَّت يدَها وجذبت فرخًا صغيرًا يتلوى. سحقته بقبضةٍ واحدة بينما كانت الأم المذعورة تنظر دون أن تتدخل. كان حزن العصفورة الأم ضئيلًا. ومع ذلك كان كافيًا. لعقت الأخت إجنيشا شفتَيها وسحقت فرخًا آخر.

قالت في نفسها: «والآن، عليَّ أن أتذكر أين أخفيتُ «الحذاء الذي يقطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة».»

الفصل الرابع والثلاثون

لونا تلتقي بامرأة في الغابة

حطت الطيور الورقية فوق فروع الأشجار والصخور وبقايا المداخن والجدران والمباني القديمة. لم تُصدِر أي صوتٍ أكثر من حفيف الأوراق واحتكاك الطيات. سكنت أجسامها واستدارت نحو الفتاة الواقفة على الأرض. لم تكن لديها أعين. ومع ذلك، كانت تُراقبها. شعرت لونا بهذا.

قالت: «مرحبًا»، لأنها لم تعرف ماذا تقول غير هذا. لم تقل الطيور الورقية شيئًا. أما الغراب فلم يستطع البقاء ساكنًا. وأسرع نحو زمرةٍ تجمعت فوق الفرع المُمتد من شجرة بلوط قديمة، وأخذ ينعق في نفس الوقت.

نعق الغراب: «كاو، كاو، كاو، كاو.»

قالت لونا محذرة: «اصمت». كانت تُراقب الطيور الورقية. مالت الطيور برأسها في آن واحد، وأشارت بمناقيرها أولًا نحو الفتاة الواقفة على الأرض، ثم تابعت الغراب المجنون، ثم عادت تنظر إلى الفتاة.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «أنا خائف».

قالت لونا وهي تحدق في الطيور: «وأنا أيضًا.» تفرقت الطيور وتجمعت مرة أخرى، مُحلقةً فوقَها كسحابة متموجة عظيمة. وذلك قبل أن تحط من جديد على فروع شجرة البلوط.

قالت لونا في نفسها: «هذه الطيور تعرفني.

كيف تعرفني؟

الطيور، والخريطة، والمرأة التي أراها في أحلامي. إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.»

كان الأمر مُعقدًا لدرجة أنها لم تستطع التفكير فيه. العالم مليء بالكثير من الأشياء التي يجب على المرء معرفتها، وكان عقل لونا ممتلئًا تمامًا. كانت تشعر بألَم في رأسها، في منتصف جبهتها تمامًا.

حدقت الطيور الورقية نحوها.

سألت لونا: «ماذا تريدين منِّي أيتها الطيور؟» استقرت الطيور الورقية في الأماكن التي حطَّت فيها. كانت أكثر من أن تُحصى. وكانت تنتظر. لكن ماذا كانت تنتظر؟

قال الغراب: «كاو.» وكان يقصد: «ومن يهتم بما تُريده؟ الطيور الورقية مخيفة.»

كانت مخيفة بالفعل. لكنها كانت أيضًا جميلة وغريبة. كانت تبحث عن شيءٍ ما. أرادت أن تُخبرها شيئًا ما.

جلست لونا على التراب. وظلَّت تُراقب الطيور. تركت الغراب يأوي إلى حِجرها. أغمضت عينَيها وأخرجت كتابها وقلمَ رصاصٍ صغيرًا. ذات مرة، كانت قد تركت عقلَها يَهيم وهي تفكر في المرأة التي تراها في أحلامها. وبعد ذلك، رسمت خريطة. وكانت الخريطة «صحيحة». أو على الأقل كانت كذلك حتى الآن. أشارت الخريطة: «إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا»، ولا يمكن للونا سوى أن تفترض أنها تقول الحقيقة. لكنها الآن كانت بحاجةٍ إلى أن تجعل شيئًا آخر يحدُث. كانت بحاجةٍ إلى أن تعرف أين جدتها.

قال الغراب: «كاو.»

قالت لونا دون أن تفتح عينيها: «اصمت. أحاول التركيز.»

كانت الطيور الورقية تُراقبها. كان يمكنها أن تشعر بها تُراقبها. شعرت لونا بيدها تتحرك على الصفحة. حاولت أن تُبقي تركيزها مُنصبًّا على وجهِ جدَّتها. لمسة يدِها. رائحة بشرتها. شعرت لونا بأن الخوف خلع قلبها من مكانه ووضعه في قبضته، وشعرت بدمعتَين ساخنتَين تنحدران لأسفل، وتسقطان على الورق لتُحدثا صوت ارتطام.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «طائر.»

فتحت لونا عينَيها. كان الغراب مُحقًّا. لم ترسم جدتها على الإطلاق. بل رسمت طائرًا غبيًّا. طائرًا جالسًا على يد رجل.

تمتمت لونا، وقد سيطر عليها الهلع: «حسنًا، ما هذا بحق السماء؟» كيف يُمكنها أن تجد جدتها؟ حقًّا كيف؟

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «نمر.»

نهضت لونا مسرعة، وهي تُبقي ركبتيها مُثنيتَين محافظةً على انخفاض قامتها.

همست للغراب: «ابقَ قريبًا.» تمنَّت لو أن الطيور كانت مصنوعةً من مادة أقوى من الورق. صخور، مثلًا. أو فولاذ حاد.

قال صوت: «حسنًا. ماذا لدَينا هُنا؟»

قال الغراب: «كاو.» وكان يقصد أن يقول: «نمر.»

لكنه لم يكن نمرًا على الإطلاق. كان امرأة.

«إذن لماذا أشعر بخوفٍ شديد.»

وقفت إيثين عندما وصل كبير الحكماء، تُحيط به جنديتَين مدجَّجتَين بالسلاح من «أخوات النجمة». لم يبدُ عليها الخوف على الإطلاق. كان هذا مزعجًا حقًّا. قطَّب كبير الحكماء حاجبَيه بطريقةٍ حسِب أنها آمِرة. لكنها لم تؤثر. الأدهى من ذلك أنه بدا أنها كانت تعرف الجنديتَين، بل كانت صديقةً لهما أيضًا. تهلَّل وجهها عند وصول الجنديتَين الصارمتَين، وبادَلَتها الجنديتان الابتسام.

قالت، وهي تبتسم في وجه الجندية التي على اليسار: «ليلينز! وصديقتي الغالية جدًّا ماي» وبعثت قبلةً في الهواء للجندية التي على اليمين.

لم تكن هذه هي البداية التي كان كبير الحكماء يأمُلها. تنحنح. لم يبدُ أن النساء في الغرفة لاحظن وجودَه. كان هذا مثيرًا للسخط.

قالت إيثين بانحناءة مُهذبة: «مرحبًا، أيها العم جيرلاند. لقد غليتُ لتوي بعض الماء في الغلاية ولديَّ نعناع طازج من الحديقة. هل يُمكنني أن أُحَضِّرَ لك بعض الشاي؟»

جعَّد كبير الحكماء أنفَهُ مُبديًا تأفُّفه. وقال بنبرة لاذعة: «معظم ربات البيوت، يا سيدتي، لا يشغلن أنفسهن بزراعة أعشابٍ تافهة في حديقتهنَّ بينما لديهنَّ أفواه يُطعمنها وجيران يعتنين بهم. لماذا لم تزرعي شيئًا أكثر فائدة؟»

كانت إيثين رزينةً وهي تتحرك نحو المطبخ. كان الرضيع مربوطًا في جسدها بقطعة قماش جميلة، طرَّزتها بنفسها، بدون شك. كان كلُّ شيء في المنزل جميلًا ومنسقًا. وينمُّ عن الكَدِّ والإبداع والبراعة. كان جيرلاند قد رأى ذلك المزيج من قبل ولم يُعجبه. صبَّت الماء المغلي في كوبَين مصنوعَين يدويًّا يمتلآن بالنعناع، وجرَتْ تحليتهما بالعسل الذي حصلت عليه من خلية النحل الخاصة بها الموجودة بالخارج. كان النحل والزهور وحتى الطيور المغردة تُحيط بالمنزل. تحرك جيرلاند مُتململًا. أخذ كوب الشاي وشكر مضيفته، مع أنه

كان واثقًا من أنه سيكرهه. تناول رشفة. وأدرك بِغيظٍ أن هذا الشاي هو ألذُّ شيء شربه في حياته.

تنهَّدت إيثين بسعادة، وهي تنحني إلى حمَّالتها لتطبع قبلةً على جبين رضيعها: «أوه يا عمي جيرلاند. أنت تعلم بالتأكيد أن الحديقة المُنتجة هي الحديقة التي تتَّسِم بالتوازن. تُوجد نباتات تتغذَّى من التربة ونباتات تُغذِّي التربة. نحن نزرع أكثر مما يُمكننا أن نأكل، بالطبع، ومعظم ما نزرعه نُعطيه للآخرين. أنت تعلم أن ابن أختك على أتم استعداد لأن يهب روحَه لمساعدة الآخرين.»

إن كان ذِكر زوجها قد آلَمَها، فإنها لم تُظهِر ذلك. بدت الفتاةُ غير قادرة على الحزن، يا لها من مخلوقةٍ حمقاء. في الواقع، بدت وكأنها تتوهَّج بالكبرياء. ارتبك جيرلاند. وبذل قصارى جهده كي يتمالك نفسه.

«كما تعلمين يا صغيرتي، «يوم التضحية» يقترب بسرعة.» توقع أن يشحب وجهها مما قاله. لكنه كان مُخطئًا.

قالت، وهي تُقبل رضيعها مرةً أخرى: «أعلم هذا يا عمي.» رفعت ناظِرَيها والتقت نظراتهما، وكانت نظرتُها تدلُّ على أنها واثقة من أنها لا تقِلُّ قدرًا عن كبير الحكماء لدرجة أنه وجد نفسَهُ عاجزًا عن الكلام في ظلِّ هذه الوقاحة.

تابعت إيثين برفق: «عمي العزيز. لِمَ أتيت إلى هُنا؟ بالطبع أنت مُرحَّب بك في بيتي في أي وقتٍ تختار فيه المرور علينا، وبالطبع أنا وزوجي تسرُّنا دومًا رؤيتك. عادةً ما تكون «كبيرة الأخوات» هي التي تأتي لتخويف أسرةِ الأطفال المنكوبين. لقد كنتُ أنتظر مجيئها طوال اليوم.»

قال جيرلاند: «حسنًا. «كبيرة الأخوات» ليست موجودة. لذا أتيتُ بدلًا منها.»

رمقت إيثين الرجلَ المسنَّ بنظرة ثاقبة. «ماذا تقصد بغير موجودة؟ أين الأخت إجنيشا؟»

تنحنح كبير الحكماء. لم يكن معتادًا على أن يستفسِر منه الناس. في الواقع، لم يكن الناس يستفسرون «كثيرًا» في «المحمية»؛ فقد كانوا أناسًا راضين بنصيبهم في الحياة، كما كان ينبغي أن يكونوا. لكن هذه الشابَّة الصغيرة لم تكن كذلك، وقال في نفسه: «هذه الطفلة ... حسنًا لا بأس. لا يسعني إلا أن آمُل أن تُصاب بالجنون كما حدث للمرأة الأخرى منذ زمنٍ بعيد.» كان مُتيقنًا من أن تجربة الحبس في «البرج» أهون بكثير من

الأسئلة الوقِحة التي تُطرَح في تجمُّعات الغداء العائلية. تنحنح مرةً أخرى. وقال ببطء: «الأخت إجنيشا غادرت في شأنٍ ما.»

سألت الفتاة، وهي تُضيِّق عينيها مُتفحصةً إيَّاه: «أي شأن؟»

أجاب جيرلاند: «شأن خاص بها، على ما أظن.»

وقفت إيثين واقتربت من الجنديتَين. كانتا مُدربتَين، بالطبع، على ألا تتواصلا بالأعين مع المواطنين، وأن تنظرا أمامهما مباشرةً بلا مبالاة. كان من المُفترَض بهما أن يكون مظهرهما جامدًا كالصخر وأن تكون مشاعرهما جامدة كالصخر أيضًا. كانت هذه هي العلامة التي تدلُّ على الجندي الماهر، وكان «جميع» الأخوات جنديات ماهرات. لكن وجهَي «هاتين» الجنديتَين كانا على وشك الاحمرار عندما اقتربت منهما الفتاة. فحوَّلتا نظرتَيهما للأرض.

همست إحداهما: «إيثين. لا.»

قالت إيثين: «ماي. انظري إلى وجهي. وأنتِ أيضًا يا ليلينز.» فغر جيرلاند فاهُ ذهولًا. فلم يكن قد رأى شيئًا كهذا طوال حياته. كانت إيثين أصغر حجمًا من كلتا الجنديتَين. ومع ذلك لم تبدُ كذلك. بدت تفُوقهما طولًا وهي واقفة أمامهما.

قال بارتباك: «حسنًا. لا بد أن أعترض على ...»

تجاهلته إيثين. «هل يجوس النمر؟»

ظلت الجنديتان صامتتَين.

قال جيرلاند: «أظن أننا نحيد عن موضوع المحادثة ...»

رفعت إيثين يدَها كي تُسكِت خال زوجها. ومن المدهش أنه صمت. لم يستطع أن يُصدِّق هذا. تابعت الشابة: «في الليل، يا ماي. أجيبيني. هل يجوس النمر؟»

زمَّت الجندية شفتَيها، وكأنها تحاول حبس الكلمات بداخلها. وأجفلت.

قال جيرلاند بارتباك: «ماذا تقصدين بحق السماء؟ نمور؟ أنتِ أكبر من هذه الألعاب الصبيانية!»

قالت إيثين بلهجةٍ آمرة: «صمتًا.» ومرة أخرى، لسببٍ مُبهم، صمت جيرلاند. كان مذهولًا.

عضت الجندية على شفتِها وتردَّدت للحظة. مالت ناحية إيثين. «في الواقع، لم أفكر مطلقًا في هذا مثلما فكرتِ، لكن نعم. لم تطُف أي مخالب مُبطنة في ممرات «البرج». لم تصدُر أي زمجرة. لم يحدُث هذا لأيام. نحن جميعًا ...» — أغمضت الجندية عينَيها — «ننام عميقًا. لأول مرة منذ سنوات.»

لفَّت إيثين ذراعَيها حول الرضيع في حمَّالته. تنهَّد الطفل في أحلامه. تمتمت إيثين: «إذن، الأخت إجنيشا ليست في «البرج». إنها ليست في «المحمية»، وإلا كنتُ سمعتُ بذلك. لا بدَّ أنها في الغابة. وبلا شك تنوي قتلَه.»

سارت إلى جيرلاند. الذي أغضى الطرف. كان كل شيءٍ في هذا المنزل براقًا. وعلى الرغم من أن باقي المدينة كان غارقًا في الضباب، كان هذا المنزل يغمُرُه الضوء. كان ضوء الشمس يتدفَّق من النوافذ. وكانت الأسطح تلمع. حتى إيثين، بدت لامعةً كنجم غاضب.

«عزيزتي ...»

«أنت.» كان صوت إيثين يتراوح بين الخوار والهسيس.

قال جيرلاند شاعرًا بأنه يتجعَّد ويحترق كورقة: «ما أقصد قوله ...»

«أنت أرسلت زوجي إلى الغابة كي يموت.» كانت عيناها مُستعرتَين. وكان شعرها ملتهبًا. حتى جلدها بدا مشتعلًا. شعر جيرلاند بأن أهدابه بدأت تُسفَع.

«ماذا؟ يا لسُخف ما تقولينه. أعني ...»

«ابن أختك.» بصقَتْ على الأرض؛ وهي إيماءة فظَّة لكن الغريب أنها بدت مقبولة حين فعلتها. ولأول مرةٍ في حياته، شعر جيرلاند بالخجل. «أنتَ أرسلتَ قاتلةً خلفَه. ابن أختك الأكبر وصديقك المُفضل. كيف أمكنك هذا؟»

«الأمر ليس ما تحسبين يا عزيزتي. أرجوكِ. اجلسي. نحن عائلة واحدة. دعينا نناقش ...» لكن جيرلاند شعر بأنه مُحطم من الداخل. أصاب روحه ألف شرخ.

تخطَّتْه وعادت للجنديتَين.

قالت: «أيتها السيدتان. إن كانت أيٌّ منكما تُكِن لي مثقالَ ذرةٍ من حبٍّ أو احترام، فيتعين عليَّ أن أسألكما المساعدة. لديَّ أشياء أودُّ إنجازها قبل «يوم التضحية»، وكما نعلم جميعًا» — رمقت جيرلاند بنظرة كراهية — «يوم التضحية» لا ينتظر أحدًا» صمتت للحظة. «أظن أن عليَّ زيارة أخواتي القدامى. فالقطة غير موجودة. وإن غابت القطط، تلعب الجرذان. وثمَّة الكثير مما يمكن للجرذان فعله في النهاية.»

قالت الأخت ماي، وهي تُشبك ذراعها بذراع الأم الشابة: «أوه يا إيثين. كم اشتقتُ إليكِ.» وغادرت المرأتان، وإحداهما تتأبَّط ذراع الأخرى، بينما ألقت الجندية الأخرى بتردُّدٍ نظرةً سريعةً على كبير الحكماء، ثم أسرعت خلفهما.

قال كبير الحكماء: «لا بدَّ أن أقول، هذا تجاوز ...» تلفَّت حوله. «أعني. ثمة قوانين، كما تعلمن.» شدَّ قامته ونظر بغطرسة إلى الفراغ حوله. «قوانين.»

لم تتحرك الطيور الورقية. ولم يتحرك الغراب. وأيضًا لم تتحرك لونا.

لكن المرأة اقتربت منها في سكون. لم تستطع لونا تحديد عمرها. ففي لحظة، بدت صغيرة جدًّا. وفي أخرى بدت عجوزًا للغاية.

لم تقُل لونا شيئًا. تحولت نظرة المرأة للطيور على الأغصان. ودققت النظر.

قالت: «لقد رأيتُ هذه الخدعة من قبل. هل صنعتِ تلك الطيور؟»

عادت ببصرها إلى لونا، التي بدورها شعرت بأن نظرات المرأة تخترِقها من المنتصف. صرخت متألِّمة.

ابتسمت المرأة ابتسامةً عريضة. وقالت: «لا. هذا ليس سحركِ.»

قيلت الكلمة بصوتٍ جهوري جعل لونا تشعر بأن رأسها يكاد ينفلق نصفَين. اعتصرت جبينها بيدَيها.

قالت المرأة: «أتشعُرين بالألم؟ هذا أمر مؤسِف، ألا تظنِّين ذلك؟» كانت ثمة نبرة غريبة، تنمُّ عن التفاؤل في صوتها. ظلَّت لونا جاثمة على الأرض.

قالت بصوتٍ مضغوط ومُتوتر، كزنبرك على وشك الانفلات: «لا. ليس حزنًا. مجرد غضب.»

تحوَّلت ابتسامة المرأة إلى تجهُّم. وعادت ترفع بصرَها للطيور الورقية. ابتسمت لها ابتسامة جانبية. قالت: «إنها رائعة. هل تلك الطيور ملكِك؟ هل كانت هدية؟»

هزَّت لونا كتفَيها باستهجان.

مالت المرأة برأسها جانبًا. «انظري كيف تحطُّ فوقك، تنتظِر أن تتحدَّثي. ولكنها ليست من صُنعكِ. هذا ليس سحركِ.»

قالت لونا: «لم أصنع شيئًا بسحري.» كانت الطيور خلفَها تحفُّ بأجنحتها. كان بإمكان لونا أن تتلفَّت كي تنظر، لكنها لم ترغب في أن تقطع تبادُل النظرات مع الغريبة، وقد أخبرَها شيء ما بأنها لم تكن ترغب في أن تفعل ذلك. «ليس لديَّ أي سحر. لماذا يكون لديَّ من الأساس؟»

ضحكت المرأة بطريقةٍ غير لطيفة. «حسنًا، لو كنتُ مكانكِ، ما كنت سأقول ذلك، أيتها السخيفة.» قرَّرت لونا أن تكرَه هذه المرأة. «كنتُ سأقول إن أشياء عديدة من سحركِ. والبقية تأتي، إن لم أكن مخطئة. وذلك على الرغم من أنه يبدو أن شخصًا ما حاول إخفاء قدراتكِ السحرية عنكِ.» مالت نحو الأمام ودقَّقت النظر. «هذا مُثير للاهتمام. هذه التعويذة. أعرفها. لكن ما يدعو للدهشة أن سنواتٍ عديدةً مرَّت.»

ارتفعت الطيور الورقية مُرفرفةً في آنٍ واحد، وكأنها تلقَّت إشارة مُعينة، وحطَّت بجوار الفتاة. ووجَّهت مناقيرها نحو الغريبة، وقد تيقَّنت لونا أن هذه الطيور أصبحت أشدَّ حدة وأكثر خطورة من ذي قبل. أجفلت المرأة قليلًا وتراجعت خطوةً أو خطوتَين.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «استمرِّي في المشي.»

بدأت الصخور أسفل يدَي لونا تهتزُّ وتختلج. بدا وكأنها تهزُّ الهواء نفسه. حتى الأرض كانت تهتز.

قالت المرأة: «ما كنتُ سأثِق فيها لو كنتُ مكانكِ. إنها معروفة بالهجوم.»

رمقتها لونا بنظرة شك.

«أوه، ألا تُصدقينني؟ حسنًا. المرأة التي صنعت هذه الطيور لئيمة. كما أنها مُحطَّمة. وقد حزِنت إلى أن أصبحت غير قادرةٍ على الحزن، وهي الآن معتوهة تمامًا.» وهزَّت كتفَيها بلا مبالاة. «وبلا فائدة.»

لم تعرف لونا لماذا أغضبَتْها المرأة كثيرًا هكذا. لكن تعين عليها أن تقاوم كل شيء بداخلها يُخبرها بأن تنهض بسرعةٍ وتركل المرأة في قصبتَي ساقَيها بكل قوتها.

«آه.» ابتسمت الغريبة لها ابتسامةً عريضة. «الغضب. رائع جدًّا. ليس مفيدًا لي للأسف، ولكن نظرًا لأنه كثيرًا ما يُمهد الطريق إلى الحزن، فإنني أعترف أنني أُحبه حقًّا.» لعقت شفتَيها. «أُحبُّه كثيرًا.»

تذمرت لونا قائلةً: «لا أظن أننا سنُصبح صديقتَين.» وقالت في نفسها: «سلاح. أظنُّ أنني في حاجة إلى سلاح.»

قالت المرأة: «أتفق معك. لا أظننا سنُصبح صديقتَين. أنا هُنا لآخُذ ما هو ملكي فحسب، وبعدها سأمضي في طريقي. أنا ...» صمتت برهة. ثم رفعت إحدى يدَيها. «انتظري قليلًا.» استدارت المرأة وسارت نحو القرية الخربة. كان برج يرتفع في منتصف الأطلال، وإن لم يبدُ عليه أنه سيظلُّ قائمًا لفترة أطول. إذ كان ثمة شرخ كبير في أساسه على أحد الجانبَين، وبدا كفمٍ فاغر مدهوش. قالت المرأة، لنفسها على الأغلب: «لقد كان في البرج. وضعته هنا بنفسي. أتذكَّر الآن.» ركضت نحو الفتحة وجثت على رُكبتَيها على الأرض. ودققت النظر في الظلام.

همست المرأة: «أين حذائي الطويل الرقبة؟ تعالَ إليَّ يا عزيزي.»

حدقت لونا. كان قد راودها حلم ذات مرة، ليس من زمنٍ بعيد جدًّا. بالتأكيد كان حلمًا، ألم يكن كذلك؟ وكان فيريان قد مدَّ يدَه إلى حفرةٍ في برجٍ مُتداعٍ وأخرج حذاءً طويل

الرقبة. لا بدَّ أنه كان حلمًا، لأن فيريان كان ضخمًا جدًّا. ثم أحضر لها الحذاء. ووضعته في صندوق.

صندوقها!

لم تفكر فيه مُجددًا حتى هذه اللحظة.

هزت رأسها كي تطرد هذه الفكرة.

صرخت المرأة: «أين حذائي؟» تراجعت لونا للخلف.

نهضت الغريبة، وثوبها الفضفاض ينتفخ حولها. رفعت يدَيها عاليًا فوق رأسها وبحركة كاسحة قوية، دفعت الهواء من أمام جسدها. وفي لحظة سقط «البرج». وقعت لونا على الصخور وهي تصرخ. أما الغراب، الذي أرعبَتْه الضوضاء والأتربة والفوضى، فطار نحو السماء. طار في دوائر في الهواء، وهو يلعن في نفس الوقت.

همست لونا، مُحاولةً أن تستوعِب ما كانت تراه: «كان على وشك السقوط.» حدقت في سحابة الأتربة والعفن والحصى عند كومة الركام وفي الجسد المنحني للمرأة ذات العباءة الفضفاضة التي كانت ترفع ذراعَيها لأعلى وكأنها على وشك الإمساك بالسماء. وقالت في نفسها: «لا يمكن أن يكون لأحدٍ مثل هذه القوة. أليس كذلك؟»

صرخت المرأة: «اختفى! لقد اختفى!»

استدارت وسارت نحو الفتاة. وبحركةٍ من رسغها الأيسر، جعلت الهواء ينحني أمامها، وبذلك أجبرت لونا على النهوض. أبقت المرأة يدَها اليُسرى ممدودة، قابضةً على الهواء بأصابع مطوية كالمخالب، ومُثبتةً لونا في مكانها على بُعد ياردات عديدة.

«لم آخُذه!» أنَّت لونا. كانت قبضة المرأة مؤلِمة. شعرت لونا بخوفها يتمدَّد بداخلها كسحابةٍ مُنذرة بعاصفة. ومع تزايد خوفها، اتسعت ابتسامة المرأة. بذلت لونا أقصى ما في وسعها كي تظلَّ هادئة. «لقد وصلتُ إلى هُنا لتوي.»

همست المرأة: «لكنك لمستِه. يُمكنني أن أرى الآثار على يديكِ.»

قالت لونا، وهي تُدخل يدَيها في جيبيها: «لا لم أفعل!» حاولت طرد أي ذِكرى للحلم.

«ستُخبرينني بمكانه.» رفعت المرأة يدَها اليمنى، ورغم بُعد المسافة بينهما شعرت لونا بأصابع المرأة تقبض على حلقِها. بدأت تختنق. قالت المرأة: «ستُخبرينني الآن.»

«ابتعدي!» شهقت لونا.

وفجأة، تحرك كل شيء. ارتفعت الطيور من أماكنها وتجمَّعت خلف الفتاة.

«يا لكِ من فتاة سخيفة.» ضحكت المرأة. «هل تظنين أن حِيَلكِ السخيفة يمكن أن ...» وشنَّت الطيور هجومًا، وهي تدور كالإعصار. جعلت الهواء يهتز. وجعلت الصخور تنتفض. وأحنت جذوع الأشجار.

صرخت المرأة، وهي تلوِّح بيدَيها: «أبعِديها عنِّي.» أصابتها الطيور بجروحٍ في يدَيها. وأصابتها بجروح في جبهتها. كانت تهجم دون رحمة.

احتضنت لونا الغراب وركضت بأقصى ما أمكنَها من سرعة.

الفصل الخامس والثلاثون

جليرك يشم رائحة مكروه

قال فيريان: «أنا مُصاب بحكة يا جليرك. أنا مُصاب بحكة في كل مكان. أنا الكائن الأكثر إصابة بحكةٍ في العالم.»

قال جليرك بتثاقل: «كيف يا عزيزي، يمكنك معرفة ذلك؟» أغمض عينيه وتنفس بعمق. تساءل في نفسه: «أين ذهبتِ؟ أين أنتِ يا زان؟» شعر بأن قبضة القلق القاسية تقبض على قلبه، وتعتصِره إلى أن يتوقَّف عن النبض. كان فيريان قد جثم مباشرةً بين عينَي الوحش الهائلتَين، اللتين تفصل بينهما مسافة واسعة، وبدأ يحكُّ ظهره بجنون. أدار جليرك عينَيه في مِحجريهما في نفاد صبر. «أنت حتى لم ترَ العالم. ربما لا تكون الكائن الأكثر إصابة بالحكة.»

حكَّ فيريان ذيلَه وبطنَه ورقبتَه. كما حكَّ أُذنيه ورأسه وأنفه الطويل.

سأل فيريان فجأة: «هل تُبدل التنانين جلدها؟»

«ماذا؟»

«هل تُبدل جلدها مثل الثعابين؟» انهال فيريان على خصره الأيسر.

فكر جليرك في هذا. فتش في عقله. التنانين كائنات منعزلة. وقليلة ونادرًا ما تُرى. ومن الصعب دراستها. وبحسب خبرته، حتى التنانين لم تكن تعرف الكثير عن فصيلتها.

قال أخيرًا: «لا أعرف يا صديقي. يقول الشاعر:

«كل كائن حي فانٍ سيجد طريقَه حتمًا إلى موطنه الأصلي،
سواء أكان غابةً أو مستنقعًا أو حقلًا أو نيرانًا.»

ربما ستعرف كل ما تودُّ معرفته عندما تجِدُ موطنك الأصلي.»

سأل فيريان وهو يحكُّ جلده وكأنه يريدُ تقشيره تمامًا: «لكن ما موطني الأصلي؟»

«التنانين تشكلت في الأصل في النجوم. وهو ما يعني أن موطنك الأصلي هو النيران. شُقَّ طريقك بين النيران وستعرف من أنت.»

فكَّر فيريان في هذا. وقال في النهاية: «تلك تبدو فكرة مُرعبة. لا أريد أن أشقَّ طريقي بين النيران على الإطلاق.» حكَّ بطنه. وقال: «ما موطنك الأصلي يا جليرك؟»

تنهَّد وحش المُستنقع. «موطني؟» تنهَّد مرة أخرى. وقال: «مستنقع. «المستنقع».» ضغط بيده اليمنى الموجودة العُليا على قلبه. تمتم، مُكررًا كضربات القلب: ««المستنقع»، «المستنقع»، «المستنقع». إنه قلب العالم. إنه رحم العالم. إنها القصيدة التي شكلت العالم. أنا «المستنقع» و«المستنقع» أنا.»

تجهم فيريان. وقال: «لا، لستَ كذلك. أنت جليرك. وأنت صديقي.»

«أحيانًا يلعب الأشخاص أدوارًا مختلفة على مسرح الحياة. أنا جليرك. وأنا صديقك. وأنا عائلة لونا. وأنا شاعر. وأنا صانع. وأنا «المستنقع». فيما يخصُّك، أنا جليرك وحسب. صديقك جليرك. وأنا أُحبك كثيرًا.»

كان هذا صحيحًا. كان جليرك يُحب فيريان. تمامًا كما كان يُحب زان. وتمامًا كما كان يحب لونا. وكما كان يُحب العالَم بأسره.

تنفس مرة أخرى. كان يجدُر به أن يكتشف واحدةً من تعويذات زان على الأقل. فلماذا لم يتمكن من هذا؟

قال فيريان فجأة، وهو ينقض أمام وجه جليرك ويدور ويرفرف أمام أنفه: «انتبه يا جليرك.» أشار للخلف بإبهامه. «تلك الأرض بالأعلى هناك رقيقة جدًّا؛ غلاف رقيق من الصخر أسفله نيران. سقوطك عبرَه أمر حتمي كأي شيءٍ مؤكد.»

رفع جليرك حاجبَيه في ذهول. «هل أنت متأكد؟» وحدق في الصخر الممتد أمامه. تصاعدت الحرارة منه في موجات. «ليس من المفترض أن يكون الصخر حارقًا هُنا.» لكنه كان كذلك. كانت طبقة الصخر حارقة. وكان الجبل يهدر تحت الأقدام. كان هذا قد حدث من قبل، عندما هدد الجبل بأن يُفكك نفسه مثل ثمرة من نبات الزيرين نضجت أكثر من اللازم.

بعد ثوران البركان، والتكوينات السحرية التي نتجت عن هذا الثوران، لم يخمد البركان تمامًا، حتى في الأيام الأولى. كان دومًا يُدوِّي ويتقلب ويضطرب. لكن هذا بدا مختلفًا. كان هذا أشدَّ وطأة. ولأول مرةٍ منذ خمسمائة عام، شعر جليرك بالخوف.

قال الوحش: «فيريان يا رفيقي. دعنا نُسرع في سيرنا، ما رأيك؟» وبدأ فيريان وجليرك يسيران بطول الجانب العلوي من طبقة الصخر، وهما يبحثان عن مكان آمِن كي يعبُرا إليه.

جال جليرك في الغابة ببصره، وهو يتفحص النبتْ تحت الحِراج، مُضيِّقًا عينَيه ومادًّا بصره بأفضل قدرٍ ممكن. اعتاد أن يكون أداؤه أفضل في مثل هذه المهام. اعتاد أن يكون أداؤه أفضل في الكثير من الأشياء. تنفس بعمق، وكأنه يحاول ارتشاف الجبل بأكمله داخل أنفه.

نظر فيريان إلى وحش المستنقع بفضول.

قال: «ما الأمر يا جليرك؟»

هزَّ جليرك رأسه. وقال: «أعرف هذه الرائحة.» أغمض عينيه.

«رائحة زان؟» رفرف فيريان وعاد يرتفع وحطَّ على رأس الوحش. حاول إغلاق عينَيه والاستنشاق هو الآخر، فإذا به يعطس في النهاية. «أحب رائحة زان. أحبَّها كثيرًا.»

هز جليرك رأسه نفيًا ببطء، حتى لا يسقط فيريان. وتمتم بزمجرةٍ منخفضة: «لا بل شخص آخر.»

كانت الأخت إجنيشا تستطيع الركض بسرعة، إن أرادت ذلك. كانت سريعة كالنمر. سريعة كالرياح. كانت أسرع من السرعة التي كانت تمضي الآن، بالتأكيد. لكنها لم تكن بنفس سرعتها حين ترتدي حذاءها الطويل الرقبة.

هذا الحذاء!

كانت قد نسيت كم كانت تُحب هذا الحذاء فيما مضى. عندما كانت تتمتع بالفضول وحب الترحال والرغبة في الانتقال إلى الجانب الآخر من العالم والعودة في المساء. ذلك قبل أن تغذي أحزان «المحمية» الوفيرة الشهية روحها حتى صارت كسولة ومصابة بالتخمة وبدينة للغاية. الآن، كان مجرد التفكير في حذائها الطويل الرقبة يغمرها بشرارة الشباب. كان ذلك الحذاء طويل الرقبة فاحم السواد لدرجةٍ جعلته يبدو وكأن أشعَّة الضوء تنثني حوله. وعندما كانت الأخت إجنيشا ترتديه في الليل، كانت تشعر وكأنها ممتلئة عن آخرها بضوء النجوم، وإذا ارتدته بالتزامُن مع سطوع القمر كانت تمتلئ بضوء القمر أيضًا. كان سحر الحذاء يتغلغل فيها. كان سحره مختلفًا عن السحر الذي يوفره لها الحزن. (ولكن يا للهول! كم كان من السهل أن تتغذى على الحزن إلى حد التخمة!)

الآن، بدأ مخزون الأخت إجنيشا السحري ينفد. ولم يسبق لها أن فكرت قط في تخزين الفائض لوقت الحاجة. لم يحدث أن جاء وقت الحاجة في «المحمية» التي كانت تُخيم عليها غيمة الحزن.

وبَّخت نفسها، قائلةً: «غبية. كسولة! حسنًا. لا بد ببساطة أن أتذكَّر كيف أُصبح بارعة.»

لكن أولًا، كانت بحاجة إلى ذلك الحذاء.

توقفت لحظة لتستعين بجهاز الرصد خاصتها. لأول وهلة، لم ترَ سوى ظلامٍ دامس، يتخلَّله خطٌّ أفقي خافت من الضوء. وببطء شديد، بدأ الخط يتسع وامتدَّت يدان.

قالت في نفسها: «صندوق. إنه في صندوق. وأحدهم يسرقه. مرة أخرى!»

صرخت: «هذا ليس لك!» وعلى الرغم من أنه كان من المستحيل أن يكون صاحب هاتين اليدين قد سمعها — ليس من دون تعويذة سحرية، على أي حال — بدت أصابع الشخص مترددة. تراجعت. علاوة على ذلك، كانت ترتعش قليلًا.

لم تكن اليدان للطفلة، كان ذلك مؤكدًا. بل كانتا لشخصٍ بالغ. لكن من؟

انزلقت قدم امرأة إلى داخل فتحة الحذاء المعتمة. أحكم الحذاء نفسه حول قدم المرأة. كانت إجنيشا تعرف أن مُرتدي الحذاء يمكنه ارتداء الحذاء وخلعه كما يشاء، لكن لا يمكن إجبار مُرتديه بالقوة على خلعه ما دام على قيد الحياة.

قالت في نفسها: «حسنًا. تلك لن تكون مشكلة.»

بدأ الحذاء يتحرك نحو ما يبدو حظيرة حيوانات. أيًّا من كانت ترتدي الحذاء، لم تكن تعرف بعدُ كيفية استخدامه. تَخَيَّل إهدار «الحذاء الذي يقطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة» في ارتدائه وكأنه مجرد حذاء عملٍ لا أكثر. قالت في نفسها إن هذه جريمة. فضيحة.

وقفت المرأة التي كانت ترتدي الحذاء بجوار الماعز. وتشمَّمت الماعز تنُّورتها بتودُّد رأت الأخت إجنيشا أنه غير جذاب على الإطلاق. بدأت مرتدية الحذاء في التحرك في الأرجاء.

«حسنًا!» نظرت الأخت إجنيشا بتركيز أكبر. «لنرَ أين أنتِ، هل تمانعين؟»

رأت الأخت إجنيشا شجرةً ضخمةً لها باب في المنتصف. ومُستنقعًا مُلئ بالزهور. بدا المستنقع مألوفًا. رأت جانب جبلٍ منحدِرًا والعديد من الحواف المُتعرجة على القمة ...

يا للسماء! هل تلك فوهات بركان؟

ها نحن! أعرف ذلك الطريق!

وها نحن! وتلك الصخور.

هل يمكن أن يكون الحذاء قد مضى عائدًا إلى قلعتها القديمة؟ أو إلى المكان الذي كانت فيه القلعة، على أي حال.

رغمًا عنها قالت في نفسها: «موطني.» كان ذلك المكان هو موطنها. ربما لا يزال كذلك، بعد كل هذه السنوات. فعلى الرغم من رغد الحياة في «المحمية»، لم تشعر مطلقًا بنفس القدر من السعادة الذي كانت تشعر به برفقة أولئك السحرة والباحثين في القلعة. من المؤسف أنه كان لا بد أن يموتوا. بالطبع لم يكونوا سيموتون لو كان معهم الحذاء، كما كانت الخطة الأصلية. لم يخطر ببالهم أن أي أحدٍ سيُحاول سرقته والهروب من الأخطار، مُتخليًا عنهم.

وظنُّوا أنهم ماهرون!

في النهاية، لم يكن يُوجَد ساحر بمهارة إجنيشا، وقد أثبتت هذا في «المحمية». بالطبع لم يتبقَّ أحد كي تُثبت مهارتها له، وهو أمر مؤسف. كان الحذاء هو كل ما لدَيها. والآن ضاع الحذاء أيضًا.

قالت لنفسها: «لا بأس. ما هو ملكي هو ملكي وحدي. وهذا كل شيء.»

«كل شيء.»

وركضت في الطريق نحو موطنها.

الفصل السادس والثلاثون

لا جدوى من الخريطة

لم يسبق للونا أن ركضت بهذه القوة أو السرعة في حياتها. بدا وكأنها ركضت لساعات. لأيام. لأسابيع. وكأنها ظلَّت تركض للأبد. ركضت من صخرة إلى صخرة، ومن نتوء إلى نتوء. كانت تقفز مُتخطيةً التيارات المائية والجداول. انثنت الأشجار مفسحةً لها الطريق. لم تتوقف كي تتساءل عن سهولة تحكُّمها بحركة قدمَيها وطول قفزاتها. كل ما فكرَت فيه هو المرأة التي تُزمجر كالنمر. كانت تلك المرأة خطيرة. كان هذا كل ما بوسع لونا أن تفعله كي تُبقي هلعَها المتزايد تحت السيطرة. تلوَّى الغراب بعيدًا عن قبضة الفتاة وارتفع لأعلى مُحلقًا فوق رأسها.

صاح الغراب: «كاو.» وكان يعني: «لا أظنُّها تتبعنا.»

صاح الغراب مرةً أخرى: «كاو.» وكان يعني «مِن المُحتمل أنني كنتُ مخطئًا بشأن الطيور الورقية.»

ركضت لونا لأعلى حافة ربوة شديدة الانحدار كي تُلقي نظرة أشملَ وتتأكد من أن لا أحد يتبعها. لم يكن ثمة أحد. كانت الغابة كما هي. جلست فوق صخرة جرداء مقوَّسة كي تفتح دفترها وتنظر إلى خريطتها، لكنها كانت قد انحرفت بعيدًا عن مسارها، لدرجة أنها لم تكن متأكدةً ما إذا كانت تسير وفقًا للخريطة من الأساس. تنهَّدت لونا. وقالت: «حسنًا، يبدو أنني ارتكبتُ الكثير من الأخطاء. لم نعُد أقرب إلى جدتي مما كنَّا عليه في البداية. انظر! الشمس تغرب. وثمة سيدة غريبة في الغابة.» ابتلعت ريقَها. «ثمة خطب ما فيما يخصُّ هذه السيدة. لا يُمكنني تفسيره. لكنني لا أريدها أن تقترب من جدتي. على الإطلاق.»

كانت قد احتشدت فجأة في عقل لونا أشياء عرفَتْها دون أن تدري كيف عرفتها. بدا لها أن عقلها كان بالفعل كمستودعٍ لم تُفتَح خِزاناته المغلقة فحسب، بل فُتِحَت

وأُلقِيَت محتوياتها على الأرض. لكن لونا لم تكن تتذكَّر أنها وَضعَت أيًّا من هذه الأشياء في الخزانات أصلًا.

«كانت صغيرة، لم تستطع أن تُحدِّد كم كان عمرها، لكنها كانت صغيرة بالتأكيد. كانت تقف في منتصف الأرض مقطوعة الشجر. كانت عيناها خامدتَين. وكان فمُها فاغرًا. كانت متسمرةً في مكانها.»

لهثت لونا. كانت الذكرى واضحة جدًّا.

«كان فيريان قد صاح، مُتسللًا إلى خارج جيبها ومحلقًا أمام وجهها: «لونا! لماذا لا تتحركين؟»

قالت جدتها: «عزيزي فيريان. اذهب واجلب للونا زهرة القلب النازف من حافة الفوهة المرتفعة. إنها تلعب معك لعبة، ولن تتحرَّك إلا إذا جلبتَ لها الزهرة.»

قبل أن ينطلق مبتعدًا وهو يطنُّ ويصفُر لحنًا مرحًا وهو يطير، صاح فيريان: «أحب الألعاب.»

ظهر جليرك على سطح المستنقع المُغطى بالطحالب الحمراء. فتح إحدى عينَيه، ثم فتح الأخرى. ثم رفع عينَيه إلى السماء.

قال مؤنبًا: «مزيد من الكذب يا زان.»

قالت محتجة: «كذب أبيض. أنا أكذب من أجل الحماية! ماذا يُمكنني أن أقول غير ذلك؟ لا يُمكنني أن أشرح الحقيقة بطريقةٍ يفهمانها.»

أقبل جليرك متثاقلًا من المستنقع، وبُقع المياه الداكنة تتساقط من اللمعان الزيتي لبشرته الأدكن. اقترب من عيني لونا اللتين لا ترفان. زمَّ جليرك شفتَيه الضخمتَين الرطبتَين في عبوس. وقال: «لا أُحب هذا»، وهو يضع يدَين على خدَّي لونا، واليدَين الأخريَين على كتفَيها. وقال: «هذه هي المرة الثالثة اليوم. ماذا حدث هذه المرة؟»

أنَّت زان. «كان خطئي. أكاد أجزم بأنني شعرتُ بشيءٍ ما. شيء مثل نمر يتحرَّك في الغابة، لكنه لم يكن كذلك، أنت تفهم. حسنًا، بالطبع أنت تعرف ماذا ظننت.»

تحوَّل صوت جليرك إلى زمجرةٍ خطرة: «هل كانت هي؟ آكلة الحزن؟»

«لا. لقد عشتُ في قلقٍ خمسمائة عام. لقد لازمَت أحلامي، ولا تُخطئ في فهم ما أقول. لكن لا. لم يكن ثمَّة شيء. لكن لونا رأت جهاز الرصد.»

ضمَّ جليرك لونا بين ذراعَيه. ترنَّحت. تراجع للخلف على ذيلِه، تاركًا لونا تغوص في بطنه المترهل. مَلَّس شعرَها بيدِه.

قال: «علينا أن نُخبر فيريان.»

صاحت زان «لا نستطيع! انظر ماذا حدث لها لمجرد أنها رأت جهاز الرصد بطرف عينها! لم تتحسَّن بمجرد أن فكَّكته؛ وكان ذلك منذ مدة. ماذا لو أفشى فيريان سرَّ كون جدَّتها ساحرة! سيُغشى عليها كلَّما رأتني، في كل مرة! ولن يتوقَّف هذا حتى تبلغ الثالثة عشرة من عمرها. وعندئذٍ ستُصبح مسحورة وسأكون قد رحلت. سأكون قد رحلت، يا جليرك! ومن سيرعى طفلتي؟»

وسارت زان نحوهما ووضعتْ خدَّها على خدِّ لونا ولفَّت ذراعَيها حول جسد وحش المستنقع. أو على الأقل حول جزءٍ من جسده. فقد كان جليرك ضخمًا جدًّا على أي حال.

قال فيريان، وهو يُسرع عائدًا يحمل الزهرة: «هل نتعانَق الآن؟ أُحب العناق» واندفع إلى ثنية أحد أذرع جليرك وانسلَّ داخل طيات جسده المُمتلئ، وأصبح أسعد تنينٍ في العالم مرة أخرى.»

جلست لونا دون حراك، وعقلها يلهث لاستيعاب ما كشفتْه لها هذه الذكرى. هذه الذكرى التي تكشفت لها.

«ساحرة.»

«مسحورة.»

«الثالثة عشرة.»

«رحيل.»

ضغطت لونا بكفَّيها على جبينها، محاولة أن تمنع رأسها من الدوار. كم مرةً شعرت بأن فكرةً تطير منها مبتعدةً، كطائر؟ وها هي الأفكار تعود وتحتشد بداخل رأسها. كان عيد ميلاد لونا الثالث عشر قريبًا جدًّا. وجدَّتها مريضة. وضعيفة. وعما قريب سترحل. وستُصبح لونا وحيدة. ومسحورة ...

«ساحرة.»

هذه كلمة لم تسمع بها من قبل. ومع ذلك كانت تشعر بأنها تعرفها. وعندما بحثت في ذكرياتها، وجدت الكلمة في كل مكان. كان الناس يَصيحون بها في الأسواق عندما كانت تزور المدن الموجودة على الطرف الآخر من الغابة مع جدتها. كان الناس ينطقونها عندما كانتا تزوران البيوت. كان الناس ينطقونها عندما يريدون مساعدة جدَّتها في التوليد، ربما. أو لفضِّ نزاع.

قالت لونا بصوتٍ مرتفع: «جدتي ساحرة.» وكان هذا صحيحًا. «والآن أنا ساحرة.»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «ماذا إذن؟»

حدَّقت في الغراب، وزمَّت شفتَيها في تجهُّم. وسألته بحدة: «هل كنت تعلم هذا؟»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «الأمر واضح. ماذا كُنتِ تظنِّين نفسكِ؟ ألا تتذكَّرين كيف التقَينا؟»

نظرت لونا إلى السماء. وقالت: «حسنًا. أظن أنني لم أفكر حقًّا في هذا الأمر.»

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني «بالضبط. تلك بالضبط هي مشكلتكِ.»

تمتمت لونا: «جهاز رصد.»

واستطاعت أن تتذكَّر. كانت جدتها قد صنعت هذه الأجهزة أكثر من مرة. أحيانًا مُستخدمةً خيطًا، وأحيانًا مُستخدمةً بيضةً نيئةً. وأحيانًا المكونات اللزجة الموجودة داخل قرون نبات الصقلاب.

قالت لونا بصوتٍ مرتفع، وعظمها يطقطق وهي تقول هذا: «ما يهم هو النية. أي ساحرة ماهرة تعرف كيف تصنع أداة بالمكونات المتاحة.»

لم تكن هذه كلماتها. كانت جدَّتها هي من قالت هذه الكلمات. قالتها جدتها «بينما كانت لونا في الغرفة». لكن الكلمات طارت حينذاك وتيبَّست لونا. وها هي الكلمات تعود من جديد. مالت نحو الأمام وبصقت على الأرض، مكونةً بركة صغيرة من الطين المغبر. وبيدها اليسرى، قبضت على حفنة من الحشائش الجافة، التي نمت من شقٍّ في الصخور. وغمستها في بركة الطين المكوَّنة من البصاق وبدأت تفتلها في عقدةٍ معقدة.

لم تفهم ما الذي تفعله؛ لم تكن حقًّا تفهمه. كانت تتحرك بالغريزة، وكأنها تحاول أن تستجمِع أغنيةً سمعتها ذات مرة وتتذكرها بصعوبة شديدة.

قالت، وهي تضع إبهامها في منتصف العقدة وتمدُّها لتجعلها ثقبًا: «أرني جدتي.»

لأول وهلة لم تَرَ لونا شيئًا.

ثم رأت رجلًا بوجهٍ مليء بالندوب يجوب الغابة. كان خائفًا. وكان يتعثر في الجذور واصطدم مرتَين بشجرة. كان يتحرك بسرعةٍ كبيرة للغاية مقارنةً بشخصٍ كان واضحًا جدًّا أنه لم يكن يعرف إلى أين يذهب. لكن لم يكن ذلك مُهمًّا، لأنه كان من الواضحِ أن الجهاز لم يكن يعمل. فهي لم تطلُب رؤية رجل. بل طلبت رؤية جدَّتها.

قالت لونا بلهجة أكثر حسمًا وبصوت مرتفع: «أرني «جدتي».»

رأت رجلًا يرتدي سترة ضيقةً من الجلد. وكانت تتدلَّى سكاكين صغيرة من جانبي حزامه. فتح جيب سترته ودندن لشيء يأوي بالداخل. ارتفع منقار صغير من بين الطيات الجلدية.

حدقت لونا بذهول. كان طائر سنونو. وكان عجوزًا ومريضًا. قالت جهرًا: «لقد رسمتك بالفعل.»

رفع السنونو رأسه إلى الخارج وتلفَّت حوله، وكأنه يستجيب للنداء.

قالت لونا وهي تكاد تصرخ: «قلت أريد «جدتي».» جاهد السنونو، وضحك ضحكةً مكتومة وصاح. بدا يائسًا من المغادرة.

قال الرجل في الجهاز: «ليس الآن أيها السخيف. انتظر حتى نصلح ذلك الجناح. بعد ذلك يمكنك الخروج. خُذ. كُل هذا العنكبوت.» وحشر الرجل عنكبوتًا يتلوى داخل منقار السنونو المعترض.

مضغ السنونو العنكبوت وعلى وجهه مزيج من الإحباط والامتنان.

زمجرت لونا بإحباط.

«لست بارعة في هذا بعد. أرني جدتي»، قالتها بحسم. وركز الجهاز بوضوح على وجه الطائر. وحدق الطائر عبر جهاز الرصد، ناظرًا إلى عين لونا مباشرة. لا يمكن أن يكون السنونو قد رآها. بالتأكيد لا يمكن. ومع ذلك بدا للونا أن الطائر هز رأسه ببطءٍ شديدٍ من ناحية لأخرى.

همست لونا: «جدتي؟»

بعد ذلك أظلم الجهاز.

نادت الفتاة: «عودي!»

بقي الجهاز المؤقت مظلمًا. لم يسبق أن أخفق جهاز الرصد مطلقًا، أدركت لونا بذُعر. لقد حجبَه أحدٌ ما.

همست لونا: «أه يا جدتي. ماذا فعلتِ؟»

الفصل السابع والثلاثون

الساحرة تعرف شيئًا صادمًا

قالت زان لنفسها مرارًا وتكرارًا: «هذه ليست لونا. حبيبتي لونا آمنة في البيت.» قالت هذا لنفسها إلى أن شعرت أن هذا صحيح. حشر الرجل عنكبوتًا آخَرَ في فمِها. على الرغم من أنها شعرت بأن الطعام بغيض، كان عليها الاعتراف بأن حلق الطائر وجده لذيذًا. كانت أول مرة على الإطلاق تتناول الطعام أثناء تحوُّلها. وستكون آخِر مرة أيضًا. لم يُحزنها الشعور بالانتهاء البطيء لحياتها أمام عينَيها في حد ذاته. لكن التفكير في أنها ستترك لونا ...

ارتعشت زان. الطيور لا تجهش بالبكاء. لو كانت في هيئتها الأصلية المتمثلة في امرأة عجوز، لكانت أجهشت بالبكاء. بل لكانت أجهشت بالبكاء طوال الليل.

قال الرجل بصوت خافت ومتأثر: «هل أنت على ما يرام يا صديقي؟» لم تَدُر عينا زان السوداوان الصغيرتان البراقتان وهي في هيئة طائر بالقدْر الذي تدور به عيناها البشريتان، ومع الأسف لم ينتبِه الرجلُ إلى هذه الإشارة.

لكن زان لم تكن عادلة. لقد كان شابًّا مهذبًا، ربما كان انفعاليًّا قليلًا. وتواقًا بإفراط. رأت أناسًا مثله من قبل.

«حسنًا، أنا أعرف أنك مجرد طائر ولن تتمكن من فهمي، لكنني لم أؤذِ أي كائن حي من قبل.» تهدج صوته. وظهرت دمعتان كبيرتان في عينيه.

قالت زان في نفسها: «يا إلهي! أنت تتألم.» وأوت إلى الداخل مقتربةً منه قليلًا، وأخذت تُصدر قوقًا وهديلًا وفعلت ما يستطيع الطائر فعله كي تجعله يشعر بتحسُّن. كانت زان بارعةً في جعل الآخرين يشعرون بالتحسن؛ فقد حصلت على خمسمائة عام من التدريب. وقد شمل هذا تخفيف الحزن. وتسكين الألم. وحُسن الإنصات.

أوقد الشاب نارًا محدودةً وأخذ يطبخ قطعةً من النقانق أخرجها من عبوة. لو كانت زان تمتلك أنفها البشريَّ ومستقبلات التذوق البشرية، لبدت لها النقانق لذيذة. أما في هيئة الطائر التي كانت عليها، فتمكنت من تمييز ما لا يقلُّ عن تسعة أنواع مختلفة من التوابل ومقدارًا ضئيلًا من التفاح المُجفَّف وبتلات الزيرين المطحونة. والحب، أيضًا. قدر وفير من الحب. تمكَّنت من اشتمامه حتى قبل أن يفتح عبوة الطعام. قالت زان في نفسها: «أحدهم أعدَّها له. أحدهم يُحب هذا الفتى كثيرًا. يا له من فتًى محظوظ.»

طقطقت النقانق وهَسَّت على النار.

«لا أظنك تريد أيًّا منها، أليس كذلك؟»

زقزقت زان وتمنَّت أن يفهم. أولًا، ما كانت لتحلم بأن تأخذ طعام الفتى، لا سيما وهو تائِهٌ في الغابة. وثانيًا، كان يستحيل على حلق الطائر أن يحتمل اللحم. الحشرات لا بأس بها. أي شيء آخَر سيجعلها تتقيأ.

تناول الشاب قضمة، وعلى الرغم من أنه ابتسم، انهمر المزيد من الدموع على وجهه. أطرق بنظرِه إلى الطائر واحمرَّ خدَّاه من الخجل.

«المعذرة يا صديقي المجنَّح. كما ترى، هذه النقانق أعدتها زوجتي الحبيبة.» اختنق صوته. «إيثين. اسمُها إيثين.»

زقزقت زان، مُتمنيةً أن تشجعه على الاستمرار. بدا أن هذا الفتى يحمل الكثير من المشاعر الحبيسة بداخله. كان ككومةٍ من الحطب في انتظار الشرارة الأولى كي تشتعل.

تناول قضمة أخرى. كانت الشمس قد توارت تمامًا وبدأت النجوم تظهر في السماء حالكة السواد. أغمض عينَيه وأخذ نفَسًا عميقًا. شعرت زان بحشرجة بسيطة داخل صدر الشاب؛ مُنذرة بالضياع. غردت وزقزقت ونقرت على ذراعِه مُشجعة. نظر لأسفل وابتسم.

«ماذا عنك يا صديقي؟ أشعر أنني يُمكنني أن أُخبرك بأي شيء.» مدَّ يدَه ووضع كومة حطبٍ أخرى في النار. قال: «لن أضع الكثير جدًّا. هذا القدر فقط كي يُدفئنا حتى يبزُغ القمر. وعندئذٍ، يجب أن ننطلِق في طريقنا. فـ «يوم التضحية» لا ينتظر أحدًا، في نهاية المطاف. أو على الأقل، لم يسبق أن انتظر أحدًا حتى الآن. لكن سنرى يا صديقي الصغير. لعلِّي أجعله ينتظر للأبد.»

قالت في نفسها: ««يوم التضحية»! عم يتحدَّث؟»

نقرته مرةً أخرى. قالت في نفسها: «واصل الحديث.»

ضحك. وقال: «يا إلهي، يا لك من مشاكس. إذا لم تتمكَّن إيثين من إصلاح جناحك، فتأكد من أننا سوف نُجهز لك بيتًا مريحًا وحياةً رغدةً لبقية حياتك. إيثين ...» تنهد.

«إنها مذهلة. تجعل كل شيءٍ جميلًا. حتى أنا، وأنا بهذا القبح الشديد. أحببتُها عندما كنا أطفالًا. لكنني كنتُ خجولًا، وهي انضمَّت للأخوات، وبعد ذلك شُوِّهتُ هكذا. وكنت قد تأقلمتُ مع وحدتي.»

مال للوراء. والتمع وجهه المليء بالندوب في ضوء النار. لم يكن قبيحًا. لكنه كان مُحطمًا. ولم يكن ذلك بسبب الندوب. كان شيءٌ آخر قد حطَّمه. ثبَّتت زان عينيها على قلبه ونظرت عن كثب. رأت امرأةً بشعر يتلوَّى كالثعابين، تتشبَّث بالعوالق الخشبية لمنزلٍ وتحمل رضيعةً تتمسَّك بصدرها.

كانت للرضيعة شامة هلالية الشكل على جبينها.

شعرت زان بقلبها ينقبض.

«ربما لا تعرف هذا يا صديقي، لكن تُوجَد ساحرة في الغابة.»

قالت زان في نفسها: «لا!»

«وهي تأخذ أطفالنا. واحدًا كل عام. علينا أن نترك أصغر رضيعٍ في دائرة من أشجار الجميز ولا ننظر وراءنا. وإن لم نفعل هذا، فستقضي الساحرة علينا جميعًا.»

قالت زان في نفسها: «لا. لا، لا، لا.

أولئك الأطفال الرضع!»

يا لأمهاتهم المساكين. ويا لآبائهم المساكين.

ولقد أحبَّتهم جميعًا، بالتأكيد أحبَّتهم، وقد عاشوا حياة سعيدة ... لكن يا للأسف! كان الحزن يُخيم على «المحمية» كغيمة. قالت في نفسها: «لماذا لم أتمكن من رؤيتها؟»

«أنا هنا بسببها. بسبب جميلتي إيثين. لأنها أحبَّتني وأرادت أن تُكوِّن أسرةً معي. لكن رضيعنا هو الأصغر في «المحمية». ولا يُمكنني أن أسمح بأن يؤخَذ طفلي، طفل إيثين، منا. معظم الناس يواصلون حياتهم فحسب — هل لديهم خيار آخر؟ — لكن توجد أرواح رقيقة كحبيبتي إيثين، التي جُنَّ جنونها من شدة الحزن. ومثل هؤلاء يُحبسون» توقَّف. وارتعش جسده. أو ربما كانت زان هي التي ترتعش. «طفلنا. إنه جميل. وإذا أخذَتْه «الساحرة»؟ سيقضي هذا على إيثين. وسيقضي عليَّ.»

لو كان بوسع زان إبطال السحر، لكانت تحوَّلت في التو واللحظة. ولكانت ضمَّت الفتى المسكين بين ذراعَيها. ولكانت أخبرتْهُ عن خطئها. ولكانت حكت له عن عددٍ لا يُحصى من الأطفال الذين حملتهم عبر الغابة. وعن مدى سعادة هؤلاء الأطفال. وسعادة عائلاتهم.

لكن يا للأسف! الحزن يُخيم على «المحمية»!

وللأسف! يسيطر عليها طغيان الحزن!

ويا للأسف! رأت عويل امرأةٍ جنَّ جنونها من الحزن. والأسى والألم على أنه لم يفعل شيئًا لإيقاف الأمر، حتى ولو لم يكن يعرف كيف. تمكنت زان من رؤية هذه الذكرى مستقرة في قلب الشاب. يُمكنها أن ترى كيف تجذَّرت وتكلَّست، وأشعلها شعوره بالجُرم والخجل.

سألت زان نفسها: «كيف بدأ هذا. كيف؟»

وكأنه جواب على سؤالها، سمِعت وهي عالقة في كهوف ذكرياتها صوتَ خطوات حركة مخالب لشيءٍ هادئ ومُفترس ومُرعب يقترب أكثر فأكثر فأكثر.

قالت في نفسها: «لا. لا يمكن.» في الوقت نفسه، كانت حريصةً على أن تُبقي حزنها بداخلها. إذ كانت تعرف، أكثر من أي أحد، ما يُسبِّبه الحزن من دمار عندما يقع في يد الشخص الخطأ.

«على أي حال يا صديقي، أنا لم أقتُل أي شخصٍ من قبل. ولم أؤذِ أيَّ مخلوق. لكنني أُحب إيثين. وأحب لوكين ابني. وسأفعل ما يلزم كي أحمي أسرتي. أقول لك هذا، يا صديقي السنونو، لأنني لا أريدك أن تخاف عندما تراني أفعل الشيء الذي يجب عليَّ فعله. أنا لست شريرًا. أنا رجل يُحب أُسرته. ولأنني أُحبها، سأقتل «الساحرة». سأفعل. إما أن أقتل الساحرة أو أهلك دون ذلك.»

الفصل الثامن والثلاثون

الضباب يبدأ في الانقشاع

في الوقت الذي تحركت فيه إيثين وماي عبر الميدان صوب «البرج»، كان سكان «المحمية» يتجولون وهم يُظلِّلون أعيُنهم بأيديهم. ويخلعون المعاطف والشيلان، مُستمتعين بإشراق الشمس على بشرتهم، ومُتعجبين من عدم وجود البرودة الرطبة ومحاولين النظر إلى السماء بعدما انقشع الضباب.

تعجبَّت ماي: «هل رأيتِ سماءً كهذه من قبل؟»

قالت إيثين ببطء: «لا. لم أرَ.» همهم الطفل وتململ في قطعة القماش الزاهية التي تربطه بصدْر أمِّه. عقدت إيثين ذراعَيها حول جسده الدافئ وقبَّلت جبينه. سيحتاج قريبًا إلى إرضاعه. وإلى تغيير حِفاضه. قالت إيثين في نفسها: «حالًا يا حبيبي. أُمُّك يلزمُها إتمام مهمة، كان عليها إتمامُها منذ زمنٍ طويل.»

عندما كانت إيثين طفلةً صغيرة، حكت لها أمُّها حكاية تلوَ أخرى عن «الساحرة» التي تعيش في الغابة. كانت إيثين طفلةً فضولية، وبمجرد أن عِلمت أن أخاها الأكبر كان من الأطفال الرضَّع الذين جرت التضحية بهم، راودَها الكثير من الأسئلة. إلى أين ذهب، حقًّا؟ ماذا لو حاولَتْ أن تجِدْه، ماذا سيحدث؟ ممَّ خُلقت «الساحرة»؟ ماذا تأكل؟ هل هي وحيدة؟ هل أنتِ متأكدة من أنها سيدة؟ إذا كان من المستحيل محاربة ما لا نفهمه، فلماذا لا نسعى للتعلم؟ «الساحرة» شريرة، لكن إلى أي حد؟ إلى أي حدٍّ شرُّها، بالضبط؟

لكن أسئلة إيثين المتواصلة كانت لها تبعات. تبعات مريعة. فقد بدأت أمُّها، التي كانت امرأةً هزيلة وشاحبة يسيطر عليها الاستسلام والحزن، تتحدَّث عن «الساحرة» دون توقف. كانت تروي حكايات حتى دون أن يَطلُب منها أحدٌ ذلك. كانت تُتمتِمُ بهذه الحكايات لنفسها بينما كانت تطهو أو تُنظِّف أو تتمشَّى طويلًا إلى «المستنقع» مع جامعي المحاصيل.

كانت والدة إيثين تقول: ««الساحرة» تأكل الأطفال. أو تستعبدهم. أو تمتصُّ دماءهم.»

««الساحرة» تجوب الغابة على مخالب مُبطنة. أكلت قلب نمِر حزين منذ زمنٍ طويل، ولا يزال ذلك القلب ينبض بداخلها.»

«أحيانًا تكون «الساحرة» طائرًا. تستطيع أن تطير إلى سريركِ في المساء وتقتلع عينيكِ!»

«عمرها كعمر الأرض. يُمكنها أن تجوب العالم في «الحذاء الذي يقطع سبعة فراسخ في الخطوة الواحدة». تأدَّبي، وإلا فستخطفكِ خلسةً من سريركِ!»

بمرور الوقت تمدَّدت حكاياتها وتشابكت؛ والتفَّت حول جسدها كأغلالٍ ثقيلة، لدرجة أنها لم تستطع حملَها أكثر من ذلك. وماتت.

أو هكذا رأت إيثين الأمر، على أي حال.

كانت إيثين في السادسة عشرة من عمرها في ذلك الوقت، وكانت معروفة في سائر أنحاء «المحمية» بالمهارة اليدوية وسرعة البديهة. عندما وصلت «أخوات النجمة» بعد جنازة أمِّها وعرضنَ عليها الرهبنة، تردَّدت إيثين للحظة فقط. كان أبوها قد مات؛ وماتت أمها، وكان إخوتها الأكبر سنًّا (الذين لم تأخُذهم الساحرة) قد تزوجوا جميعًا ولم يعودوا يأتون للمنزل كثيرًا. كان أمرًا مُحزنًا للغاية. كان صبيٌّ في الفصل قد ترك في قلبِها أثرًا عميقًا؛ الصبيُّ الهادئ الذي كان يجلس في المؤخرة، لكنه كان ابن إحدى العائلات المهمة. التي كان أفرادها من أصحاب الأملاك. كان من المُستبعَد أن ينظر إليها مرة أخرى. عندما ذهبت إليها «أخوات النجمة»، حزمت إيثين أمتعتَها وتبعتْهُنَّ.

لكن بعد ذلك لاحظت أنه من بين كل الأمور التي تعلمتها في «البرج»، والتي شملت علم الفلك وعلم النبات والميكانيكا والرياضيات وعلم البراكين، لم تُذكَر «الساحرة» ولو مرة واحدة. ولا مرة. كان الأمر وكأنها في الواقع غير موجودة.

بعد ذلك، لاحظت حقيقة أن الأخت إجنيشا، لم يكن يبدو عليها مطلقًا التقدُّم في العمر.

ثم لاحظت وقع المخالب، التي تتسلَّل في ردهة «البرج» كل ليلة.

بعد ذلك رأت واحدةً من الأخوات المترهبنات تبكي لوفاة جدها، وكانت الأخت إجنيشا تُحدق في الفتاة، بنظرةٍ تنطوي على الجوع والشراسة والاستعداد للانقضاض على فريسة.

كانت إيثين قد قضت طفولتَها بالكامل وهي تحمل عبء حكايات أُمِّها عن «الساحرة». في الواقع، كان كلُّ من عرفتهم يحملون العبء نفسه. وأثقلت ظهورهم وطأةُ عبء

«الساحرة». كان انضمامُها إلى «أخوات النجمة» بهدف الوصول للحقيقة. لكن الحقيقة بشأن «الساحرة» لم تكن موجودة في أي مكان.

كانت تعلم أنه يُمكننا أن نعرف الحقيقة من الحكايات، ولكن يمكن أيضًا للحكايات أن تحوي أكاذيب. يمكن للحكايات أن تُغير الحقائق وتنحرف عنها وتُصبح مبهمة. السيطرة على الحكايات قوة بالفعل. من ستكون له الاستفادة الأكبر من مثل هذه القوة؟ وبمرور الوقت، كان اهتمام إيثين بالغابة يقلُّ شيئًا فشيئًا وزاد انشغالها بـ «البرج» الذي يُلقي بظلاله على «المحمية».

عندئذٍ أدركت إيثين أنها كانت قد تعلَّمت كل ما تحتاج إليه من «أخوات النجمة»، وآن الأوان كي ترحل. كان من الأفضل أن ترحل قبل أن تفقد روحها.

وها هي إيثين تعود إلى «البرج»، وروحها لم تُمس بسوء، وهي لا تزال تتأبَّط ذراع ماي.

قابلهما وين، الأخ الأصغر لأنتين، عند الباب. من بين كل إخوة أنتين، كان وين المفضل لدى إيثين. ضمَّته إيثين بذراعَيها بشدة، وبينما هي كذلك، دسَّت قصاصة ورقٍ في يده.

همست بصوتٍ خافت جدًّا في أذنه: «هل يُمكنني الوثوق بك؟ هل تساعدني في إنقاذ أسرتي؟»

لم يقل وين شيئًا. أغمض عينَيه وشعر بصوت زوجة أخيه يلتفُّ حول قلبه كشريط. كان يوجد القليل من طيبة القلب في «البرج». كانت إيثين أطيب شخصٍ عرفه. عانقها مرة أخرى، حتى يتأكد من أنها حقيقية.

قالت إيثين وهي تبتسم: «أعتقد أن أخواتي السابقات يتأمَّلن الآن يا عزيزي وين.» ارتجف وين عندما قالت اسمَه. لم يكن أحدٌ يُناديه باسمه مطلقًا في «البرج»، كان مجرد صبي. قرَّر حينئذٍ أن يساعد إيثين فيما تريده أيًّا كان. «هلَّا أخذتني إليهن؟ وبينما أنت هناك، ثمة شيءٌ آخر أودُّ أن أطلب منك فعله.»

تجمعت الأخوات من أجل التأمُّل الصباحي؛ وهي ساعة من الصمت، يَعقبها غناء، ثم تدريب ملاكمة سريع. دخلت إيثين وماي بمجرد أن بدأت النوتات الأولى من الأغنية تصدح في الردهات. توقف غناء الأخوات بمجرد أن خطت إيثين في وسطهن. غرغر الطفل وهدل. نظرت الأخوات بأفواههن فاغرة. وأخيرًا تكلمت إحداهن.

قالت: «أنتِ!»

قالت أخرى: «لقد غادرتِنا.»

وقالت ثالثة: «لم يُغادرنا أحدٌ من قبل.»

قالت إيثين: «أعرف.» «المعرفة هي قوة خطيرة حقًّا.» كان هذا هو الشعار غير الرسمي لـ «أخوات النجمة». لم يكن أحد يعرف أكثر من الأخوات. لم يكن أحد يملك القدرة على الوصول إلى المعلومات أكثر منهن. وها هن. دون أدنى معلومة. زمَّت شفتَيها. وقالت في نفسها: «حسنًا. سيتغير ذلك اليوم.»

«لقد غادرت ولم يكن هذا سهلًا. وأنا آسفة. لكن يا أخواتي العزيزات، ثمة شيء عليَّ أن أقوله قبل أن أغادر مُجددًا.» مالت على ابنها وقبلت جبينه. «لا بدَّ أن أحكي لَكُنَّ حكاية.»

استند وين بظهره على جدارٍ بجوار المدخل المُفضي إلى «غرفة التأمل».

في يده، كان يحمل سلسلةً طويلةً. وقُفلًا. والمفتاح سيدسه في يد إيثين. خفق قلبه لمجرد التفكير في هذا. فلم يسبق له أن كسر القواعد. لكن إيثين طيبة جدًّا. أما «البرج» ... فلم يكن كذلك.

أسند أُذنه إلى الباب. كان صوت إيثين يُدوِّي كالجرس.

«السَّاحرة» ليست في الغابة. «الساحرة» هُنا. لقد أسَّست هذا التنظيم منذ زمن بعيد. واخترعت حكايات عن وجود «ساحرة» أخرى، «ساحرة» تأكل الأطفال. كانت «الساحرة» في هذا التنظيم تتغذَّى على أحزان سكان «المحمية». عائلاتنا. أصدقائنا. كانت أحزاننا عظيمة وهو ما جعلها قوية. أشعر بأنني عرفتُ هذا منذ وقتٍ طويل، لكن كانت تجثُم على قلبي وعقلي غيمة؛ هي نفس الغيمة التي تجثم فوق كل منزلٍ وكل مبنًى وكل روحٍ حية في «المحمية». لقد حجبت غيمة الحزن هذه عني معرفتي لسنوات. لكن الآن انقشعَتِ الغيوم وأشرقت الشمس. ويمكنني أن أرى بوضوح. وأظن أن بإمكانكنَّ ذلك أيضًا.»

علَّق وين سلسلة المفاتيح في حزامه. وهي الخطوة التالية في الخطة.

«لا أريد أن آخُذ من وقتكنَّ أكثر، لذا سأُغادر الآن مع مَن هنَّ على استعدادٍ للمغادرة منكن. وللبقية، أقول شكرًا لَكُنَّ. أعتز بالوقت الذي كنتُ فيه أختًا لَكُنَّ جميعًا.»

خطت إيثين إلى خارج الغرفة مع تسعِ أخوات يتبعْنها. أومأت إلى وين إيماءةً سريعة. فأغلق الباب بسرعةٍ ولفَّ السلسلة حول المقبضَين وعقدها جيدًا وأحكم هذه العقدة بالقفل. دس المفتاح في يدِها. لفَّت أصابعها حول أصابعِه وضغطت عليها برفق.

«ماذا عن المترهبنات؟»

«في غرفة المخطوطات. سيؤدِّينَ أعمالَ النسخ حتى وقت العَشاء. لقد أقفلت الباب ولا يعرفنَ أنهن عالقات في الداخل.»

أومأت إيثين. وقالت: «جيد. لا أريد إخافتهن. سأتحدث إليهن بعد قليل. ولكن أولًا، لنُحرر السجناء. من المفترَض أن يكون «البرج» مركزًا للتعليم وليس أداة للطغيان. اليوم ستُفتَح الأبواب.»

قال وين آملًا: «حتى أبواب المكتبة؟»

«وخاصةً المكتبة. المعرفة قوة، لكنها تُصبح قوة فظيعة عندما تُخبأ وتُحجب. اليوم، المعرفة متاحة للجميع.» تأبطت ذراع وين وأسرعا عبر «البرج»، يفتحان الأبواب.

وجدت أمهات أطفال «المحمية» المفقودين أن ثمَّة رؤًى تعصف بهن. ظل هذا يحدث لأيام؛ منذ انطلقت «كبيرة الأخوات» إلى الغابة، وإن لم تعرف أيٌّ منهن أنها قد فعلت ذلك. كل ما كُنَّ يعرفنه أن الغيمة كانت آخِذة في الانقشاع. وفجأة بدأت عقولهن ترى أشياء. أشياء مستحيلة.

«ها هو الرضيع بين ذراعَي امرأةٍ عجوز.»

«ها هو الرضيع وبطنه مُمتلئ بضوء النجوم.»

«ها هو الرضيع بين ذراعَي امرأة ليست أنا. امرأة تدعو نفسها أمه.»

قالت الأمهات لأنفسهن مرارًا وتكرارًا: «هذا مجرد حلم.» كان الناس في «المحمية» مُعتادين على الأحلام. فقد أصابت الغيمة الناس بالنعاس. وأصابهم الحزن في أحلامهم وفي يقظتهم. لم يكن هذا جديدًا.

لكن الآن كانت الغيمة تنقشع. ولم تكن هذه مجرد أحلام. بل كانت رؤًى.

«ها هو الرضيع مع إخوته وأخواته الجدد. إنهم يُحبونه. يحبونه كثيرًا. وهو يتألق في وجودهم.»

«ها هي الرضيعة تخطو خطواتها الأولى. انظري كم هي سعيدة! انظري كم هي متألقة!»

«ها هو الرضيع يتسلق شجرة.»

«ها هو الرضيع يقفز من فوق صخرة عالية إلى بركة عميقة برفقة أصدقاء مبتهجين.»

«ها هو الرضيع يتعلم القراءة.»

«ها هو الرضيع يبني بيتًا.»

«ها هي الرضيعة تمسك بيد حبيبها وتقول نعم، أنا أيضًا أحبك.»

كانت هذه الرؤى حقيقية جدًّا. وواضحة جدًّا. وشعرت الأمهات وكأنه يُمكنهن استنشاق رائحة رءوسهم الدافئة ولمس هذه الرُّكب المتقرحة والاستماع إلى هذه الأصوات البعيدة. وجدن أنفسهن يَصحنَ ويُنادين على أسماء أبنائهن، شاعراتٍ بأنهن فقدنهم للتو، حتى هؤلاء اللاتي فقدن أبناءهن منذ عقودٍ مضت.

لكن بعد أن تبددت السحب وبدأ الماء يصفو، شعرنَ بشيءٍ آخر أيضًا. شيء لم يشعرنَ به من قبل.

«ها هي الرضيعة تحمل رضيعها الجميل. حفيدي. ها هي تعرف أن لا أحد سيأخذ منها ذلك الطفل أبدًا.»

إنه الأمل. شعرن بالأمل.

«ها هو الرضيع في دائرة من الأصدقاء. يضحك. إنه يحب حياته.»

إنها السعادة. شعرن بالسعادة.

«ها هي الرضيعة تمسك بيد زوجها وأسرتها وتُحدق في النجوم. لا تعي مطلقًا أنني أمها. لم ولن تعرفني مطلقًا.»

توقفت الأمهات عما كُنَّ يفعلنه. ركضنَ إلى الخارج. وجثونَ على ركبهنَّ ورفعنَ أنظارهنَّ نحو السماء. وقلنَ لأنفسهنَّ إن هذه الرؤى مجرد خيال. مجرد أحلام. وليست حقيقة.

ولكن هذا لم يكن صحيحًا.

«كانت الرؤى حقيقية جدًّا جدًّا.»

في يوم من الأيام، خضعت الأسر للحكماء ووافقت المجلس على التخلِّي عن أطفالها الرضع للساحرة. فعلت الأُسَر هذا كي تحمي الناس في «المحمية». فعلت هذا وهي تعلم أن أطفالها الرضَّع سيموتون. وقد كانت على اقتناعٍ أن أطفالها الرُّضَّع قد ماتوا.

«ولكن، ماذا لو لم يكونوا قد ماتوا؟»

وكلما سألوا، تعجبوا. وكلما تعجبوا، شعروا ببارقةِ أمل. وكلما شعروا ببارقة أمل، انقشعت الغيوم أكثر وتبدَّدت بفعل حرارة السماء المشرقة.

همس راسبين: «لا أقصد أن أكون وقحًا، يا كبير الحكماء جيرلاند. لكن لا مجاملة في الحقائق. هذا كله خطؤك». كان الرجل مسنًّا جدًّا. وكان جيرلاند مندهشًا من أن هذا الرجل غريب الأطوار لا يزال يستطيع الوقوف على قدمَيه.

بدأ التجمع أمام «البرج» بعدد ضئيل من المواطنين يحملون لافتات، لكنه سرعان ما تضاعف إلى حشد من الناس الذين يحملون الشعارات ويُردِّدون الأغاني والخطب، وأعمالًا منكرة أخرى. عندما رأى الحكماء هذا، تقهقروا إلى بيت «كبير الحكماء» الفخم وأوصدوا النوافذ والأبواب.

والآن كان «كبير الحكماء» جالسًا في كرسيه المفضل يُحدق بعبوس في زملائه الأعضاء. «خطئي؟» كان صوته هادئًا. كان الخدم والطباخون ومساعدو الطباخين وطاهي الحلويات قد اختفَوا، وهو ما كان يعني أنه لم يكن يُوجد طعام ليُقدم، وكانت معدة جيرلاند فارغة. «خطئي أنا؟» بقِي على هذا الحال للحظة. «رجاءً. قل لي لماذا؟»

بدأ راسبين يسعل وبدا وكأنه سيموت في الحال. تابع الحكيم جينوت الحديث.

«هذه المُحَرِّضة من أفراد عائلتك. وها هي ذا. تقف في الخارج. تثير الرعاع.»

قال جيرلاند بغضب، وهو يُطلق الرذاذ من فمه: «كان الرعاع قد تجمعوا بالفعل قبل أن تصل إلى هناك. لقد زُرتها بنفسي، هي ورضيعها المنكوب. بمجرد أن يؤخَذ ذلك الرضيع إلى الغابة، ستنوح عليه ثم ستتعافى، وتعود الأمور إلى طبيعتها.»

قال الحكيم ليبشيج: «هل نظرتَ إلى الخارج مؤخرًا؟ ألم ترَ كل ذلك القدر من ... ضوء الشمس. إنه يُعمي الأبصار. ويبدو أنه يثير العامة.»

قال الحكيم أويريك بتذمُّر: «واللافتات. من ذا الذي صنعها؟ ليس الموظفين عندي، أؤكد لكم. لن يجرُءوا على فعل ذلك. وعلى أي حال، لقد تنبَّأتُ بهذا وأخفيت الحبر. على الأقل أحدنا يفكر.»

قال الحكيم دوريه مُتنهدًا: «أين الأخت إجنيشا؟ ألم تجد توقيتًا غير هذا كي تختفي! ولِمَ لا تئد «الأخوات» هذا في مهده؟!»

قال الحكيم راسبين: «إنه ذلك الفتى. لقد كان مصدر إزعاجٍ من أول يوم تضحيةٍ له. كان ينبغي علينا أن نتصرف معه حينذاك.»

قال كبير الحكماء: «أستميحك عذرًا!»

«جميعنا كنا نعلم أن هذا الفتى سيُشكل مشكلةً عاجلًا أم آجلًا. وانظر. كنا مُحقين في ذلك. ها هو يسبب مشكلة.»

قال كبير الحكماء وهو يطلق الرذاذ من فمه: «استمعوا إلى ما تقولون. مجموعة من الرجال البالغين! وتتذمَّرون كالأطفال الرضَّع. لا يُوجد ما نقلق بشأنه على الإطلاق. الرعاع ثائرون، لكن هذا مؤقت. «كبيرة الأخوات» رحلت، لكن هذا مؤقت. أثبت ابن أختي أنه شوكة في ظهرنا جميعًا، لكن هذا أيضًا مؤقت. «الطريق» الذي نسيطر عليه هو الممر الآمن الوحيد. ومن ثَم فهو في خطر. وسيلقى حتفه.» سكت كبير الحكماء، وأغمض عينَيه وحاول إبقاء حُزنه عميقًا في صدره. أخفاه بعيدًا. فتح عينَيه ونظر للحكماء نظرةً تنمُّ عن العزيمة. والتصميم. «وعندما يحدث هذا يا «إخوتي» الأعزاء، ستعود حياتنا كما تركناها. هذه حقيقة ثابتة ومؤكدة كالأرض التي تحت أقدامنا.»

وعندئذٍ، بدأت الأرض تهتز من تحت أقدامهم. بدأ الحكماء يفتحون النوافذ وينظرون للخارج. كان الدخان يتصاعد من قمة الجبل. كان البركان يثور.

الفصل التاسع والثلاثون

جليرك يُخبر فيريان بالحقيقة

قالت لونا: «هيا!» لم يكن القمر قد بزغ بعد. ولكن كان بوسع لونا أن تشعر باقترابه. لم يكن هذا بالأمر الجديد. كانت تشعر بصلةٍ غريبة بالقمر، لكنها لم يسبق أن شعرت بها بالقوة التي كانت عليها الآن. سيكون القمر بدرًا الليلة. وسيُضيء العالم.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «أنا متعب جدًّا جدًّا.»

تابع: «كاو.» وكان يعني: «أيضًا، حل الليل، والغربان كائنات ليلية.»

قالت وهي تخلع قلنسوة عباءتها: «تفضل. اجلس هُنا، أنا لست متعبة على الإطلاق.»

وكان هذا صحيحًا. شعرت وكأن عظامها تتحول إلى ضوء. وشعرت أنها لن تتعب مجددًا أبدًا. حطَّ الغراب على كتِفها وتسلق إلى داخل قلنسوتها.

عندما كانت لونا صغيرة، علَّمتها جدتها عن المغناطيس والبوصلة. أوضحت لها أن المغناطيس يعمل في حيزٍ يُسمى بالمجال المغناطيسي وتزداد شدَّته كلما اقتربنا من قطبَيه. تعلمت لونا أن المغناطيس يجذب بعض الأجسام دون غيرها. وتعلمت أيضًا أن الأرض نفسها عبارة عن مغناطيس، وأن البوصلة، بإبرتها الصغيرة الموضوعة داخل حوض مائي، ستصطفُّ دائمًا في اتجاه قوة الشدِّ الناتجة عن المغناطيسية الأرضية. عرفت لونا هذا واستوعبته، لكنها كانت الآن تشعر بأن ثمة مجالًا مغناطيسيًّا آخر وبوصلة أخرى لم تُخبرها جدتها عنهما قط.

كان قلب لونا ينجذب إلى قلب جدتها. هل الحب بوصلة؟

وكان عقل لونا ينجذب لعقل جدتها. هل المعرفة مغناطيس؟

وكان ثمة شيء آخر أيضًا. هذا الشعور المتدفِّق الذي يسري في عظامها. هذه الطقطقة في داخل رأسها. هذا الشعور وكأن ترسًا خفيًّا بداخلها، يدفعها، رويدًا رويدًا، نحو ... «شيء ما».

طوال حياتها لم تعرف مُطلقًا ما هو.
قالت عظامها: «إنه السحر.»

قال فيريان: «جليرك. جليرك، جليرك، جليرك! يبدو أن ظهرك لم يعُد يتسع لي. هل أنت تتقلص؟»

قال جليرك: «لا يا صديقي. العكس هو الصحيح. يبدو أنك تزداد حجمًا.»

كان مُحقًّا. كان فيريان «يزداد حجمًا». لم يستطع فيريان تصديق ذلك في البداية، لكن مع كل خطوة يخطوانها، كان فيريان يزداد حجمًا أكثر قليلًا. ليس بتناسُق. صار أنفه كشمامة عملاقة تبرُز عند مقدمةِ أرنبة أنفه. ثم تمدَّدت إحدى عينيه وصار حجمها ضِعف الأخرى. ثم جناحاه. ثم قدماه. ثم قدم واحدة. أخذ ينمو شيئًا فشيئًا، ثم يُبطئ، ثم ينمو، ثم يُبطئ.

قال فيريان: «أزداد حجمًا؟ هل تقصد أنني سأُصبح أضخم؟ كيف يُمكن لتنين أن يُصبح أكثر ضخامةً من «التنانين الهائلة»؟»

تردد جليرك. «حسنًا، أنت تعرف عمتك. كانت دومًا ترى «إمكانياتك»، حتى عندما لم تكن موجودًا بعد. هل تفهم ما أقوله لك؟»

قال فيريان: «لا.»

تنهد جليرك. سيكون هذا صعبًا.

«في بعض الأحيان، كونك هائلًا لا يقتصر في الواقع على الحجم.»

«حقًّا؟» فكَّر فيريان في هذا بينما بدأت أذنه اليسرى تنمو وتتمدَّد. «لم تقُل زان هذا قط.»

قال جليرك، وهو يحاول أن يتمالك نفسه: «حسنًا، أنت تعرف زان. إنها دقيقة». توقف جليرك. «الحجم مثل الطيف. مثل قوس قزح. على مقياس الضخامة، كنتَ، في الواقع، كنت عند الحدِّ الأدنى من المقياس. وهذا بالطبع، في الواقع ...» توقف مرة أخرى. ولعق شفتَيه. «أحيانًا تنثني الحقيقة. مثل الضوء.» كان يتخبَّط وكان يعلم هذا.

«حقًّا؟»

قال جليرك: «لكن قلبك كان كبيرًا دائمًا، وسيظل هكذا دائمًا.»

قال فيريان جزعًا: «جليرك.» تضخمَّت شفتاه فصارتا بحجم فروع الأشجار وتدلَّتا من فكَّيْه بشكل غير مُتناسِق. كانت إحدى أسنانه أكبر من بقية الأسنان الأخرى. وتضخم أحد ذراعَيه بسرعة، أمام عينَي جليرك. «هل أبدو لك غريبًا؟ أرجوك كن صريحًا معي.»

كان كائنًا صغيرًا جادًّا. كان غريبًا، بالطبع. وكان يفتقر إلى الوعي الذاتي. لكنه مع ذلك كان مخلصًا. أفضل رفيق مُخلص، حسبما قرر جليرك.

«استمع إليَّ يا فيريان. أعترف أنني لا أفهم حالتك تمامًا. أتعلم أيضًا؟ ولا زان كانت تفهمها. لا بأس بذلك، حقًّا. أنت تكبُر. تخميني هو أنك على وشك أن تُصبح «تنينًا هائلًا» مثل أُمِّك. لقد ماتت أُمك يا فيريان. منذ خمسمائة سنة مضت. معظم التنانين الصغيرة لا تبقى في مرحلة الطفولة كل تلك المدة. في الواقع، لا يُمكنني التفكير في مثال آخر. لكن لسببٍ ما أنت فعلت هذا. ربما زان من فعلت هذا. ربما لأنك بقيت قريبًا أكثر من اللازم من المكان الذي ماتت فيه أُمُّك. ربما لأنك لم تكن تتحمل أن تكبر. على أي حال، أنت تكبُر الآن. لقد ظننتُ أنك ستبقى تنينًا صغيرًا للأبد. لكنني كنت مخطئًا.»

«لكن ...» حاول فيريان أن يُحلق بجناحيه اللذَين أخذا يتضخمان، وأخذ يتعثر ويسقط لأسفل بقوة لدرجة أنه كان يهزُّ الأرض. «لكنك عملاق يا جليرك.»

هزَّ جليرك رأسه نفيًا. «لا يا صديقي. لا، لست كذلك. أنا ضخم، وأنا كبير في السن، لكنني لست عملاقًا.»

انتفخت أصابع أقدام فيريان وصارت ضِعف حجمها العادي. «وماذا عن زان ولونا؟»

«أيضًا ليستا عملاقتَين. حجمهما طبيعي. أما أنت فصغير جدًّا لدرجة أنه يمكنك الدخول في جيوبهما. أو كنتَ كذلك.»

«والآن لم أعد كذلك.»

«أجل يا عزيزي. لم تعُد كذلك.»

«لكن ماذا يعني ذلك يا جليرك؟» ترقرقت عينا فيريان بالدموع. وانهمرت دموعه في هيئة بِرَكٍ تغلي وسُحُبٍ من البخار.

«لا أعرف يا عزيزي فيريان. ما أعرفه يقينًا هو أنني هنا معك. أعرف يقينًا أن الثغرات في معرفتنا ستُكشف وستُملأ، وهذا أمر جيد. ما أعرفه يقينًا هو أنك صديقي وأنني سأكون إلى جانبك في كل فترةٍ انتقالية وعند كلِّ ابتلاء. مهما كان ...» فجأة تضاعف حجم ردفي فيريان، وكان وزنهما ثقيلًا لدرجةٍ جعلت قدمَيه الخلفيتَين تنثنيان وجعلته يسقط جالسًا بصدمةٍ هائلة. وأنهى جليرك حديثه بقوله: «إحم. مهما كان فظًّا.»

«شكرًا لك يا جليرك» استنشق فيريان من أنفه مُصدرًا صوتًا.

شدَّ جليرك أياديه الأربعة لأعلى ورفع رأسه الضخم لأعلى بقدْر المستطاع، باسطًا عموده الفقري وواقفًا على قدمَيه الخلفيتَين أولًا ثم رافعًا جسده لأعلى على ذيله السميك الملفوف. أصبحت عيناه الواسعتان أكثر اتساعًا.

قال، وهو يُشير إلى منحدر الجبل: «انظر!»

سأل فيريان: «ماذا؟» لم يتمكن من رؤية شيء.

«هناك، شيء يتحرك هابطًا الربوة الصخرية. أظن أنك لا تستطيع أن ترى هذا يا صديقي. إنها لونا. سحرها ينبثق. حسبتُ أنني كنتُ قد رأيته يخرج على هيئة أجزاء صغيرة. لكن زان أخبرتني بأنني أتوهَّم. مسكينة زان. بذلت ما في وسعها للتشبث بطفولة لونا، لكن لا مهرب من ذلك. تلك الفتاة تكبر. ولن تبقى فتاةً لأطول من هذا.»

حدق فيريان في جليرك، فاغرًا فاه. قال بصوت يختلط فيه التشكك بالأمل: «هل ستتحول لونا إلى تنين؟»

قال جليرك: «ماذا؟ لا. بالطبع لا! ستتحول إلى فتاة بالغة. وإلى ساحرة. في نفس الوقت. وانظر! ها هي تفعل ذلك. يُمكنني رؤية سحرها من هنا. أتمنَّى لو كان بإمكانك أن تراها، يا فيريان. إنه بأفضل درجة من درجات اللون الأزرق، وينساب خلفه ببطء بريقٌ لامعٌ فضي.»

كان فيريان على وشك أن يقول شيئًا آخر، لكنه حدق في الأرض. وضع يدَيه كلتَيهما في الوسخ. قال وهو يضغط بأذنه على الأرض: «جليرك؟»

لم ينتبه جليرك. قال، وهو يشير إلى القمة الجبلية التالية: «وانظر! ها هي زان. أو سحرها، على أي حال. يا إلهي! إنها مصابة. يمكنني رؤية ذلك من هنا. إنها تستخدم تعويذة الآن، تعويذة تحويل على ما يبدو. ويحكِ يا زان! تتحولين وأنتِ في هذه الحالة! ماذا لو لم تتمكني من العودة إلى هيئتكِ الأصلية؟»

قال فيريان، وحراشفه تزداد شحوبًا بسرعة هائلة: «جليرك؟»

«لا يُوجد مُتسع من الوقت يا فيريان. زان تحتاج إلينا. انظر. لونا تتحرك نحو القمة الجبلية التي تُوجَد فيها زان حاليًّا. إذا أسرعنا ...»

قال فيريان: «جليرك! هل ستنصت لما أقول؟ إنه الجبل.»

قال جليرك بنفاد صبر: «تحدث بجملٍ كاملة، من فضلك. إذا لم نتحرك بسرعة ...»

صرخ فيريان: «الجبل يشتعل، يا جليرك.»

أدار جليرك عينَيه في محجريهما بنفاد صبر. «لا، هذا غير صحيح! حسنًا. ليس أكثر مما هو طبيعي. فوهات الدخان تلك مجرد ...»

قال فيريان، وهو يتحامل للنهوض: «لا يا جليرك. إنه صحيح. في باطن الأرض. الجبل يشتعل تحت أقدامنا. مثلما كان فيما مضى. عندما ثار البركان. أنا وأمي ...» تهدج صوته، وتدفق حزنه فجأة. «شعرنا بهذا أولًا. ذهبت أُمي للسحرة كي تُحذرهم. جليرك!» كاد وجه فيريان يتصدَّع من القلق. «علينا أن نُحذِّر زان.»

أومأ وحش المستنقع. شعر بأن قلبه يغوص في ذيله الضخم. قال، موافقًا: «وبسرعة. هيا، يا عزيزي فيريان. ليس لدينا لحظة نضيعها.»

تدفق الشكُّ في داخل أحشاء الطائر الذي تتخذ زان صورته.

قالت زان بانزعاج: «هذا كله خطئي.»

جادلت في نفسها: «لا! أنتِ حميتِ! أنت أحببتِ! أنتِ أنقذتِ أولئك الأطفال من الجوع. أنت وجدتِ لهم أُسرًا سعيدة.»

قالت في نفسها، معارضةً: «كان ينبغي أن أعرف. كان ينبغي أن أكون فضولية. كان ينبغي أن أفعل شيئًا.»

وهذا الفتى المسكين! كم أحبَّ زوجته. كم أحبَّ ابنه. انظر إلى ما هو مُستعد للتضحية به من أجل جعلهما آمنَين وسعيدَين. أرادت أن تُعانقه. أرادت أن تنهي تحولها وتشرح له كل شيء. لكنه سيحاول قتلها بالتأكيد قبل أن توضح له أي شيء.

همس الشاب: «لم يبقَ أمامنا الكثير، يا صديقي. سيبزغ القمر وسننطلق في طريقنا. وسأقتل الساحرة وبعدئذٍ يُمكننا أن نعود للبيت. وسيمكنك رؤية زوجتي الجميلة إيثين وابني الجميل. وسنبقيك في مأمن.»

قالت زان في نفسها: «هذا مُستبعد.»

بمجرد أن يبزغ القمر، ستتمكن من اغتنام ولو القليل من قوته السحرية. القليل جدًّا. سيكون الأمر أشبَهَ بمحاولة حمل الماء في شبكة صيد. لكن هذا كان أفضل من لا شيء. هذا أفضل من لا شيء على الإطلاق. على الأقل سيكون لديها القطرات. وقد تغتنم ما يكفي لجعل هذا المسكين يخلد إلى النوم قليلًا. وقد تتمكن حتى من إرسال ملابسه وحذائه وإرساله إلى البيت، وهناك سيستيقظ على عناق جميل من أسرته.

كل ما كانت بحاجة إليه هو القمر.

قال الشاب وهو يهبُّ واقفًا: «هل تسمع ذلك؟» تلفتت زان حولها. لم تسمع أي شيء.

لكنه كان محقًّا.

كان شيءٌ ما يقترب.

أو شخصٌ ما.

تساءل: «هل يمكن أن تكون الساحرة قادمة إليَّ؟ هل يمكن أن أكون محظوظًا لهذه الدرجة؟»

قالت زان في نفسها، باستهزاء أكبر مما يستحق: «بالفعل.» نقرت الرجل نقرةً خفيفة عبر قميصه. وقالت في نفسها: «تخيل «الساحرة» قادمة إليك. أيها المحظوظ.» رفعت عيني الطائر الصغيرتَين الشبيهتَين بالخرز.

قال وهو يشير إلى القمة الجبلية: «انظر!» نظرت زان. كان مُحقًّا. كان شخص ما يصعد إلى القمة الجبلية. شيئان. لم تتمكن زان من التحقق من هيئة الشيء الثاني — لم يبدُ مثل أي شيءٍ رأت مثله من قبل — لكن الشيء الأول كان لا يمكن أن تخطئه عين.

ذلك الوهج الأزرق.

وذلك البريق الفضي.

سحر لونا. «سحرها»! كان يقترب أكثر فأكثر فأكثر.

قال الشاب: «إنها «الساحرة». أنا متأكد من هذا!» واختبأ خلف مجموعة من الشجيرات المتشابكة، وبقِي بلا حراك. ارتعدت فرائصه. ونقل سكينه من يدٍ للأخرى. وقال: «لا تقلق يا صديقي. سأنفذ هذا بسرعة كبيرة جدًّا جدًّا. ستصل «الساحرة». ولن تراني.»

بلع ريقه.

«وعندئذٍ سأنحر عنقها.»

الفصل الأربعون

خلاف حول الحذاء الطويل الرقبة

قالت الأخت إجنيشا: «اخلعيه يا عزيزتي.» كان صوتها ناعمًا. كانت خطواتها ناعمة. «إنه ببساطة لا يناسبك.»

أومأت المرأة المجنونة. كان القمر على وشك أن يبزغ. وكان الجبل يُدمدم تحت قدمَيها. وقفت أمام صخرة ضخمة. كان مكتوبًا على الصخرة من أحد الجانبَين: «لا تنسي.» وكان مكتوبًا على الجانب الآخر: «أعني ما أقول.»

افتقدت المرأة المجنونة طيورها الورقية. طارت بعيدًا ولم تعُد. هل كانت حقيقية أصلًا؟ لم تكن المرأة المجنونة تدري.

كل ما تعرفه حينئذٍ أنها كانت تُحب هذا الحذاء الطويل الرقبة. كانت قد أطعمت الماعز والدجاج، وجمعت اللبن والبيض، وشكرت الحيوانات على وقتها. لكنها في نفس الوقت، كانت تشعر وكأن الحذاء كان «يُطعِمها». لم تتمكن من تفسير ذلك. كان الحذاء يُمدها بالحيوية في جميع أنحاء جسمها. شعرت بأنها خفيفة كطائر ورقي. شعرت أنه يمكنها الركض لآلاف الأميال دون أن تنقطع أنفاسها.

تقدمت الأخت إجنيشا خطوة للأمام. وانفرجت شفتاها عن ابتسامةٍ فاترة. كان بوسع المرأة المجنونة سماع زمجرة «كبيرة الأخوات» الأشبه بزئير نمِر تُدوِّي تحت الأرض. شعرت بأن ظهرها بدأ يتعرق. تراجعت عدة خطوات سريعة نحو الوراء حتى التصق جسدها بصخرة قائمة. استندت عليها وشعرت بالراحة هناك. شعرت بأن حذاءها الطويل الرقبة بدأ يطن.

كان يُوجَد سحر في جميع أنحاء هذا المكان. قِطَع صغيرة من السحر. كان بوسع المرأة المجنونة أن تشعر به. وكان بوسعها أن ترى أن «الأخت» كانت تشعر به أيضًا. مدت كلتا المرأتين أصابعهما الرشيقة الماهرة هنا وهناك، تقبضان على قِطع السحر البراقة

بأيديهما، وتحتفظان بها لوقتٍ لاحق. وكلما جمعت المرأة المجنونة المزيد من قِطع السحر، أصبح الطريق المؤدي لابنتها أوضح.

قالت «كبيرة الأخوات»: «أيتها الروح الشاردة البائسة! كم شردتِ بعيدًا عن البيت! كم أنتِ مشوشة بالتأكيد! لحُسن الحظ أنني وجدتكِ هنا، قبل أن يَجدكِ حيوانٌ ضارٍ أو قاطع طريق يتجول. هذه غابة خطيرة. بل أخطر غابة في العالم.»

دمدم الجبل. اندلع عمود من الدخان من أبعد الفوهات. شحب وجه «كبيرة الأخوات».

قالت الأخت إجنيشا: «علينا أن نُغادر هذا المكان.» شعرت المرأة المجنونة بركبتَيها تهتزان. أشارت الأخت إلى الفوهة، قائلةً: «انظري! لقد رأيتُ هذا من قبل. منذ زمن طويل. تظهر أعمدة الدخان، ثم تهتز الأرض، ثم تحدُث الانفجارات الأولى، ثم ينفتح وجه الجبل كله نحو السماء. إذا بقينا هنا عند حدوث هذا، فستموت كلتانا. لكن إذا أعطيتِني هذا الحذاء الطويل الرقبة» — لعقت شفتيها — «عندئذٍ يُمكنني أن أستخدم القوة الموجودة بداخله كي أُعيدنا كلتينا إلى البيت. نعود إلى «البرج». إلى «برجكِ» الصغير الدافئ الآمن.» ابتسمت مرة أخرى. حتى ابتسامتها كانت مُخيفة.

همست المرأة المجنونة: «أنتِ تكذبين، يا «قلب النمر».» أجفلت الأخت إجنيشا عند سماعها الكلمة. «أنتِ لا تنوين إعادتي.» كانت يداها على الصخرة. كانت الصخرة تجعلها ترى أشياء. أو ربما كان الحذاء الطويل الرقبة هو الذي يجعلها ترى أشياء. رأت مجموعة من السحرة — رجالًا مُسنِّين ونساءً عجائز — خانتهم «كبيرة الأخوات». قبل أن تصير «كبيرة الأخوات». قبل أن تُوجد «المحمية». كان من المفترض أن تحمل كبيرة الأخوات السحرة على ظهرها عند اندلاع البركان. لكنها لم تفعل شيئًا من هذا القبيل. تركتهم في الدخان ليُلاقوا حتفهم.

همست الأخت إجنيشا: «كيف عرفتِ هذا الاسم؟»

قالت المرأة المجنونة: «الجميع يعرفون هذا الاسم. كان في حكاية. حكاية تروي كيف أكلت «الساحرة» قلب نمر. الجميع يهمسون بها. إنها حكاية خاطئة، بالطبع. فليس لديكِ قلب نمر. ليس لديك قلبٌ على الإطلاق.»

قالت الأخت إجنيشا: «لا تُوجَد حكاية كهذه.» بدأت تتقدم. وحدَّبت كتفَيها. وزمجرت. «أنا من بدأت الحكايات في «المحمية». أنا من فعلت هذا. أنا مصدر جميع الحكايات. لا تُوجَد حكاية لم أروِها أنا أولًا.»

«أنتِ مخطئة. الأخوات كُنَّ يَقُلن: «النمر يسير.» كان بوسعي أن أسمعهن. كنَّ يتحدثن عنك، كما تعرفين.»

شحب وجه كبيرة الأخوات بشدة. وهمست: «مستحيل!»

قالت المرأة المجنونة: «كان من المستحيل أن تكون ابنتي ما زالت على قيد الحياة، ومع ذلك هي لا تزال حية. وكانت هنا. منذ وقت قريب. المستحيل ممكن. يُعجبني هذا المكان.»

«أعطيني هذا الحذاء.»

«وثمة شيء آخر. ركوب سِرب من الطيور الورقية أمر مستحيل، لكنني فعلته. صحيح أنني لا أعرف إلى أين ذهبت طيوري، لكنها ستجد طريقَها عائدةً إليَّ. وكان من المستحيل أن أعرف إلى أين ذهبت رضيعتي، ومع ذلك لديَّ أوضح صورة عن مكانها. في هذه اللحظة. ولديَّ فكرة جيدة عن كيفية الوصول إليها. ليست في رأسي، كما ترين، لكنها في قدمي. هذا الحذاء الطويل الرقبة. إنه ماهر للغاية.»

زأرت كبيرة الأخوات، قائلةً: «أعطيني حذائي.» كوَّرت قبضتَيها بإحكام ورفعتهما فوق رأسها. وعندما أنزلت قبضتيها، وبسطت أصابعها، كانت تُمسك فيها بأربعة سكاكين حادة. بدون تردُّد، تراجعت إلى الوراء وقصفت يديها للأمام، مُطلقةً أنصال السكاكين نحو قلب المرأة المجنونة. وكانت السكاكين ستُصيبها، لو لم تدُرْ على عقبها وتقفز ثلاث قفزات هائلة جانبًا.

زأرت الأخت إجنيشا، قائلةً: «الحذاء مِلكي. أنتِ حتى لا تعرفين كيفية استخدامه.»

ابتسمت المرأة المجنونة. وقالت: «في الواقع أعرف. أعتقد أنني أعرف.»

اندفعت الأخت إجنيشا نحو المرأة المجنونة، التي خطت بعض الخطوات الختامية في مكانها قبل أن تنطلق مبتعدةً في لمح البصر. وتركت «الأخت» وحدَها.

بدأت الحمم تتصاعد من الفوهة الثانية. اهتزت الأرض اهتزازًا شديدًا لدرجة أن الأخت إجنيشا كادت تسقط على ركبتَيها. ضغطت بيدِها على الأرض الصخرية. كانت ساخنة. قد يحدث الأمر في أي لحظة الآن. بات ثوران البركان وشيكًا.

وقفت. وفردت ثوبها.

قالت: «حسنًا إذن. إذا كانت هذه هي الطريقة التي يريدون اللعب بها. فلا بأس. سألعب أنا أيضًا.»

وتبعت المرأة المجنونة إلى الغابة التي كانت آخِذة في الاهتزاز.

الفصل الحادي والأربعون

مسارات عديدة تتلاقى

سارعت لونا بتسلُّق المنحدر المائل نحو أعلى قمة. بدأ الطرف العلوي للقمر يظهر في الأفق. كان يمكنها الشعور بطنين بداخلها، مثل ترس زنبرك يُلَفُّ بإحكامٍ شديد ويطنُّ خارجًا عن السيطرة. شعرت ببركان يجيش بداخلها، وكان ذلك البركان يندلع بعنف من أطرافها. تعثرت واصطدمت يداها بقوة بالأرض المُغطاة بالحصى. فبدأ الحصى يتدافع وينطلق ويزحف بعيدًا كالحشرات. أو ليس كالحشرات. بل كان «بالفعل» حشرات؛ لها قرون استشعار هوائية وذات أرجل مشعرة وأجنحة قزحية الألوان. أو صار الحصى ماءً. أو ثلجًا. ارتفع القمر أكثر في الأفق.

كانت جدة لونا قد علمتها، عندما كانت صغيرة برُكبتَين متقرحتَين وشعرٍ مُتشابك، كيف تعيش اليرقة، وكيف تكبر وتسمن وتُصبح لطيفة، حتى تُكوِّن الشرنقة. وبداخل الشرنقة «تتغير». يتفكَّك جسدها. ويتكسَّر كل جزءٍ منه، ويُعاد تكوينه من جديدٍ متحولًا إلى شيءٍ آخر.

وكانت لونا قد سألت: «ماذا يُشبه هذا؟»

قالت جدتها ببطءٍ شديد، وهي تُضيِّق عينَيها: «يُشبه السحر.»

حينذاك، كان قد أصاب لونا جمود. والآن، في ذاكرتها، كان يمكنها أن ترى ذلك الجمود؛ كيف حلَّقَت كلمة «سِحر» بعيدًا، مثل طائر. كان بوسعها بالفعل أن تراها تطير؛ كل صوت وكل حرف ينزلق من أُذنيها ويُحَلِّق بعيدًا. لكنها الآن تُحلق عائدة من جديد. حاولت جدَّتُها أن تشرح لها السحر في يومٍ من الأيام. ربما أكثر من مرة. لكنها بعد ذلك كانت قد باتت معتادة على جهل لونا بالسحر. والآن، شعرت لونا وكأنها وسط عاصفةٍ من الذكريات، التي تضطرب داخل رأسها.

كانت جدتها قد قالت إن اليرقة تدخل إلى الشرنقة. ثم «تتغير». يتغير جلدها وتتغير عيناها ويتغير فمها. وتختفي أقدامها. كل جزءٍ منها — حتى معرفتها بنفسها — يُسحَق إلى فتات.

وكانت لونا قد سألت، وهي تحدق بعينين واسعتين: «فتات؟»

وكانت جدتها قد طمأنتها، قائلةً: «حسنًا. ربما ليس فتاتًا. لنقل إنها المادة الأولية. المادة الأولية التي تكونت منها النجوم. المادة الأولية للضوء. المادة الأولية للكوكب قبل أن يصبح كوكبًا. المادة الأولية للجنين قبل أن يُولَد. المادة الأولية للبذرة قبل أن تصبح شجرة جميز. كل شيء ترينه يخضع لعملية تكوين أو تفكُّك أو موت أو حياة. كل شيء في حالة «تغير».

والآن، بينما كانت لونا تركض صاعدةً القمة الجبلية، كانت تتغير. كان بوسعها أن تشعر بذلك. عظامها وجلدها وعيناها وروحها. كانت الآلة الموجودة داخل جسدها — كل ترس وكل زنبرك وكل رافعة مصقولة — قد تبدلت وأُعيد ترتيب أجزائها وأُعيد تركيبها متخذةً مكانها. مكانًا مختلفًا. وصارت لونا الآن «جديدة».

كان يُوجَد شاب في أعلى القمة الجبلية. لم تتمكن لونا من رؤيته، ولكن كان بوسعها أن تشعر به في قرارة نفسها. كان بوسعها أن تشعر بوجود جدتها في الجوار. أو على الأقل كانت مُتيقنة بدرجة كبيرة من أنها جدتها. كان يمكنها أن ترى صورةً ذهنية لجدتها مطبوعة في ثنايا روحها، لكن عندما حاولت أن تكتشف أين جدتها «الآن»، كانت الصورة مشوشة إلى حدٍّ ما.

سمعت الرجل يقول: «إنها «الساحرة»». شعرت لونا بقلبها ينقبض. ركضت أسرع من السابق، على الرغم من أن القمة الجبلية كانت شديدة الانحدار والطريق كان طويلًا. ومع كل خطوةٍ كانت تزيد من سرعتها.

صرخ قلبها: «جدتي!»

«ابتعدي!» لم تسمع هذا بأُذنيها. بل سمعَتْه يتردَّد بداخلها.

«استديري!»

«ما الذي تفعلينه هنا، أيتها الفتاة الحمقاء؟»

كانت تتخيل هذا. بالطبع كانت كذلك. ولكن لا. لماذا بدا وكأن الصوت كان آتيًا من الصورة الذهنية المطبوعة لجدتها في ثنايا روحها. ولماذا بدا «بالضبط مثل أسلوب زان»؟

سمعت لونا الرجل يقول: «لا تقلق يا صديقي. سأنفذ هذا بسرعة كبيرة جدًّا. ستأتي «الساحرة». وعندئذٍ سأنحر عنقها.»

صرخت لونا: «جدتي! احذري.»
وسمعت صوتًا. كان مثل صيحة طائر سنونو. تُدَوِّي في جنبات الليل.

قال جليرك، وهو يمسك فيريان من جناحه ويدفعه للأمام: «أقترح أن نتحرك بسرعة أكبر يا صديقي.»

قال فيريان، وهو يسقط على ركبتَيه: «أشعر بأنني مريض يا جليرك.» لو كان قد سقط بهذه القوة في وقتٍ أبكر من اليوم، من المؤكد أنه كان سيجرح نفسه. لكن ركبتيه — على وجه الدقة رجليه وقدميه وظهره بالكامل وحتى براثنه الأولية — كانتا الآن مُغطاتَين بجلد سميك وبدأت طبقة من الحراشف الصلبة تتكوَّن.

قال جليرك، وهو ينظر خلفه: «ليس لدينا وقتٌ كي تمرض.» كان فيريان الآن كبير الحجم بقدر جليرك، وكان يكبر كل لحظة. كان هذا صحيحًا. بدا ما حول وجهه مخضرًّا قليلًا. لكن ربما كان هذا هو لونه الطبيعي. كان يستحيل الجزم بذلك.

شعر جليرك بأن فيريان اختار أكثر وقتٍ غير مناسب كي يكبر. لكن جليرك لم يكن عادلًا في شعوره هذا.

قال فيريان: «المعذرة!» رفع نفسه بصعوبة لشجيرة منخفضة وتقيأ بشدة. «عجبًا. يبدو أنني أشعلتُ النار في بعض الأشياء.»

هزَّ جليرك رأسه. وقال: «إذا كان بإمكانك إخمادها، فافعل. لكن إذا كنتَ مُحقًّا بشأن البركان، فلن يُهمَّ كثيرًا ما يشتعل وما لا يشتعل.»

هزَّ فيريان رأسه وهزَّ جناحَيه. حاول أن يُرفرف بهما بضع مرات، لكنه كان لا يزال أضعف من أن يُحَلِّق. استنشق من أنفه، وانطبعت نظرةٌ مصدومة على وجهه. «ما زلتُ لا أستطيع الطيران.»

قال جليرك: «أظن أنه من المقبول قول إن هذه حالة مؤقتة.»

قال فيريان: «كيف عرفت؟» بذل ما في وسعه كي يُخفي النشيج الذي يكمن في صوته. لكنه لم ينجح في إخفائه جيدًا.

نظر جليرك إلى صديقه. كان النمو قد صار أبطأ لكنه لم يتوقف. على الأقل، بدا الآن أن فيريان ينمو على نحوٍ أكثر توازنًا.

«لا أعرف. لا يسعني سوى أن آمُل في حدوث الأفضل.» انفرج فكَّا جليرك الكبيران الواسعان عن ابتسامة. «وأنت يا عزيزي فيريان، من أفضل من عرفت. هيا. لنصعد لأعلى القمة الجبلية! لنسرع!»

استحثَّ جليرك وفيريان الخُطى عبر النباتات وتسلَّقا الصخور.

لم تشعر المرأة المجنونة طوال حياتها بشعورٍ أروع مما كانت تشعر الآن. كانت الشمس قد غربت. وبدأ القمر للتوِّ في البزوغ. وكانت تمضي مُسرعةً عبر الغابة. لم تُحبَّ شكل الأرض؛ فقد كان يوجد العديد من الأخطار الكامنة والبوتقات التي تغلي والأغوار العميقة المشبعة بالبخار، التي كان يمكن أن تطهوها حية. ولكن، باستخدام الحذاء، كانت تقفز من فرع إلى فرع بسهولةٍ مثل سنجاب.

كانت «كبيرة الأخوات» تتبعها. إذ كان بوسعها أن تشعر بانقباض وانبساط كل عضلة من عضلات «الأخت». كما شعرت بتموُّج سرعتها وروميض الألوان وهي تركض بخطواتٍ واسعة عبر الغابة.

توقفت للحظة على فرع سميك لشجرة لم تستطع أن تُحدِّد نوعها. كان لحاء الشجرة متغضنًا بشدة، وتساءلت عما إذا كان يجري كالأنهار عندما تمطر السماء. حدقت في الظلام المتزايد. جعلت مجال رؤيتها يتَّسع، ويتخطى التلال والوديان والقمم الجبلية، ويصل حتى أطراف العالم.

ها هو! وميض أزرق، له بريق فضي.

ها هو! وميض أخضر داكن.

ها هو! شابٌّ صغير كانت قد جرحَتْهُ من قبل.

ها هو! وحش من نوع ما وحيوانه الأليف.

دمدم الجبل. كانت كل مرةٍ أعلى من سابقتها، وأكثر تصميمًا. كان الجبل قد ابتلع طاقة، وكانت الطاقة تُريد التحرُّر.

قالت المرأة المجنونة، وهي توجه وجهها نحو السماء: «أحتاج إلى طيوري.» ووثبت للأمام وتعلَّقت بفرعٍ جديد. ثم آخر. ثم آخر. ثم آخر.

«أحتاج إلى طيوري!» هكذا صاحت مُجددًا، وهي تركض من فرع لآخر بسهولة وكأنها في سباق عَدو في مضمارٍ عُشبي. ولكن أسرع بكثيرٍ من ذلك.

كان بوسعها أن تشعر بأن سِحر الحذاء يجعل عظامها خفيفة. وبدا أن ضوء القمر المتزايد يزيد من سحره.

همست، وهي تركض أسرع، وعيناها مُثبَّتَتان على الوميض الأزرق: «أحتاج إلى ابنتي.»

وخلفها، تنامى همس آخر؛ هو رفرفة أجنحة ورقية.

زحف الغراب خارجًا من قلنسوة الفتاة. وهَيَّأ قدمَيه الدقيقتَين على كتِفِها ثم حرك جناحَيه اللامعين مُنطلقًا في الهواء.

نادى الغراب: «كاو.» وتردَّد صوته: «لونا.»

مرة أخرى قال: «كاو!» وكان يعني: «لونا.»

«كاو، كاو، كاو.»

«لونا، لونا، لونا.»

أصبحت القمة الجبلية أكثر انحدارًا. تعيَّنَ على الفتاة أن تمسك بالجذوع الطويلة الضعيفة والفروع العالقة بالمنحدر كي لا تسقط للخلف. كان وجهها مُتوردًا وكانت أنفاسها لاهثة.

قال الغراب: «كاو.» وكان يعني: «سأتقدَّم للأمام كي أرى ما لا يُمكنكِ رؤيته.»

انطلق للأمام، خلال الظلال، فوق الربوة العارية أعلى القمة الجبلية، حيث تقف جلاميد كحراس، يحرسون الجبال.

رأى رجلًا. كان الرجل يحمل طائر سنونو. وكان السنونو يركل ويرفرف وينقر.

تحدث الرجل بنبرةٍ مُهدئة وهو يلفُّ السنونو بقطعةٍ من القماش ويضعه داخل معطفه: «والآن اهدأ يا صديقي!»

انسلَّ الرجل نحو أحد الجلاميد الأخيرة الموجودة بالقرب من حافة القمة الجبلية.

قال للسنونو، الذي كان يقاوم ويُحدِث هَرْجًا: «إذن. هي مُتنكرة في هيئة فتاة. حتى النمر يُمكنه أن يتنكر في هيئة حمَل وديع. هذا لا يُغير من حقيقة كونه نمرًا.»

وبعد ذلك، أخرج الرجل سكينًا.

صرخ الغراب «كاو!». وكان يعني: «لونا!»

«كاو!»

«اهربي!»

الفصل الثاني والأربعون

العالم يُصبح أزرق وفضيًّا، وفضيًّا وأزرق

سمعت لونا تحذير الغراب، لكنها لم تتمكن من الإبطاء. كانت مُمتلئةً بضوء القمر. قالت في نفسها: «أزرق وفضي، فضي وأزرق»، لكنها لم تكن تعرف السبب. كان ضوء القمر لذيذًا. جمعته في يدَيها وشربتْهُ مرارًا وتكرارًا. وبمجرد أن بدأت، لم تستطع التوقف.

ومع كل رشفة، كان مشهد القمة الجبلية يبدو أوضح.

ذلك الوميض الأخضر الداكن.

كان جدتها.

الريش.

كانت هذه الأشياء متصلة بجدتها بطريقةٍ ما. رأت الرجل ذا الندوب على وجهه. بدا مألوفًا لها، لكنها لم تستطع أن تُحدِّد من أين تعرفه.

كانت عيناه تشعَّان طيبةً وروحه تفيض حنانًا. في قلبه كان يحمل بداخله حبًّا. وفي يدِهِ كان يحمل سكينًا.

قالت المرأة المجنونة في نفسها وهي تنطلِقُ عبر الأشجار من فرعٍ لفرع: «أزرق! أزرق، أزرق، أزرق، أزرق، أزرق.» ومع كل خطوة طويلة تخطوها، كان سِحر الحذاء ذي الرقبة الطويلة يسري عبر جسمها كالبرق.

غنَّت جهرًا: «وفضيٌّ أيضًا. أزرقُ وفضيٌّ، فضيٌّ وأزرق.»

كانت كل خطوة تخطوها تُقربها للفتاة. ارتفع القمر بكامِلِهِ في السماء الآن. وأضاء العالم. كان ضوء القمر ينساب داخل عظامِ المرأة المجنونة، من أعلى رأسها وحتى حذائها الجميل ذي الرقبة الطويلة ثم يعود من حيث أتى.

خطوة، خطوة، خطوة؛ قفزة، قفزة، قفزة؛ أزرق، أزرق، أزرق. بريق فضي. طفلة خطيرة. ذراعان واقيان. وحش له فكٌّ واسع وعينان حانيتان. تنين صغير. طفلة مليئة بضوء القمر.

«لونا. لونا، لونا، لونا، لونا.»

طفلتها.

كانت تُوجَد ربوة عارية أعلى القمة الجبلية. ركضت نحوَها. كانت الجلاميد قائمة كالحراس. وخلف أحد الجلاميد وقف رجل. وكان وهَجٌ أخضرُ داكنٌ يظهر من خلال بقعة صغيرة على معطفه. قالت المرأة المجنونة في نفسها إنه نوعٌ ما من السحر. كان الرجل يحمل سكينًا. وفوق حافة القمة الجبلية مباشرةً، فوقه تقريبًا، كان يُوجَد وَهَج آخر؛ الوهج الأزرق.

الفتاة.

ابنتها.

لونا.

إنها على قيد الحياة.

رفع الشاب السكين. ثبَّت عينَيه على الفتاة التي تقترب.

صرخ: «ساحرة!»

قالت الفتاة: «لستُ ساحرة. أنا فتاة. واسمي لونا.»

قال الرجل: «كذب! أنتِ «الساحرة». عمركِ آلاف السنوات. لقد قتلتِ عددًا لا يُحصى من الأطفال.» بدا الارتعاش في أنفاسه. وأردف: «والآن سأقتلكِ.»

وثب الرجل.

ووثبت الفتاة.

ووثبت المرأة المجنونة.

وامتلأ العالَم بالطيور.

الفصل الثالث والأربعون

الساحرة تُلقي بتعويذتها الأولى، عن عمدٍ هذه المرة

دوَّامة من الأرجل والأجنحة والمرافق والأظافر والمناقير والورق. دارت الطيور الورقية حولَ الربوة في حلقاتٍ وأخذت الحلقات تَضيق أكثر فأكثر فأكثر.

صرخ الشاب: «عيناي!»

صاحت الفتاة: «خدي!»

أنَّت المرأة: «حذائي!» كانت امرأةً لم تعرفها لونا.

صاح الغراب: «كاو!» وكان يعني: «فتاتي! ابتعدوا عن فتاتي.»

شهقت لونا، قائلةً: «طيور!»

تدحرجت بعيدًا عن التشابك وهَبَّت واقفةً على قدمَيها. كانت الطيور تدور لأعلى في تشكيلٍ على هيئة دوامة كبيرة قبل أن تهبط في دائرة عظيمة على الأرض. لم تهاجم أحدًا؛ ليس بعد. لكن الطريقة التي تدفع بها مناقيرها نحو الأمام وتفتح أجنحتها مهددةً جعلتها تبدو وكأنها قد تُبادر بالهجوم.

غطَّى الرجل وجهه.

أنَّ قائلًا: «أبعديها عني!» انتفض وانكمش، مُغطيًا وجهه بيديه. وأسقط السكين على الأرض. ركلت لونا السكين بعيدًا، فسقطت من فوق حافة القمة الجبلية.

همس: «رجاءً! لقد واجهتُ هذه الطيور من قبل. إنها مُخيفة. وقد سبَّبتْ لي جروحًا لا تندمل.»

جثت لونا بجواره. همست: «لن أدَعْها تؤذيك. أعِدُك. لقد عثرتْ عليَّ هذه الطيور قبلئذٍ، حينما كنتُ تائهةً في الغابة. لكنها لم تَجرحْني عندئذٍ. ولا أتصوَّر أنها ستجرحك الآن. ولكن مهما يكن، لن أدعها تفعل ذلك. هل تفهمني؟»

أومأ الرجل. أبقى وجهه مدسوسًا بين ركبتَيه.

رفعت الطيور الورقية رءوسها. لم تنظر إلى لونا. بل نظرت إلى المرأة التي كانت مُمدَّدة على الأرض.

نظرت لونا، هي الأخرى، إليها.

كانت المرأة ترتدي حذاءً أسودَ طويلَ الرقبة وفستانًا بسيطًا منسدلًا. كانت حليقة الرأس. وكانت لها عينان سوداوان واسعتان وشامة هلالية الشكل على جبينها. ضغطت لونا بأصابعها على جبهتها.

حدَّثَها قلبُها: «إنها هنا. إنها هنا، إنها هنا، إنها هنا.»

همست المرأة: «إنها هنا. إنها هنا، إنها هنا، إنها هنا.»

كانت لدى لونا صورة ذهنية عن امرأةٍ ذات شعرٍ أسود طويلٍ يتلوى من رأسها كالثعابين. نظرت للمرأة الماثلة أمامها. وحاولت أن تتخيلها بشعر.

قالت لونا: «هل أعرفكِ؟»

قالت المرأة: «لا أحد يعرفني. ليس لي اسم.»

عبست لونا. «هل كان لديكِ اسم؟»

جلست المرأة القرفصاء، وأحاطت ركبتَيها بذراعَيها. اختلجت عيناها هنا وهناك. كانت مجروحة، لكن ليس في جسدها. نظرت لونا عن كثب. كانت مجروحةً في عقلها. قالت المرأة: «فيما مضى. فيما مضى كان لي اسم. لكنني لا أتذكَّره. كان رجل يُناديني «زوجتي» وكانت لي طفلة كانت ستقول لي «أمي». لكن هذا كان منذ زمنٍ طويل. لا أستطيع أن أُحدِّد كم مرَّ على ذلك. الآن، لا يدعوني أحد إلا بـ «السجينة».»

همست لونا وهي تتقدَّم خطوة مقتربةً منها: «في برج.» ترقرقت عينا المرأة بالدموع. ونظرت إلى لونا ثم أشاحت بناظِرَيها، وعادت تنظر إليها ثم تُشيح بناظريها، وكأنها تخشى من أن تترك نظرَها يستقر على الفتاة طويلًا جدًّا.

رفع الرجل ناظرَيه. وضمَّ ركبتَيه إلى صدره. حدَّق في المرأة المجنونة. وقال: «هذه أنتِ! لقد هربتِ.»

قالت المرأة المجنونة: «هذه أنا!» زحفَتْ عبر السطح الصخري وجثَتْ بجواره. وضعت يدَيها على وجهه. قالت، وهي تُمرِّر أصابعها على ندوبه: «هذا خطئي. آسفة. لكن حياتك. حياتك أسعد الآن. أليس كذلك؟»

اغرورقت عينا الرجل بالدموع. وقال: «لا. أعني بلى. إنها كذلك. لكن لا. أنجبت زوجتي طفلًا. ابننا طفل جميل. لكنه الأصغر في «المحمية». ومثلكِ، علينا أن نُعطي رضيعنا للساحرة.»

نظر إلى الشامة الموجودة على جبهة المرأة المجنونة.

ثم نقل بصره إلى لونا. ونظر إلى شامتها المطابقة. وحدَّق في عينَيها السوداوين الواسعتَين المُطابقتَين لعيني المرأة. كان انتفاخٌ في سترته يركل وينقر. وتسلل منقار أسود من طرف ياقته. ونقر مرة أخرى.

قال الرجل، متألمًا: «آخ.»

قالت لونا وهي ترفع ذقنها: «لستُ ساحرةً. أو، على الأقل، لم أكن كذلك. ولم آخُذ مُطلقًا أيَّ أطفال.»

حجل الغراب فوق الصخرة العارية وقفز لأعلى، مُتجهًا نحو كتف الفتاة.

قالت المرأة المجنونة: «بالطبع أنتِ لستِ ساحرة.» كانت بعدُ لا تستطيع تثبيت عينيها على لونا. اضطرت لأن تُشيح بناظِرَيها، وكأن لونا كانت ضوءًا ساطعًا. «أنتِ هي الرضيعة.»

«أي رضيعة؟»

حاول طائرٌ، جاهدًا، الخروجَ من سترة الشاب. ذلك الوهج الأخضر الداكن. أخذ الطائر ينعق ويضطرب وينقُر.

قال الرجل: «أرجوك يا صديقي الصغير! اهدأ! هَدِّئ من روعِك. لا يُوجَد ما تخشاه.»

همست لونا: «جدتي!»

قال الرجل: «أنتِ لا تفهمين. لقد كسرتُ جناح هذا السنونو دون قصد.»

لم تكن لونا مُصغية. قالت: «جدتي!» تجمَّد السنونو. وحدق في الفتاة بعينٍ لامعة. عين جدتها. عرفته.

داخل رأسها، ثُبِّتَ ترسٌ أخيرٌ في مكانه. أصدر جلدُها صوتَ طنين. وكذلك عظامها. أضاءت الذكريات عقلَها؛ كانت كلُّ ذكرى تسقط مثل كويكب، يُومِض في الظلام.

المرأة التي تصرخ على السقف.

المرأة العجوز جدًّا ذات الأنف الضخم جدًّا.

دائرة أشجار الجميز.

شجرة الجميز التي صارت امرأةً عجوزًا.

المرأة التي تحمِل ضوء النجوم على أصابعها. ثم شيء ألذُّ طعمًا من ضوء النجوم.

وبطريقةٍ ما، تحول جليرك إلى أرنبٍ صغير.

وجدَّتُها التي حاولت أن تعلمها التعاويذ. بِنِيَّة التعاويذ. وتركيبها. والأشعار التي تُلقى في التعاويذ والمهارة الفنية المرتبطة بالتعاويذ والبِنية المعمارية للتعاويذ. كانت هذه دروسًا سمِعَتْها لونا ونَسِيَتها، لكنها الآن تذكَّرتْها وفهمتها.

نظرت إلى الطائر. نظر الطائر إليها. هدَّأت الطيور من حركة أجنحتها وانتظرت.

قالت لونا وهي ترفع يديها لأعلى: «جدتي!» ركزت كل حُبِّها وأسئلتها وعنايتها وقلقها وإحباطاتها وكل حزنها على الطائر الموجود على الأرض. المرأة التي أرضعتها. المرأة التي علمتها أن تُشَيِّد وتحلم وتصنع. المرأة التي لم تُجِب على أسئلتها؛ أو لم تستطع الإجابة عنها. تلك هي المرأة التي أرادت أن تراها. شعرت بأن عظام أصابع أقدامها بدأت تطن. سحرُها وتفكيرها ونواياها وأملها. كانت كلها الآن شيئًا واحدًا. سَرَت هذه القوة عبر عظام قصبتي ساقيها، ثم فخذَيها، ثم ذراعَيها. ثم أصابعها.

قالت لونا، آمرةً: «أظهِري نفسكِ.»

وفي تشابكٍ من الأجنحة والمخالب والأذرع والسيقان، ظهرت جدَّتها. ونظرت إلى لونا. اغرورقت عيناها بالدموع. وسال منهما الدمع.

همست: «حبيبتي.»

ثم ارتعشت زان، وتَلَوَّت، وسقطت على الأرض.

الفصل الرابع والأربعون

تبدُّل في المشاعر

انهارت لونا على ركبتَيها، وضمَّت جدَّتها بين ذراعَيها.

عجبًا! كم كانت خفيفة. مجرد أعواد وورق ورياح باردة. جدتها التي كانت إحدى قوى الطبيعة طوال هذه السنوات؛ التي كانت من دعائم الحياة. شعرت لونا بأنه يُمكنها حمل جدتها بين ذراعَيها والركض بها إلى البيت.

انتحبت، وهي تميل بخدِّها فوق خدِّ جدتها: «جدتي! استيقظي يا جدتي. أرجوكِ استيقظي!»

أطلقت جدتُها نفَسًا مرتعشًا.

قالت المرأة العجوز: «إنه سحرك. لقد بدأ، أليس كذلك؟»

قالت لونا، وفمُها لا يزال مطمورًا في شَعْر جدتها المُخضر: «لا تتكلَّمي عن ذلك. هل أنتِ مريضة؟»

قالت جدتها، وصدرها يُطلق صفيرًا وهي تتنفس: «لستُ مريضة. بل أُحتضَر. وهو ما كان يجب أن يحدُث منذ زمنٍ طويل.» سعلت وارتعشت وسعلت مرة أخرى.

شعرت لونا بشهقةٍ تشقُّ طريقَها من أمعائها إلى حلقها. «أنتِ لستِ تُحتضَرين، يا جدتي. لا يمكن أن تكوني كذلك. يُمكنني الحديث إلى غراب. والطيور الورقية تُحبني. وأظن أنني وجدت ... حسنًا. لا أعرف من تكون. لكنني أتذكَّرها. من قبل. وتوجد امرأة في الغابة حاولت ... حسنًا، لا أظن أنها طيبة.»

«أنا لا أُحتضَر في هذه اللحظة يا صغيرتي، لكنني سأموت عندما تحين ساعتي. وساعتي قريبة. أما الآن. بشأن سحركِ. يُمكنني أن أقول الكلمة وتظلَّ موجودة، صحيح؟»

أومأت لونا إيجابًا. «لقد حبستُهُ في مكانٍ ما بداخلكِ حتى لا تؤذي نفسكِ أو تؤذي مَن حولكِ؛ لأنكِ، صدقيني يا حبيبتي، كنتِ خطيرة، لكن كانت ثمَّة تبعات. دعيني أُخمِّن، إنه يخرج بالكامل في كل الاتجاهات، صحيح؟» أغمضت عينيها وقد تجهمت متأملةً.

«لا أريد أن أتحدَّث عن هذا يا جدتي، إلا إذا كان يمكن أن يجعلكِ تتعافين.» جلست الفتاة فجأة. «هل يُمكنني أن أجعلكِ تتعافين؟»

ارتعشت المرأة العجوز. وقالت: «أشعر بالبرد. أشعر ببردٍ شديد جدًّا. هل بزغ القمر؟»

«أجل، يا جدتي.»

«ارفعي يدكِ. ودعي ضوء القمر يتجمَّع على أصابعكِ وأطعميني منه. هذا ما فعلتُهُ لكِ، منذ زمنٍ طويل، عندما كنتِ رضيعة. عندما كنتِ مُلقاةً في الغابة وحملتكِ إلى الأمان.» توقفت زان ورفعت ناظِرَيها إلى المرأة الحليقة الرأس الجاثمة على الأرض. «ظننتُ أن أُمَّكِ قد تخلت عنكِ.» ضغطتْ بيدِها على فمِها وهزَّت رأسها ذهولًا. «لديكِ نفس الشامة» تلعثمت زان. وأضافت: «ونفس العينَين.»

أومأت المرأة الجاثمة على الأرض. وهمست: «لم أتخلَّ عنها. لقد أُخِذت منِّي بالقوة. رضيعتي أُخِذَت مني.» دفنت المرأة المجنونة وجهها بين ركبتَيها وغطَّت رأسها الحليق بذراعَيها. ولم تُصدِر أيَّ أصوات أخرى.

بدا وكأن وجه زان يتشقَّق. «نعم. أُدرك هذا الآن.» التفتت للونا. «كل عام، يُترَك رضيع في الغابة كي يلقى حتفه في البقعة نفسها. كل عام كنتُ أحمل ذلك الرضيع عبر الغابة إلى عائلةٍ جديدة ستُحبُّه وتُبقيه آمنًا. كان خطئي أنني لم أكن فضولية. كان خطئي الأكبر أنني لم أتساءل. لكن الحزن كان يُخيم على ذلك المكان كالغيمة. لذا كنتُ أرحل بأسرع ما بوسعي.»

ارتعشت زان وزحفت على يَدَيها وركبتَيها مقتربةً من المرأة الجاثمة على الأرض. لم ترفع المرأة رأسها. بحذرٍ شديدٍ وضعت زان يدَها على كتِفِ المرأة. «هل يُمكنكِ أن تُسامحيني؟»

لم تنطق المرأةُ المجنونة ببنت شفة.

همست لونا: «والأطفال في الغابة. هل هم «أبناء النجوم»؟»

«أبناء النجوم.» سعلت جدَّتها. «كانوا جميعًا مثلك. لكنك سُحِرْتِ. لم أقصد ذلك يا عزيزتي؛ كانت واقعة غيرَ مقصودة، لكن لم يكن من المُمكن إبطال ذلك. وقد أحببتكِ.

أحببتكِ حبًّا جمًّا. ولم يكن من الممكن إبطال ذلك. لذا دعوتكِ حفيدتي الغالية. وبعد ذلك بدأتُ أموت. ولا يمكن إبطال ذلك أيضًا، مهما كان الثمن. التبعات. الأمر كله يتعلق بالتبعات. لقد ارتكبتُ العديد من الأخطاء.» ارتعشت. «أشعر بالبرد. القليل من ضوء القمر يا عزيزتي لونا، إن كنتِ لا تُمانِعين.»

رفعت لونا يدَها عاليًا. تجمَّع ضوء القمر، الكثيف واللذيذ، على أنامِلِها. وانسكب من يدها إلى فمِ جدتها وتدفق عبر جسدها. بدأ خدَّا المرأة العجوز يتورَّدان. كان ضوء القمر يشعُّ من جلد لونا أيضًا، جاعلًا عظامها تتوهَّج.

قالت جدتها: «مساعدة ضوء القمر مؤقَّتة فقط. يَسري السحر ويتسرب خلالي مثل سلة بها ثقوب. وينجذب إليكِ. كل ما لديَّ، وكل ما أنا عليه، يتدفق إليكِ يا عزيزتي. هذا ما ينبغي أن يحدث.» التفتت ووضعت يدَها على وجه لونا. شبَّكَت لونا أصابعها بأصابع جدتها وتمسكت بها باستماتة. «خمسمائة سنة مدَّة طويلة جدًّا. هذا أكثر من اللازم. وأنتِ لديكِ أُمٌّ تُحبكِ. أمٌّ أحبَّتكِ طوال هذا الوقت.»

قال الرجل: «يا صديقتي.» كان ينتحِب ويذرف دموعًا كبيرةً قبيحة على وجهه المليء بالندوب. بدا غير مؤذٍ بما يكفي بعدما لم يعُد يحمل تلك السكين. لكن لونا ظلَّت تنظُر إليه بحذَر. زحف قُدُمًا وهو يمدُّ يده اليسرى.

قالت ببرود: «هذه مسافة كافية.»

أومأ موافقًا. قال مرةً أخرى: «يا صديقتي. يا من كنتِ سابقًا صديقي الطائر. أنا ...» ابتلع ريقَه، ومسح دموعه ومُخاطه بطرف كمِّه. «أعتذر إن بدا هذا وقحًا، لكن، أوه ...» خمد صوته. كان بوسع لونا أن تُوقِفه بصخرة، لكنها سرعان ما طردت هذه الفكرة عندما تدحرجت صخرة مُقتربةً وبدأت تحوم بطريقةٍ منذرة بالسوء.

حدقت في الصخرة بنظرةٍ ساخطة، قائلة في نفسها: «لا ضرب!» سقطت الصخرة على الأرض بصوتٍ مكتوم مَحزون وتدحرجت بعيدًا، وكأنها معاقَبة.

قالت لونا في نفسها: «سيتوجَّب عليَّ أن أكون حذرة.»

تابع الرجل وعيناه مُثبَّتتان على زان: «لكن، هل أنتِ «الساحرة»؟ «ساحرة» الغابة؟ تلك التي تُجبرنا على التضحية برضيعٍ كل عام وإلا فستُدمِّرنا جميعًا؟»

رمقته لونا بنظرةٍ باردة. «جدتي لم تُدمِّر أيَّ شيء قط. إنها طيبة ولطيفة وعطوفة. اسأل سُكَّان «المدن المستقلة» عنها. إنهم يعرفونها.»

قال الرجل: ««أحدٌ ما» يطلب تضحيةً. ليست هي.» وأشار للمرأة حليقة الرأس التي تجثم الطيور الورقية فوق كتفَيها. «أعرف ذلك جيدًا. كنتُ معها عندما أخذوا منها رضيعتها.»

تمتمت المرأة: «حسبما أتذكر، كنتَ أنت الشخص الذي نفَّذ الأمر بأخذ رضيعتي.»

أطرق الرجل في خِزي.

همست لونا: «لقد كنتَ أنت من فعل ذلك. أنا أتذكَّر. كنتَ مجرد طفل. وكانت تفوح منك رائحة نشارة الخشب. ولم تكن تُريد ...» صمتت. وعبست. «لقد أغضبتَ الرجال كبار السن.»

لهث الرجل قائلًا: «أجل.»

بدأت جدَّتُها في التحامُل على نفسها للنهوض، واحتضنتها لونا، مُحاوِلةً مُساعدتها. لكن زان أوقفتها بحركةٍ من يدِها .

«كفى، يا صغيرتي. ما زال بإمكاني النهوض بمفردي. لستُ عجوزًا لهذه الدرجة.»

لكنها كانت بالفعل عجوزًا جدًّا. بدا للونا أن جدَّتها هَرِمَت. لقد كانت زان عجوزًا دائمًا، بالطبع كانت كذلك. لكن الآن ... الآن كان الأمر مختلفًا. الآن بدا أنها تتيبَّس بسرعة هائلة. كانت عيناها غائرتَين ومظلمتَين. وكانت بشرتها بلون الغبار. جمعت لونا المزيد من ضوء القمر على أصابعها وشجَّعت جدتها على شربه.

نظرت زان إلى الشاب.

«ينبغي أن نتحرك بسرعة. لقد كنتُ في طريقي لإنقاذ طفلٍ منبوذ آخر. لقد اعتدتُ فعل ذلك لفترة طويلة جدًّا.» ارتعشتْ وحاولت أن تخطوَ خطوةً مهتزة. ظنت لونا أنها قد تسقط. «لا يُوجَد وقت للتدليل يا صغيرتي.»

لفَّت لونا ذراعها حول خصر جدتها. كان غرابها يجثم فوق كتفها. التفتت إلى المرأة الجاثمة على الأرض. ومدَّت لها يدَها.

قالت: «هل ستأتين معنا؟» وحبست أنفاسها ترقُّبًا. وشعرت بقلبِها يخفق بقوة في صدرها.

«المرأة على السقف

الطيور الورقية في نافذة البرج.

إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.»

رفعت المرأة الجاثية على الأرض ناظِرَيها والتقت عيناها بعيني لونا. أمسكت بيد لونا ونهضت واقفة. شعرت لونا بقلبِها يطير فرحًا. بدأت الطيور الورقية تطير وترفرف وترتفع في الهواء.

سمعت لونا وقع أقدام تقترب من الجهة البعيدة من الربوة قبل أن ترى عينَين مُتَّقدتَين. صوت خطوات نمِر. لكن لم يكن ثمة نمِر على الإطلاق. بل امرأة، طويلة وقوية، وكان جليًّا أنها تملك قوًى سحرية. وكانت قواها السحرية حادَّةً وقوية وعديمة الرحمة. مثل نصل سلاح مقوس. المرأة التي كانت قد طلبت الحذاء الطويل الرقبة. لقد عادت.

قالت زان: «مرحبًا يا «آكلة الحزن».»

الفصل الخامس والأربعون

التنين الهائل يتخذ قرارًا هائلًا

«جليرك!»

قال جليرك: «اصمت يا فيريان! أنا أسترق السمع!»

كانا قد شاهدا «آكلة الحزن» تشقُّ طريقها صاعدةً على جانب الربوة، وشعر جليرك وكأن دمَهُ تجمَّد من الذعر.

قال في نفسه: ««آكلة الحزن»! بعد كل هذه السنوات!»

بدت كما كانت تمامًا. ما الحِيَل التي أقدمت عليها؟

«لكن يا جليرك!»

«لا يُوجَد ولكن! هي لا تعرف أننا هنا. علينا أن نفاجئها!»

كان قد مضى زمنٌ طويل جدًّا على آخِر مرة واجَهَ فيها جليرك عدوًّا. أو فاجأ وغدًا شريرًا. فيما مضى، كان جليرك بارعًا في هذا. كان يمكنه أن يستخدم خمسة سيوف في آنٍ واحد ببراعة، بأياديه الأربعة وطرف ذيلِه، وكان قويًّا وضخمًا ورشيقَ الحركة لدرجة أن أعداءه كانوا يُلقون بأسلحتهم ويَطلبون هُدنة. كان جليرك يُفضل هذا؛ فقد كان مؤمنًا بأن العنف، على الرغم من كونه ضروريًّا في بعض الأحيان، شيءٌ فظٌّ وغير مُتحضر. كان المنطق والجمال والشعر والنقاش الحسَن أدواته المُفضلة لحلِّ النزاعات. كانت روح جليرك، في جوهرها، رائقةً وساكنة مثل أيِّ مُستنقع؛ يهَبُ الحياة ويدعمها. وفجأة افتقد المستنقع بشدة حتى كادت عزيمته تضعف.

قال في نفسه: «لقد كنتُ خامدًا. لقد حوَّلني حُبي لزان إلى بركان خامد. كان من المفترض بي أن ألعب دورًا في الحياة، لكنني لم أفعل. على الأقل منذ أزمنةٍ طويلة. يا للخِزي.»

«جليرك!»

رفع وحش المستنقع نظره. كان فيريان يطير. كان فيريان قد ظلَّ يزداد حجمًا وصار مُجددًا أكبر من آخِر مرة لَمَحَهُ فيها جليرك. لكن المذهل في الأمر، أنه مع زيادة حجم فيريان أكثر فأكثر، تمكَّن من استعادة قُدرته على استخدام جناحَيه وظل يحوم بالأعلى مُطلًّا من فوق قِمَم الأشجار.

صاح: «لونا هُنا. وهي مع ذلك الغراب المُمل. أنا أمقتُ ذلك الغراب. لونا تُحبني أكثر.»

اعترض جليرك، قائلًا: «أنتَ لا تكره أحدًا يا فيريان. هذا ليس من طبعك.»

«وزان هُناك. العمَّة زان! إنها مريضة!»

أومأ جليرك برأسه. ذلك ما كان يخشاه. لكنها على الأقل كانت في هيئتها البشرية. كان الأمر سيُصبح أسوأ لو أنها ظلت عالقة في الهيئة التي تحولت إليها، غير قادرة على توديعهم. «وماذا ترى أيضًا، يا صديقي؟»

«سيدةً. بل سيدتَين. ثمة سيدة تتحرك مثل النمر، وواحدة مختلفة. ليس لدَيها أي شعر. وهي تُحب لونا. يمكنني أن أرى ذلك من هنا. لماذا تُحب لونا؟ نحن الذين نحب لونا!»

«هذا سؤال جيد. كما تعلم، لونا بمثابة لغز غامض. وكذلك كانت زان، منذ وقتٍ طويل.»

«ويُوجَد رجل. والعديد من الطيور المُتجمِّعة على الأرض. أظن أنها، هي الأخرى، تحب لونا. جميعهم يُحدقون فيها. وعلى وجه لونا تعبير مفاده «هيا نثير مشاكل».»

أومأ جليرك برأسه الضخم. أغمض إحدى عينَيه ثم أغمض الأخرى وعانق نفسه بأذرعه الأربعة السميكة. قال: «حسنًا يا فيريان. أقترح أن علينا نحن أيضًا أن نُثير بعض المشاكل. أنا سأتولى الأرض، وأنت تتولى الجو.»

«لكن ماذا علينا أن نفعل؟»

«فيريان، لقد كنتَ مجرد تنينٍ صغير عندما حدث ذلك، لكن هذه المرأة الموجودة هُناك، والتي يُعرف عنها الشراهة والتجول خلسة، هي السبب في أن أُمَّك دخلت في البركان. إنها «آكلة الحزن». وهي تنشُر البؤس وتتغذَّى على الحزن؛ إنه أسوأ أنواع السحر. إنها السبب في أنكَ نشأت يتيمَ الأُم، والسبب في أن الكثير من الأمهات فقدنَ أطفالهن. أقترح أن نمنَعَها من التسبُّب في مزيدٍ من الحزن، ما رأيك؟»

كان فيريان قد حلق بالفعل، وأخذ يصرخ ويطلق ألسنة اللهب في سماء الليل المظلمة.

«الأخت إجنيشا؟» ارتبك أنتين. «ماذا تفعلين هنا؟»

همست المرأة صاحبة الطيور الورقية: «لقد عثرت علينا». قالت لونا في نفسها: «لا، هذه ليست مجرد امرأة. إنها أُمي. هذه المرأة أمي.» لم تكن تستوعب هذا. لكن في قرارة نفسها كانت تعرف أن هذا صحيح.»

التفتت زان إلى الشاب. «ألم تكن تُريد العثور على «الساحرة»؟ ها هي «الساحرة» التي كنتَ تبحث عنها، يا صديقي. أتدعوها الأخت إجنيشا؟» نظرت إلى الغريبة بنظرة مُتشكِّكة. «يا له من اسمٍ رائع! لقد عرفتُها باسمٍ آخر على الرغم من أنني كنتُ أدعوها الوحش عندما كنتُ طفلة. إنها تعيش على التغذِّي على أحزان «المحمية» منذ ... كَم من الزمن؟ خمسمائة عام. يا إلهي. هذا شيء يستحقُّ أن يُسجَّل في كتب التاريخ، أليس كذلك؟ عليكِ أن تفتخري كثيرًا بنفسكِ.»

عاينت الغريبة المشهد، وانطبعت ابتسامةٌ خفيفة على شفتَيها. قالت لونا في نفسها: ««آكلة الحزن»! يا له من اسمٍ بغيض لامرأةٍ بغيضة.»

قالت «آكلة الحزن»: «حسنًا، حسنًا، حسنًا. أيتها الصغيرة زان. لقد مرَّ زمن طويل جدًّا. ويؤسفني أن أقول إن السنوات لم تكن رحيمةً معكِ. وأنا مُمتنةٌ جدًّا من اندهاشكِ من مزرعة الحزن الصغيرة الخاصَّة بي. ثمة قوة هائلة في الحزن. من المؤسف أن زوسيموس العزيز عليكِ لم يتمكن مُطلقًا من ملاحظة ذلك. يا له من رجلٍ أحمق. أحمق صار في عداد الأموات الآن، هذا الرجل البائس. مثلما سيكون مصيركِ قريبًا يا عزيزتي زان. كما كان ينبغي أن تكوني منذ سنوات.»

كان سحر المرأة يُحيط بها مثل الدوَّامة، لكن كان بوسعِ لونا أن ترى حتى من هذه المسافة البعيدة أنَّ مركز تلك الدوامة كان فارغًا. كانت آخِذةً في النضوب، مثل زان. ومع عدم وجود مصدرٍ جاهز للحُزن في الجوار، لم تكن تملك ما تُعيد به حالتها إلى ما كانت عليه.

فكَّت لونا ذراعها من جدتها وخطت نحو الأمام. انفرطت خيوطٌ من السحر من المرأة الغريبة وانطلقت نحو لونا وسِحرها القوي. لم يبدُ أن المرأة قد لاحظت ذلك.

«والآن ما كل هذه السخافة بشأن إنقاذ ذلك الطفل؟»

جاهد أنتين للنهوض على قدمَيه، لكن المرأة المجنونة وضعت يدَها على كتفِهِ ومنعته.

تمتمت المرأة المجنونة، وهي تغمض عينيها: «إنها تُحاول اجتذاب حُزنك. لا تدعها تفعل ذلك. فلتشعُر بالأمل بدلًا من ذلك. فلتشعر بالأمل دون توقف.»

تقدمت لونا خطوةً أخرى. شعرت أن المزيد من سحر المرأة الطويلة يتركها ويتجه نحوها.

قالت «آكلة الحزن»: «يا لكِ من مخلوقةٍ فضولية. كنتُ أعرف مخلوقةً فضوليةً أخرى. منذ زمن طويل. كانت تسأل العديد من «الأسئلة» اللَّعينة. لم أحزن عندما ابتلَعَها البركان.»

قالت زان، وصفيرٌ يَصدُر من صدرها وهي تتنفَّس: «لكنه لم يبتلِعها.»

قالت الغريبة بتهكم: «كان ينبغي أن يبتلِعها. انظري إلى حالكِ. عجوز. هَرِمة. ماذا فعلتِ بحياتكِ؟ لا شيء! والقصص التي يحكونها عنكِ! ستصدمكِ» — ضيقت عينيها — «لكن لا أظنُّ أنكِ ستتحمَّلين تلك الصدمة.»

تركت المرأة المجنونة أنتين وتحركت نحو لونا. كانت خطواتها مُتعثرة وبطيئة، وكأنها تتحرك في حلم.

قال أنتين: «أخت إجنيشا! كيف جَرُؤْتِ؟ «المحمية» تنظر إليكِ باعتبارك صوت العقل والتعليم.» تلعثم. ثم أردف: «رضيعي يواجِهُ الحكماء. ابني. وإيثين، التي اعتنيتِ بها مثل ابنتك! هذا سيُصيبها بصدمةٍ تدمرها.»

استشاطت الأخت إجنيشا غضبًا. وقالت: «لا تذكر اسم ناكرة الجميل هذه أمامي. بعد كل ما فعلتُه من أجلها.»

همست المرأة المجنونة في أذن لونا: «لا يزال يُوجَد بداخلها جانب إنساني.» ووضعت يدَها على كتف لونا. فجاش شيء ما بداخل لونا. كان ذلك كل ما يُمكنها فعله كي تجعلها تتصرف بعقلانية. «لقد سمعتُها، في «البرج». كانت تسير أثناء نومها، ترثي شيئًا فقدَتْه. دائمًا ما كانت تنتحِب وتذرف الدموع وتشتكي. وعندما تستيقظ، لا تتذكر شيئًا من ذلك. إن هذا محجوب بحواجز بداخلها.»

كانت لونا تعرف القليل عن هذا. حولت انتباهها إلى الذكريات المحتجزة بداخل «آكلة الحزن».

سارت زان للأمام وهي تعرج.

قالت المرأة العجوز، وقد انفرج فمها الواسع عن ابتسامةٍ خبيثة: «لعلمكِ، لم يمت الأطفال الرضع.»

ضحكت الغريبة بسخرية. وقالت: «لا تكوني سخيفة. بالطبع ماتوا. قد يكونون ماتوا جوعًا أو عطشًا. وفي الحالتَين ستأكلهم الحيوانات المفترسة. كان هذا هو مربط الفرس.»

تقدمت زان خطوةً أخرى للأمام. حدَّقت في عيني المرأة الطويلة، وكأنها تنظر بداخل نفق طويل مظلم أمامه صخرة. نظرت إليها شزرًا. «أنتِ مخطئة. لا يمكنكِ رؤية ما يجري خارج غيمة الحزن التي صنعتِها. ومثلما وجدتُ صعوبةً في النظر إلى ما بداخل تلك الغيمة، لم تتمكني من رؤية ما يجرى خارجها. طوال كل هذه السنوات كنتُ أتسكع أمام عتبتكِ، وأنتِ لا تدرين شيئًا عن هذا. أليس هذا مضحكًا؟»

قالت الغريبة، وهي تزمجر بعمق: «لا يُوجَد شيء من هذا القبيل. هذا محض هراء. لو كنتِ اقتربتِ من «المحمية»، كنت سأعرف.»

«لا يا سيدتي العزيزة. لم تعرفي. بالضبط مثلما لا تعرفين ما حدث للأطفال الرضع. كل عام، كنت آتي إلى حافة هذا المكان المُوغِل في الحزن. كل عام، كنتُ أحمل طفلًا معي عبر الغابة إلى «المدن المستقلة»، وهناك، كنتُ أترك الطفل مع أُسرة مُحبة. ومن المخزي، أن الأسرة الأصلية كانت تحزن دون داعٍ. وكنتِ أنتِ تتغذَّين على هذا الحزن. لن تتغذي على حزن أنتين. أو حزن إيثين. سيعيش الرضيع مع والدَيه، وسيكبر ويترعرع. وفي واقع الأمر، عندما كنتِ تطوفين الغابة، كانت غيمة الحزن التي صنعتِها قد انقشعت بالفعل. «المحمية» الآن تعرف معنى الحرية.»

شحب وجه الأخت إجنيشا. وقالت: «أكاذيب»، لكنها تعثرت وجاهدت لتقف منتصبة. «ما الذي يحدث؟» شهقت.

نظرت لونا بتركيز. كانت الغريبة قد استنزفت معظم قواها السحرية باستثناء البقايا الأخيرة. نظرت لونا بتعمُّق أكبر. وهناك، في الموضع الذي كان من المفترض أن يكون فيه قلب «آكلة الحزن»، كانت تُوجَد كرة صغيرة؛ كرة صلبة ولامعة وباردة. لؤلؤة. على مدى السنوات، كانت قد عزلت قلبها، مرةً تلوَ أخرى، جاعلةً إياه أملسَ ولامعًا وعديم الشعور. ومن المُحتمل أنها أخفت أشياء أخرى هناك أيضًا؛ كالذكريات والأمل والحب، وهي المشاعر الإنسانية الأساسية. ركزت لونا، فمكَّنَتْها مهارتها في الملاحظة من النظر للداخل واختراق بريق اللؤلؤة.

ضغطت «آكلة الحزن» بيدِها على رأسها. «أحدهم يأخُذ سحري. أهو أنتِ أيتها العجوز؟»

قالت المرأة المجنونة، وهي تخطو لتقف بجوار زان، وتحيط المرأة العجوز بذراعها كي تُبقِيَها واقفةً، وترمق الأخت إجنيشا بنظرةٍ حادة: «أي سحر؟ لا أرى أي سحر.» ثم التفتت إلى زان، قائلة: «إنها تختلق أشياء، كما تعلمين.»

«اصمتي أيتها الحمقاء! أنت لا تعرفين ما تتحدثين عنه.» ترنحت الغريبة، وكأن قدمَيها تحولتا فجأة إلى عجين.

قالت زان: «عندما كنتُ فتاةً صغيرة في القلعة، كنتِ تأتين كل ليلة لتتغذَّي على الحزن الذي كان يتسرب من تحت بابي.»

قالت المرأة المجنونة: «كل ليلة في «البرج»، كنتِ تمضين من زنزانة إلى أخرى، بحثًا عن الحزن. وعندما تعلمتُ أن أكبتَ حُزني، وأن أقمعه بداخلي، كنتِ تزمجرين وتعوين.»

قالت «آكلة الحزن» بصوتٍ كالنعيق: «أنتما تكذبان.» لكنهما لم تكونا كذلك؛ فقد تمكنت لونا من رؤية الجوع الرهيب بداخل «آكلة الحزن». تمكنت من رؤية أن «آكلة الحزن»، حتى في اللحظة الراهنة، كانت تُفتِّش باستماتة عن أصغر مقدارٍ من الحزن. أي شيء تملأ به الفراغ المظلم بداخلها. «أنتم لا تعرفون أي شيء عني.»

لكن لونا كانت تعرف. بعين عقلها، تمكنت لونا من رؤية القلب، الذي تحوَّل إلى لؤلؤة، طافيًا في الهواء بينهما. كان مُخَبَّأً منذ زمنٍ طويل لدرجة أن لونا شكَّت في أن آكلة الحزن قد نسِيَت وجوده من الأساس. قلبته يمينًا ويسارًا، باحثةً عن شقوقٍ أو فتحات. كانت توجد فيه ذكرى. حبيب. فراق. سيل من الأمل. وهاوية سحيقة من اليأس. كم من المشاعر يمكن للقلب الواحد أن يحمل؟ نظرت إلى جدتها. ونظرت إلى أُمِّها. وإلى الرجل الذي يحمي أسرته. قالت لونا في نفسها: «عدد لا نهائي. مثلما الكون لا نهائي.» إنه نور وظلمة وحركة لا نهاية لها؛ إنه زمان ومكان، ومكان داخل مكان، وزمان داخل زمان. وقد علمت أنه «لا حدَّ لما يمكن للقلب أن يحمل.»

قالت لونا في نفسها: «من المُريع أن ينفصل المرء عن ذكرياته. ما أعرفه هو اللحظة الحالية. هُنا. دعيني أساعدكِ.»

ركزت لونا. انشرخت اللؤلؤة. اتسعت عينا «آكلة الحزن» بشكلٍ مُرعب.

قالت زان: «بعضنا يُفَضِّل الحبَّ على القوة. مُعظمنا بالفعل يُفَضِّل هذا الاختيار.»

ركزت لونا انتباهها على الشرخ. وبحركةٍ خفيفة من رسغها الأيسر، فتحته عنوة. واندفع الحزن للخارج.

قالت «آكلة الحزن»، وهي تضغط بيدَيها على صدرها: «آه!»

أتى صوت من الأعلى: «أنتِ!»

نظرت لونا لأعلى وشعرت بصرخةٍ تندفع في حلقها. رأت تنينًا ضخمًا يُحلق فوق رأسها مباشرةً. حَلَّق في حركة دوَّامية، وأخذ يقترب أكثر فأكثر من المنتصف. وأطلق ألسنة اللهب في السماء. بدا مألوفًا، بطريقةٍ أو بأخرى.

«فيريان؟»

شقت الأخت إجنيشا صدرها. تسرَّب الحزن إلى الأرض.

«يا ويلي. لا، لا، لا.» امتلأت عيناها بالدموع. وغصَّت بالبكاء في حلقها.

صاح «التنين شبيه فيريان»: «أُمِّي ... أُمي ماتت وهذا خطؤكِ.» هبط التنين لأسفل منزلقًا إلى أن توقف، مثيرًا بذلك وابلًا من الحصى في جميع الاتجاهات.

تمتمت آكلة الحزن، وهي بالكاد ترى التنين الهائل وهو ينقضُّ عليها: «أُمي. أُمِّي وأبي وأخواتي وإخوتي. قريتي وأصدقائي. جميعهم ماتوا. ولم يبقَ إلا الحزن. الحزن والذكرى، الذكرى والحزن.»

جذب التنين، الذي ربما كان فيريان، «آكِلَة الحزن» من خصرها، وحملها عاليًا. تيبَّست المرأة كالدمية.

قال التنين: «لا بدَّ أن أحرقكِ!»

«فيريان!» كان جليرك يركض صاعدًا الجبل، بسرعةٍ أكبر من السرعة التي كانت لونا تتخيل أن بإمكانه أن يتحرك بها. «فيريان، أنزِلْها في الحال. أنت لا تعي ما تفعله.»

قال: «بلى، أعيه. إنها شريرة.»

صرخت لونا، وهي تتعلق بقدَمِ التنين: «فيريان، توقف!»

بكى فيريان: «اشتقتُ إليها. أمي. اشتقت إليها كثيرًا. لا بدَّ أن تدفع هذه الساحرة ثمن ما اقترفته يداها.»

كانت قامة جليرك عاليةً كالجبل. وكان هادئًا كالمستنقع. نظر إلى فيريان بكل الحب الذي يحويه العالم. وقال: «لا، يا فيريان. رد الفعل هذا سهلٌ للغاية يا صديقي. فكر من منظور أعمق.»

أغمض فيريان عينَيه. لم يُنزِل آكلة الحزن. سالت دموع هائلة من أسفل جفنيه المشدودَين وتساقطت في هيئة كُتَل ينبعث منها البخار على الأرض.

نظرت لونا بتعمُّق أكبر، مُتخطيةً طبقات الذكرى التي أحاطت بالقلب الذي تحول إلى لؤلؤة. ما رأته أذهلها. همست لونا: «لقد حجبت حزنها. أخفته وضغطته في حيزٍ أضيق أكثر فأكثر. وكان صلبًا وثقيلًا وكثيفًا لدرجة أنه جعل النور ينحني من حوله. وابتلع كل شيء بداخله. حُزن يبتلع حزنًا. باتت شرهة للحزن. وكلما تغذَّت عليه، ازداد احتياجها إليه. وبعد ذلك اكتشفت أنها يمكنها تحويله إلى قوةٍ سحرية. وتعلمت كيفية زيادة الحزن حولها. كانت تزرَعُ الحزن كما يزرع المزارع القمح ويربي الماشية من أجل اللحم والحليب. وكانت تلتهم البؤس التهامًا.»

نشجت «آكلة الحزن». تسرَّب حزنها من عينَيها وفمها وأُذنَيها. كان سحرها قد انتهى. كان الحزن الذي جمعته ينفد. وعما قريب لن يتبقَّى منه أيُّ شيء على الإطلاق.

اهتزت الأرض. وتصاعدت أعمدة دخان هائلة من فوهة البركان. انتفض فيريان. قال فيريان، بصوتٍ يتشنج في حلقه: «ينبغي أن أُلقيكِ في البركان جزاءً لما فعلتِ. ينبغي أن ألتهمكِ بقضمةٍ واحدة ولا أفكر فيكِ مُجددًا. تمامًا كما لم تفكري في أُمِّي مجددًا.»

قالت زان، وهي تمدُّ ذراعَيها: «فيريان. عزيزي الغالي فيريان. تنيني الهائل.»

بدأ فيريان يبكي من جديد. وأطلق سراح «آكلة الحزن»، التي سقطت متكومةً فوق الصخور. نشج: «عمتي زان! تموج في قلبي مشاعر كثيرة جدًّا.»

«بالطبع، يا عزيزي.» أشارت زان للتنين بالاقتراب أكثر. وضعت يدَيها على خدَّيه المتضخِّمين وقبَّلَت أنفَهُ الهائل. «أنت تملك قلبَ تنين هائل. ودائمًا ما كنتَ تملكه. ثمة أشياء يتعيَّن فعلها مع «آكلة الحزن»، لكن البركان ليس واحدًا منها. وإذا أكلتَها فستُصاب بألمٍ في معدتك. لذا لا تفعل.»

أمالت لونا رأسها جانبًا. كان قلب «آكلة الحزن» مُمزقًا إربًا. لن تتمكن من إصلاحه بدون السحر، والآن سحرها قد اختفى. وفي الحال تقريبًا، بدأت «آكلة الحزن» تشيخ.

اهتزت الأرض مرةً أخرى. تلفَّت فيريان حوله. «الأمر لا يقتصر على القمة فحسب. المنفسات الحرارية مفتوحة. وسيكون الهواء مُضرًّا بصحة لونا. وبالجميع أيضًا، على الأرجح.»

نظرت المرأة الحليقة الرأس، أي المرأة المجنونة (قالت لونا في نفسها: «لا. ليست «المرأة المجنونة». إنها أمي. إنها أمي.» وقْعُ الكلمة على نفسها جعلها ترتعش) إلى الحذاء طويل الرقبة وابتسمت. قالت: «يُمكن لحذائي أن يأخذنا إلى المكان الذي نريد الذهاب إليه في لمح البصر. لنُرسِل الأخت إجنيشا والوحش مع التنين. سأضع بقيتكم على ظهري، وسأركض إلى «المحمية». علينا أن نُحذِّرهم من البركان.»

توارى القمر. واختفت النجوم. وغطى دخانٌ كثيفٌ السماء.

قالت لونا في نفسها: «أُمِّي! هذه أمي. المرأة على السقف. اليدان في نافذة «البرج». إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.» كان قلب لونا يحمِل حبًّا لا حدَّ له. صعدت لونا على ظهر أُمِّها ووضعت خدَّها على رقبتها وأغمضت عينَيها جيدًا. رفعت أمُّ لونا زان برفقٍ قدْر الإمكان، وأمرت أنتين ولونا أن يتشبَّثا بكتِفَيها، بينما تشبَّث الغراب بلونا.

صاحت لونا في فيريان: «تعامل مع جليرك بحرص.» أمسك التنين «آكلة الحزن» في يدَيه، وهو يَمُدهما بعيدًا عن جسمه قدر الإمكان، وكأنه يراها مقززة. تشبث الوحش بظهره، تمامًا كما كان فيريان يتشبث بظهر جليرك لسنوات.

قال فيريان بتكلف: «دائمًا ما أتعامل مع جليرك بحرص. إنه رقيق جدًّا.»

اهتزت الأرض. حان وقت الرحيل.

الفصل السادس والأربعون

التئام شمل العديد من العائلات

رأى سكان «المحمية» سحابةً من الغبار والدخان آتيةً مسرعةً نحو أسوار المدينة.

صرخ أحد الرجال: «إنه البركان! البركان قادم! وهو قادم من هذه الجهة!»

قالت إحدى النساء، مُعترضة: «لا تكن سخيفًا. البركان لا يتحرك. إنها «الساحرة». إنها آتية إلينا أخيرًا. كنا نعرف أنها ستأتي.»

«هل رأى أحدٌ آخَر طائرًا عملاقًا يقترب يُشبه التنين نوعًا ما؟ مع أن هذا محال، بالطبع. فلم تعُد التنانين موجودة. أليس كذلك؟»

انزلقت المرأة المجنونة حتى توقفت تمامًا عند الجدار، تاركةً أنتين ولونا يسقطان من فوق ظهرها. لم يُضيِّع أنتين الوقت، وعبَر على الفور بوابات «المحمية» ركضًا. بقيت لونا بينما كانت المرأة المجنونة تضع زان على الأرض وساعدتها على الوقوف.

قالت المرأة المجنونة: «هل أنتِ على ما يُرام؟» أخذت عيناها تتحركان في جميع الاتجاهات، دون أن يستقر نظرُها مطولًا في مكان بعينِه مطلقًا. تكرَّرت على وجهها سلسلة من عشرات التعبيرات، واحدًا تلو الآخر. كان بوسع لونا أن تلاحظ أنها كانت مجنونةً بعض الشيء. أو ربما لم تكن مجنونةً على الإطلاق، وإنما مُحطَّمة. وفي بعض الأحيان يمكن إصلاح الأشياء المحطمة. أمسكت بيد أُمِّها، متمنيةً ذلك.

قالت لونا: «يلزمُني أن أصعد إلى مكانٍ عالٍ. أنا بحاجة إلى أن أصنع شيئًا سيحمي المدينة وأهلها عندما ينفجر ذلك الشيء.» أشارت بذقنها إلى قمة البركان التي كان يتصاعد منها الدخان، وانقبض قلبها قليلًا. فكرت في بيت الشجرة الخاصة بها. وفي حديقتهم. والدجاج والماعز. ومستنقع جليرك الجميل. كل هذا سيزول في بضع دقائق، هذا إن لم يكن قد ضاع بالفعل. التبعات. كل شيء كان تبعات.

قادت المرأة المجنونة لونا وزان إلى البوابات وصعدنَ إلى أعلى سور المدينة.

كانت أمُّها تملك قوةً سحرية. كان بوسع لونا الشعور بذلك. لكنها لم تكن مُماثِلة لقوة لونا السحرية. كان سحر لونا ممزوجًا بكلِّ عَظْمةٍ وكلِّ نسيجٍ وكلِّ خلية. أما سحر أمها، فكان أشبه بمجموعةٍ من الحُلِي الرخيصة التي تُرِكت في سلَّةٍ بعد رحلةٍ طويلة؛ قطع من هنا وهناك يتصادم بعضها ببعض. ومع ذلك، استطاعت لونا أن تشعر بسحر أُمِّها — وكذلك بشوق أُمِّها وحُبِّها — يطنُّ تحت جلدها. كان يُحفِّز القوة التي كانت تتعاظم بداخلها، ويُوجِّهُ السحر المُتصاعِد. أمسكت لونا يدَ أُمِّها بإحكامٍ أكثر قليلًا.

هبط فيريان وجليرك، و«آكِلة الحزن»، التي فقدت وعْيَها تقريبًا، بجوارهن.

صرخ سكان «المحمية» وركضوا مُبتعِدين عن السور، حتى بعدما صاح فيهم أنتين قائلًا إنه لا يُوجَد ما يخافون منه. نظرت زان إلى القمة التي يتصاعد منها الدخان. وقالت مُتجهِّمة: «ثمة الكثير من الأشياء المخيفة. لكننا لسنا مبعث خوف.»

اهتزَّت الأرض.

نادى أنتين على إيثين.

ونادى فيريان على زان.

قال الغراب: «كاو، كاو، كاو.» وكان يعني: «لونا، لونا، لونا.»

صاح جليرك في الجميع طالبًا منهم التزامَ الصمتِ كي يُمكنه التفكير.

انبعث من البركان عمودٌ من النار والدخان، فقد لفظت الأرض الطاقة الكامنة بداخلها أخيرًا.

همست لونا: «هل يُمكننا إيقافه؟»

قالت زان: «لا. لقد سبق إيقافه، منذ زمنٍ طويل، لكن ذلك كان خطأً. فقد مات رجل صالح هباءً. وكذلك تنينةٌ صالحة. البراكين تثور والعالَم يتغيَّر. هذه هي طبيعة الأمور. لكن يمكننا حماية الناس. لا يُمكنني أن أفعل هذا بمفردي، فلم أَعُد قادرةً على هذا، وأشك في أنه يُمكنكم فعله بمفردكم. لكن معًا.» نظرت إلى والدة لونا. «معًا، أظنُّ أننا نستطيع.»

«لا أعرف كيف يا جدتي.» حاولت لونا كبح نشيجها. كان يُوجَد العديد من الأشياء الواجب معرفتها، ولم يكن يُوجَد وقتٌ كافٍ لتعرفها. أمسكت زان بيد لونا الأخرى. «هل تتذكرين عندما كنتِ فتاةً صغيرة، وعلمتُك كيفية عمل فقاعات حول الأزهار، لتحفظها بالداخل؟»

أومأت لونا بالإيجاب.

«تعالي. العقل ليس مصدر جميع المعارف. بل مصدرها أيضًا جسمكِ، وقلبكِ، وحدسكِ. وأحيانًا حتى الذكريات تعمل باستقلالية. كانت الأزهار آمنة بداخل تلك الفقاعات التي صنعناها، أتذكرين؟ اصنعي فقاعات. فقاعات داخل فقاعات. فقاعات من السحر. وفقاعات من الثلج. وفقاعات من الزجاج والحديد وضوء النجوم. وفقاعات من المستنقع. المادة أقل أهمية من الغرض الذي نَستخدمها لأجله. أَعمِلي خيالَكِ وتخيَّلي كل فقاعة. حول كل منزل، وكل حديقة، وكل شجرة، وكل مزرعة. حول المدينة بالكامل. وحول بلدات «المدن المستقلة». فقاعات وفقاعات وفقاعات. تُحيط. وتحمي. سنستخدم سحركِ، ثلاثتنا معًا. أغمضي عينيكِ وسأريكِ ما يجب عليكِ فعله.»

عندما شبَّكت أصابعها مع أصابع أُمِّها وجدَّتِها، شعرت لونا بشيءٍ في عظامها؛ هبَّة من الحرارة والنور، تسري من لُب الأرض إلى عنان السماء ثم تعود إلى لُب الأرض، وهكذا دواليك. السحر. ضوء النجوم. ضوء القمر. الذكرى. كان قلبها يحمل الكثير من الحب، وقد بدأ يفيض. مثل البركان.

تصدع الجبل. وأمطرت السماء نارًا. وأظلمت السماء من أثر الرماد. توهَّجت الفقاعات بالحرارة وارتجَّت تحت وطأة الرياح والنيران والغبار. تماسكَت لونا بكلِّ ما أوتِيَت من قوة.

بعد مرور ثلاثة أسابيع، كان صعبًا على أنتين أن يتعرَّف على موطنه. كان لا يزال يوجَد الكثير من الرماد. كانت الحجارة وبقايا الأشجار المحطَّمة تُغطي شوارع «المحمية». حملت الرياح الرماد البركاني ورماد حرائق الغابات والرماد الذي لم يرغب أحدٌ في التعرُّف على مصدره لأسفل منحدر الجبل ورسَّبَته في الشوارع. وخلال النهار، كانت الشمس تتسلَّل بشقِّ الأنفس من خلال الضباب الدُّخاني، وفي الليل ظلت النجوم والقمر غير مرئيَّين. بعثت لونا بأمطارٍ كي تغسل «المحمية» والغابة والجبل المدمَّر، وهو ما ساعد على تنقية الهواء قليلًا. ومع ذلك، كان لا يزال يُوجَد الكثير مما يتعيَّن فعله.

ابتسم الناس بأمل، رغم الفوضى. أُودِع أعضاء مجلس الحكماء في السجن، وانتُخِب أعضاء المجلس الجديد عن طريق إجراء التصويت الشعبي. أصبح اسم جيرلاند إهانة دارجة. أدار وين مكتبة «البرج» التي رحَّبت بجميع الزوار، وعُنِي بها. وأخيرًا، فُتِح «الطريق»، وهو ما سمح لمواطني «المحمية»، لأول مرة في حياتهم، بالمغامرة بالخروج. ولكن لم يفعل الكثيرون ذلك. ليس في بادئ الأمر.

وسط هذه التغييرات، وقفت إيثين، بكل عقلانية وتمكُّن، وفي يدِها كوب شاي ساخن وابنها يتشبث بصدرها. احتضن أنتين عائلته بقوة. تمتم في نفسه: «لن أترككم مرةً أخرى أبدًا. أبدًا أبدًا أبدًا.»

نُقِلَت زان و«آكلة الحزن» إلى جناح المستشفى في «البرج». وبمجرد أن عِلم الناس بما فعلته الأخت إجنيشا، تعالت دعوات بسجنِها، لكن مع كل دقيقةٍ كانت تمضي، كانت جذوة الحياة التي امتدَّت طويلًا جدًّا في المرأتَين تضمحلُّ شيئًا فشيئًا.

قالت زان في نفسها: «عما قريب، سيطرق الموت بابي. في أي لحظة.» لم تكن تخشى الموت. لم تكن تشعر بالخوف من الموت. كانت فقط تشعر بالفضول. لم يكن لدَيها أدنى فكرة عما كانت تفكر فيه «آكلة الحزن».

نقلت إيثين وأنتين لونا وأُمَّها إلى غرفة الرضيع، وأكدا لهما أن لوكين لم يكن يحتاج إلى غرفةٍ خاصة به، وعلى أي حال لم يكن بوسعهما أن يحتملا الافتراق عنه ولو للحظة.

حولت إيثين الغرفة إلى مكانٍ للاستشفاء للأم وابنتها. أسطح ناعمة. ستائر سميكة من أجل الأيام التي لا يكون فيها ضوء النهار مُحتملًا. أزهار جميلة في المزهريات. وورق. الكثير من الورق (على الرغم من أنه دائمًا ما كان يبدو أنه يُوجَد المزيد، والمزيد، والمزيد). عمدت المرأة المجنونة إلى الرسم. أحيانًا كانت لونا تساعدها. وصفت لها إيثين الحساء وبعض الأعشاب العلاجية والراحة. وحُبًّا لا ينتهي. كانت على أتمِّ استعدادٍ لتقديم كُل الحُب.

وفي الوقت نفسه، كرَّست لونا نفسها لاكتشاف اسمِ أُمِّها. مضت من بيتٍ لآخر، تسأل أي شخصٍ يوافق على التحدُّث إليها؛ ولم يفعل الكثيرون ذلك في البداية. لم يُحِبَّها سكان «المحمية» حبًّا مطلقًا مثلما كان يفعل سكان المدن المستقلة. وهو ما كان، بصراحة، صادمًا بعض الشيء.

قالت لونا في نفسها: «سيستغرق الاعتياد على هذا بعض الوقت.»

بعد أيامٍ من السؤال، وأيامٍ من البحث، عادت إلى أُمِّها وقت العشاء، وجثت عند قدمَيها.

قالت: «أديرا.» أخرجت دفترها وجعلت أُمَّها ترى الرسومات التي رسمتها، قبل أن تلتقيا. المرأة على السقف. والرضيعة بين ذراعَيها. برجٌ تمتدُّ من نوافذه يد. طفلة في دائرة

من الأشجار. «اسمكِ أديرا. لا بأس إذا لم تتذكَّريه. سأظلُّ أُكرِّرُه حتى تتذكريه. ومثلما تشتت عقلكِ في كل الاتجاهات، مُحاولًا العثور عليَّ، كان قلبي يهيمُ بحثًا عنكِ. انظري هُنا. بلغ بي الأمر أنني رسمتُ خريطة. إنها هُنا، إنها هُنا، إنها هُنا.» أغلقت لونا الدفتر ونظرت إلى وجه أديرا. «أنتِ هُنا، أنتِ هُنا، أنتِ هُنا. وأنا كذلك.»

لم تنبس أديرا ببنت شفة. وضعت يدَها فوق يدِ لونا. وثنت أصابعها على راحة يد الفتاة.

ذهبت لونا وإيثين وأديرا لزيارة كبير الحكماء السابق في السجن. كان شَعْر أديرا قد بدأ ينمو. التفَّ شعرها حول وجهها في خصلاتٍ سوداء كبيرة معقوفة أبرزت عينَيها السوداوَين الواسعتَين.

عبس جيرلاند وهنَّ يدخلن. وقال لِلُونا مُتجهمًا: «كان ينبغي أن أُغرقكِ في النهر. لا تظني أنني لم أتعرف عليكِ. بل أعرفكِ. لقد طارَدَني كلُّ واحدٍ منكم في أحلامي أيها الأطفال الكريهون. كنتُ أراكم تكبرون وتكبرون مع أني كنتُ أعرف أنكم قد متُّم.»

قالت لونا: «لكننا لم نمُت. لم يمُت أيٌّ منَّا. لعل هذا ما كانت تُخبرك به أحلامك. ربما عليك أن تتعلم أن تُنصت.»

قال: «لست مُنصتًا إليكِ.»

جثت أديرا بجوار الرجل المُسن. ووضعت يَدها على ركبتِه. «لقد قال المجلس الجديد إنه يمكن العفو عنك حالما تكون مُستعدًّا للاعتذار.»

قال كبير الحكماء: «إذن، سأبقى هُنا حتى أتعفَّن. أعتذِر؟ يا لها من فكرة سخيفة!»

قالت إيثين بلُطف: «سواء اعتذرتَ أم لا، فهذا لا يُهم. أنا أسامحك يا عمِّي. من كل قلبي. وكذلك زوجي. ومع ذلك، عندما تعتذِر، ربما تبدأ في مُعالجة نفسك. الاعتذار ليس من أجلنا. إنه من أجلك. وأنا أنصح به.»

قال جيرلاند، بتهدُّج ضئيلٍ في صوته: «أودُّ أن أرى ابن أختي. أرجوكِ. أخبريه أن يأتي ويراني. أتوقُ إلى رؤية وجهه العزيز.»

سألته إيثين: «هل ستعتذِر؟»

قال جيرلاند، ورذاذ يتطاير من فمه: «أبدًا.»

قالت إيثين: «هذا مؤسِف. وداعًا، يا عمي.»

وغادرنَ دون أن ينطقنَ بكلمةٍ أخرى.

وظل كبير الحكماء على موقفه. بقي في السجن بقية حياته. وفي النهاية، توقف الناس عن زيارته، وتوقفوا عن ذكره، حتى على سبيل المزاح. وبمرور الوقت، نسوه تمامًا.

استمرَّ حجم فيريان في الازدياد. كل يوم، كان يَطير فوق الغابة ويُخبر عما رآه. «اندثرت البحيرة، امتلأت بالرماد. واختفت الورشة. وكذلك منزل زان. والمُستنقع. «المدن المستقلة» لا تزال موجودة. لم يمسَسْها سوء.»

زارت لونا «المدن المستقلة»، مدينة تلوَ أُخرى، مُمتطيةً ظهر فيريان. ومع أن السكان كانوا فرحين برؤية لونا، صُدموا لعدم رؤية زان وجزعوا لدى سماع أخبار مرضها، وتألم أهل «المدن المستقلة» كلهم لذلك. لم يكونوا واثقين من التنين، ولكن عندما رأوا كم هو لطيف مع الأطفال، اطمأنُّوا قليلًا.

روت لهم لونا حكاية مدينةٍ كانت تقعُ تحت سيطرة «ساحرة» فظيعة، حبستهم تحت سحابةٍ من الحزن. حكت لهم عن الأطفال. وعن «يوم التضحية» المريع. وعن «الساحرة» الأخرى، التي وجدت الأطفال في الغابة وأخذتهم للأمان، وهي لا تعلم بالأهوال التي أدَّت بهم إلى هذا المأزِق أصلًا.

صرخ مواطنو المدن المستقلة: «يا للهول! يا للهول، يا للهول، يا للهول!»

وقبض أهل أطفال النجوم على أيدي أبنائهم وبناتهم بإحكامٍ أكثر قليلًا.

أوضحت لونا: «لقد أُخِذتُ من أُمِّي. ومثلكم، جُلبتُ إلى أسرةٍ تُحبني وأُحبُّها. لا يمكنني التوقف عن حُب هذه الأسرة، ولا أريد ذلك. يمكنني فقط أن أزيد مقدار حبي.» وابتسمت. «أحبُّ جدتي التي ربتني. وأُحبُّ أُمي التي فقدتُها. حُبي بلا حدود. أحمل في قلبي حبًّا لا نهائيًّا. وسعادتي تزداد وتزداد. سترون.»

في مدينة تلوَ أخرى، قالت نفس الكلام. ثم ركبت على ظهر فيريان وعادت إلى جدتها.

رفض جليرك أن يُبارح جانب زان. صار جلده متشققًا وأصيب بحكَّةٍ بسبب توقُّفه عن الاغتسال في ماء المستنقع الأثير لدَيه. كل يوم، كان ينظر بشوق إلى «المستنقع». رجَتْ لونا «الأخوات» السابقات — صديقات إيثين — أن يُبقينَ الدِّلاء جاهزةً كي يَغمُرنه بالماء عندما يحتاج إليه، لكن ماء البئر كان مُختلفًا. في النهاية، أخبرته زان أن يتوقف عن السُّخف الذي يفعله وأن يستحمَّ يوميًّا في «المستنقع».

همست زان وهي تضع يدَيها الذابلتين على وجه الوحش: «لا يُمكنني تحمل مجرد التفكير في معاناتك، يا أعز أصدقائي. أضف إلى ذلك — ولكن لا تُسئ فَهمي — أن رائحتك كريهة.» أخذت نفَسًا مُتحشرجًا. وأضافت: «وأنا أُحبك.»

وضع جليرك أياديه على وجهها. وقال: «عندما تكونين جاهزة يا زان، يا عزيزتي زان، يُمكنكِ أن تأتي معي إلى «المستنقع».»

عندما بدأت صحة زان في التدهور بسرعة أكبر، أخبرت لونا أُمَّها ومُضيفيها بأنها ستنام في «البرج».

قالت: «جدتي تحتاج إليَّ. وأنا بحاجةٍ إلى أن أكون قريبةً من جدتي.»

اغرورقت عينا أديرا بالدموع عندما قالت لونا هذا. أمسكت لونا بيدِها. وقالت: «حُبي لا يُقسَّم. بل يتضاعف.» وقبَّلت أُمَّها وعادت إلى جدتها، ولازمتْها الليلةَ تلوَ الأخرى.

في اليوم الذي عادت فيه الدفعة الأولى من أطفال النجوم إلى «المحمية»، فتحت «الأخوات» السابقات نوافذ المستشفى.

بحلول ذلك الوقت، بدت «آكلة الحزن» عجوزًا هَرِمة. تجعَّد جلدُها على عظامها كورقة بالية. فقدت عيناها نور البصر وصارتا غائرتَين. قالت بصوتٍ أجش: «أغلِقنَ النوافذ. لا يُمكنني أن أتحمَّل سماع هذا.»

همست زان: «اتركنَها مفتوحة. لا يُمكنني أن أتحمَّل ألَّا أسمعه.»

كانت زان، هي الأخرى، مثل قشرة جافَّة. كانت تتنفَّس بشقِّ الأنفس. قالت لونا في نفسها، وهي تجلس بجوار زان، مُمسكةً بيدِها الصغيرة، الخفيفة كالريشة: «سيطرق الموت بابها في أي لحظة.»

تركت الأخوات النوافذ مفتوحةً على مصاريعها. تناهت صيحات الفرح إلى الغرفة. بكت «آكلة الحزن» في ألَم. وتنهَّدت زان في سعادة. ضغطت لونا على يدِها برفق.

«أُحبكِ يا جدتي.»

«أعلم يا عزيزتي.» تنفَّست زان نفَسًا ذا صفير. «أحب ...»

ورحلت زان وهي تُحب كل شيء.

الفصل السابع والأربعون

جليرك يذهب في رحلةٍ ويترك وراءه قصيدة

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، كانت الغرفة هادئةً وساكنة تمامًا. كان فيريان قد توقف عن النحيب أسفل «البرج» وذهب ليبكي وينام في الحديقة؛ وكانت لونا قد عادت إلى أحضان أُمِّها وأنتين وإيثين؛ عائلة أخرى غريبة ومحبوبة لفتاةٍ غريبة ومحبوبة. ربما ستنام في الغرفة مع أُمِّها. وربما تتكوَّر بالخارج بصحبة التنين والغراب. ربما صار عالَمُها أكبر من ذي قبل؛ تمامًا كما يصير عالم الأطفال عندما لا يعودون أطفالًا. قال جليرك في نفسه إن الأشياء أصبحت كما ينبغي أن تكون. ضغط بأيادِيه الأربعة على قلبه للحظة، ثم تسلَّل واختفى في الظلال عائدًا إلى جوار زان.

حان وقت الرحيل. وكان مُستعدًّا.

كانت عيناها مُغلقتَين. وكان فمُها مفتوحًا. ولم تكن تتنفَّس. كانت شاحبةً وذابلة وهامدة. كانت عصا زان هناك، لكنها فقدت شرارتها.

كانت ليلة غير مُقمرة، لكن النجوم كانت ساطعة. بل أكثر سطوعًا من المعتاد. جمع جليرك الضوء في يدَيه. ولفَّ خيوطه معًا، ناسجًا من هذه الخيوط لحافًا ساطعًا براقًا. لفَّهُ حول المرأة العجوز ورفعها إلى صدره.

فتحت عينيها.

وقالت: «عجبًا، يا جليرك.» تلفَّتَت حولها. كانت الغرفة هادئة، إلا من نقيق الضفادع. وكانت باردة، إلا من حرارة الطين أسفلهما. وكانت مُظلمة، إلا من انعكاس أشعة الشمس على البوص، ووهج «المستنقع» تحت السماء.

سألت: «أين نحن؟»

كانت امرأةً عجوزًا. وكانت فتاةً صغيرة. وكانت في مرحلةٍ أخرى فيما بين هذه وتلك. كانت كل تلك الأشياء في آنٍ واحد.

ابتسم جليرك. «في البداية كان يُوجد «المستنقع». وكان «المستنقع» يحتوي العالم وكان «المستنقع» هو العالَم وكان العالم هو «المستنقع».»

تنهدت زان. «أعرف هذه الحكاية.»

«لكن «المستنقع» كان وحيدًا. أراد عالمًا. وأراد عينين يرى بهما العالم. وأراد ظهرًا قويًّا يحمِلُه من مكانٍ إلى آخر. وأراد ساقَين ليمشي بهما ويدَين كي يلمس بهما وفمًا كي يستطيع الغناء. وهكذا، صار «المستنقع» «وحشًا» وصار «الوحش» هو «المستنقع». ثم غنى «الوحش» فأوجد العالَم. وكان «العالم» و«الوحش» و«المستنقع» كلهم من مادة واحدة، وكان يربطهم جميعًا حُبٌّ لا نهائي.»

سألت زان: «هل ستأخذني إلى «المستنقع»، يا جليرك؟». سحبت نفسَها من بين ذراعَيه ونهضت واقفةً.

«كل هذه الأشياء سواء، ألا تفهمين؟ «الوحش»، و«المستنقع»، و«القصيدة»، و«الشاعر» و«العالَم». جميعهم يُحبونكِ. وقد أحبوكِ كل هذا الوقت. هل ستأتين معي؟»

وأمسكت زان بيد جليرك وولَّيا وجهيهما شطر «المستنقع» اللانهائي وشرعا في السير. لم ينظرا وراءهما.

في اليوم التالي، قطعت لونا وأُمُّها المسافة الطويلة سيرًا إلى «البرج»، وصعدتا السُّلَّم، إلى تلك الغرفة الصغيرة لجمع آخِر متعلقات زان، ولتحضير جثمانها لرحلته الطويلة بعدما يوارى التراب. طوَّقَت أديرا كتِفَ لونا بذراعها، وقايةً لها من الحزن. خطت لونا متخلصةً من عناق أُمِّها الواقي، وعوضًا أمسكت بيد أديرا. ومعًا، فتحتا الباب.

كانت «الأخوات» السابقات ينتظرن قدومهما في الغرفة الفارغة. قلنَ، والدموع تترقرق في أعينهن: «لا نعرف ما جرى.» كان السرير فارغًا، وباردًا. لم يكن لزان أثر في أي مكان.

شعرت لونا بخدرٍ يسري في قلبها. نظرت إلى أمها، التي كانت لها نفس العينين. ونفس الشامة على الجبين.

قالت لونا في نفسها: «لا حُب بدون فقْد. أُمي تعرف هذا. والآن صرتُ أنا أيضًا أعرفه.» ضغطت أُمُّها على يدِها برفقٍ وطبعت قبلةً على شعر الفتاة الأسود. جلست لونا على السرير، ولكنها لم تبكِ. وإنما مسحت بيدِها على السرير، وهناك وجدت قصاصةً ورقية مدسوسة تحت الوسادة.

«القلب مصنوع من ضوء النجوم
والزمن.
وخزة اشتياقٍ فُقِد في عتمة المجهول.
وَتَرٌ لا يُقطَع يصِل المطلَق بالمطلَق.
قلبي يتمنَّى من قلبكِ أمنيةً ولي ما تمنَّيت.
وفي الوقت نفسه، يدور العالم حول نفسِه.
وفي الوقت نفسه، يتوسَّع الكون.
وفي الوقت نفسه ينكشِف لُغز الحب،
مرارًا وتكرارًا، على مرآة ذاتكِ، بسرِّه يجود.
لقد رحلتُ.
ولسوف أعود.
جليرك»

جففت لونا دموعها وطوت القصيدة على شكل طائر سنونو. وقف ساكنًا في راحة يدها. خرجت، تاركةً أُمَّها خلفها. بدأت الشمس تُشرق لتوِّها. كانت السماء ورديةً وبرتقالية وزرقاء داكنة. في مكانٍ ما، يجوب وحشٌ وساحرةٌ العالَم. واسْتَقَرَّ رَأْيُها عَلَى أن هذا جيد. جيدٌ جدًّا جدًّا.

بدأ جناحا السنونو الورقي يخفقان. انفتح جناحا الطائر. ورفرفا. أمال السنونو رأسَه نحو الفتاة.

قالت: «لا بأس.» كان حلقها يؤلِمها. وصدرُها يؤلِمها. والحبُّ يؤلِمها. إذن لِمَ هي سعيدة؟ «العالم جميل. امضِ لتراه.»

وانطلق الطائر نحو السماء وطار بعيدًا.

الفصل الثامن والأربعون

الحكاية الأخيرة تُروى

«أجل.

توجد ساحرةٌ في الغابة.

حسنًا، بالطبع تُوجَد ساحرة. مرَّت بالمنزل ليلة أمس. لقد رأيتِها. وأنا رأيتُها، وجميعنا رآها.

حسنًا، بالتأكيد لا تعلن عن كونها ساحرة. سيكون هذا وقحًا. غريب ما تقولينه!

لقد سُحرت عندما كانت رضيعة. شحنتها ساحرة أخرى، عتيقة، لحدِّ الامتلاء بقوة أكبر بكثير من قُدرتها على معرفة ما يمكنها فعله بهذه القوة. وتدفق السحر من الساحرة العجوز إلى الساحرة الشابة، بنفس الطريقة التي يتدفق بها الماء من الجبل. هذا ما يحدث عندما تُعلن ساحرةٌ أن شخصًا ما ينتمي إليها؛ شخصًا تحمل مسئولية حمايته قبل كل شيء. يظلُّ السحر يتدفَّق ويتدفَّق إلى أن ينفد ولا يتبقَّى ما تمنحه.

هكذا اعتبرتنا ساحرتنا ننتمي إليها. «المحمية» بأكملها. نحن ننتمي إليها وهي تنتمي إلينا. سحرها يمنُّ علينا بالنِّعم وكل ما نراه. إنه يُنعم على المزارع والبساتين والحدائق. وينعم على «المستنقع» و«الغابة» وحتى «البركان». ينعم علينا جميعًا بالتساوي. ولهذا جميع سكان «المحمية» بخير وبصحة جيدة ومُشرقون. ولهذا أطفالنا متورِّدو الخدود وبارعون. ولهذا نحن سعداء وفي بحبوحة.

في يومٍ من الأيام، تلقَّت الساحرة قصيدةً من «وحش المستنقع». ربما كانت القصيدة التي صنعت العالم. وربما كانت القصيدة التي ستُنهي العالم. وربما هي شيءٌ مختلف تمامًا. كل ما أعرفه أن الساحرة تحتفظ بها بأمانٍ داخل قلادة أسفل عباءتها. إنها تنتمي إلينا، لكن في يومٍ من الأيام سيتلاشى سِحرها وستهيم عائدةً إلى «المستنقع» ولن يعود

لدَينا ساحرة. لن يتبقَّى لدَينا سوى حكايات. ربما ستعثر على «الوحش». أو تصير هي «الوحش». أو تُصبح «المستنقع». أو تُصبح «قصيدة». أو تُصبح هي العالم. فكل تلك الأشياء هي نفس الشيء، كما تعلمين.»

هنـــداوي